# الإسلام والشرائع السماوية




سراب الحافظ

# الإسلام والشرائع السماوية

سراب الحافظ

♦ الإسلام والشرائع السماوية.
♦ سراب الحافظ.
♦ الطبعة الأولى: ٢٠٠٠ نسخة.
♦ مطبعة المنـار: الشويكة، دمشق، سورية، ص. ب: (٦٧٤٠).

---



صدر في شهر آب (أغسطس)، عام ١٩٩٧ ميلادية.
الموافق ربيع الآخر، عام ١٤١٨ هجرية.

# الإسلام
# والشرائع السماوية

سراب الحافظ

# إهداء

في يوم صيفي جميل من أيام الجمعة، سألني ولدي الصغير بعد الصلاة: لماذا نذكر إبراهيم عليه السلام دون غيره من الأنبياء والرسل بعد ذكر محمد ﷺ في ختام صلاتنا؟..

درست أبعاد السؤال وتداعياته في القرآن الكريم أبحث عن إجابة، وها أنذا أهديها إلى أطفال العالم، أمل المستقبل في نشر السلام والمحبة.

سراب

بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس المحتويات

# المقدمـة ومنهاج البحث

يعزو بعض علماء الإسلام حالـة التخلف الحضاري، التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية في هذه الحقبة من تاريخ الإنسانية، إلى ابتعاد المسلمين عن الدين الإسلامي. وهو قول يفتقر إلى الكثير من الصواب، لأن الإسلام متجذر في المسلمين حتى النخاع، تلك حقيقة يعيشونها، ويراها العالم كله من حولهم، وهي ليست في حاجة إلى برهان.

إن السبب الحقيقي وراء تخلف المسلمين منذ قرون خلت هو ابتعادهم عن **القرآن الكريم نفسه، باعتباره المرجع الأول للفكر الإسلامي**[1]، وهو **كتاب الله المنزّل، المنزّه عن النسخ، والنقص، والخطأ، والتناقض، والحشو، ذو المعطيات الفكرية الإنسانية العالمية الشاملة.** لقد حوّل أكثر المسلمين اليوم القرآن الكريم إلى ترانيم ترتل في حالات الوفاة، وفي افتتاح البثّ التلفزيوني، والإذاعي، والقليل من المناسبات الرسمية. أما في أحسن الأحوال، فيرتله المؤمنون منهم في أمسيات رمضان تلاوة غير واعية، أو متدبّرة لمعانيه ومضامينه الفكرية، ودون محاولة، أو حتى رغبة في ذلك. فإذا ما حاولوا، لجؤوا إلى ما قاله السلف، دون إعمال للفكر، أو للعقل.

يقول الشيخ محمد الغزالي: " أما الأمة الإسلامية فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة والتدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة.. وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها ووعي لمغازيها، يفيد أو هو المقصود.. وهو موقف مرفوض من الناحية الشرعية، ذلك أن قوله تعالى ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾ ص ٢٩، يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنى القريب، لاستنتاج ماهو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية، تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير "[٢]. وبهذا ينطبق على المسلمين قوله تعالى: ﴿**وقال**

**الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾** الفرقان ٣٠. والهجر هنا ليس هجراً حسياً، وإنما هجر للمعاني والمضامين الفكرية القرآنية.

هذا بالرغم من أن المسلمين وعلماءهم يصرّحون في كل مناسبة بأن القرآن الكريم هو المرجع الأول للمسلمين، وأن المرجعيات الأخرى وأولها الأحاديث المروية، تأتي في مراتب متأخرة. **ولكنه قول لا يتحقق على المستوى التطبيقي**. وإلاّ ماذا يعني أن يقرّ الفقه الإسلامي **بجواز نسخ بعض الأحاديث المروية** عن الرسول الكريم ﷺ لآيات كريمة كاملة وردت في القرآن الكريم، فتبطل حكمها، وتلغيه؟.. أي أن بعض مارواه رواة الحديث عن الرسول الكريم ﷺ، كالإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبي داوود، يعطل حكم بعض الآيات القرآنية، وينسخها، كما هو الحال والحديث " لا وصية لوارث " * الذي يعتبره الفقه الإسلامي **ناسخا** للآية ١٨٠ من سورة البقرة ، أي مبطلا لأحكامها.

جاء في كتاب **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي مايلي: " وقيل: **بل يُنسخ القرآنُ بالسنة**، لأنها أيضا من عند الله.. وجعل منه آية الوصية " [(٣)]. ويقول الدكتور إبراهيم سلقيني في حكم **السنة**، في كتابه **أصول الفقه الإسلامي**: إنها " **تنسخ القرآن، وتخصص عمومه، وتقيد مطلقه** " [(٤)] **.

**فهل يكون القرآن الكريم، مع تلك الأساسيات المنهجية في التعامل مع القرآن والسنة، المرجع الأول للمسلمين؟..**

---

* هو جزء من حديث مشهور، أخرجه الترمذي في الوصايا تحت رقم (٢١٢٢)، وقال حسن صحيح، كما أخرجه النسائي وأبو داوود. ولم يخرجه البخاري في صحيحه.

** يقول الدكتور ابراهيم سلقيني أيضا شارحا وظائف السنة " الحالة الثانية: **السنة الناسخة لحكم ثبت بالقرآن** كقوله ﷺ { لا وصية لوارث } فإنه **نسخ الوصية للوارث** الواردة في قوله تعالى ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين..**﴾ "، أصول الفقه الإسلامي، السنة الرابعة، كلية الحقوق، جامعة دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، ١٩٨٩-١٩٩٠م، ص: ٧٤. تجد تفصيل ذلك في بحث الإرث.

ويبين الشيخ الغزالي رأيه في **التفسير الأثري** للقرآن، أي التفسير بالمأثور من الأحاديث التي رويت عن الرسول الكريم ﷺ، والصحابة، والتابعين، والأتباع الكرام، **كتفسيري ابن كثير والطبري**، فيقول: " التفسير الأثري لا يعرض للمشكلات البلاغية، والمشاكل الكلامية، وهناك أمور كثيرة لا يتوقف عندها.. وأكاد أقول: إن التفسير الأثري **أخضع الآيات للأحاديث**.. والمشكلة أن بعض الأحاديث التي جاءت في التفسير بالمأثور، تكون **ضعيفة السند**.. وهذا أيضا في تفسير ابن كثير الذي نجد فيه بعضا من المتضادات.. فعندما يفسر قوله تعالى ﴿**..قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم..**﴾ يأتي **بمتناقضات!** يأتي بحديث ضعيف وخفيف الوزن.. ويأتي بأحاديث أخرى تدل على أن الكحل في العين والحمرة في الخد لا بأس بهما ولا مانع منهما.. فهو تفسير غير محقق.. ويؤسفني أن أقول: إن **بعض التفاسير بالأثر، بلغ أحيانا درجة من الإسفاف**، فمثلا ذكر قصة الغرانيق، وذكر قصة زينب بنت جحش على النحو الذي ذكر.. التفسير الأثري يحتاج رقابة دقيقة عليه.." (٥).

وهذا ما ذهب إليه الدكتور يوسف القرضاوي في تقويمه لبعض جوانب الفقه الإسلامي، عندما قال: " في **فقهنا** أشياء يجب أن تراجع، لأنها مبنية على **أحاديث ضعيفة: وكيف أبني حكما على حديث ضعيف؟**.. وهناك أشياء في الفقه ثبت أن مصدرها معرفة بشرية ثبت خطأها.. وإذا كان الشافعي قد غيّر * وأصحاب أبو حنيفة في عدة سنوات، فكيف نظل نحن في ظل هذا التغير السريع لا نواجه العصر؟.." (٦).

أما عن **التفسير بالرأي**، أي وفق اجتهاد يخضع **لضوابط العقل، والمنطق، وقواعد اللغة العربية، ومعهود العرب في الخطاب**، فيقول الشيخ الغزالي: " أما التفسير بالرأي، حيث يكون الرأي بيانياً، أو علمياً، أو لغوياً، أو ما إلى ذلك، فإنه يأتي ثمرة للنظر والتدبر في القرآن.. والتدبر يعني: رأيا، ويعني: فكرا، واستنتاجا. والقرآن كتاب عربي، يخضع للأساليب

---

* يعني بذلك بعد رحيل الشافعي إلى مصر.

العربية في الفهم، ولا نسمح بالشطحات.. لا بد أن تبقى الكلمة هي الكلمة.. لا بد أن يفهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب، ومن دلالات الألفاظ كما كانت عند العرب.. فمعنى أن القرآن عربي: هو أنه يخضع للفهم بالأسلوب العربي " (٧).

إن أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، التي باتت حقيقة ملموسة تعاني منها المجتمعات الإسلامية، بكل ما ينتج عنها من حركات متطرّفة، تقدم الإسلام للعالم باعتباره ديناً للإرهاب والتخلف في طروحاته السياسية والاجتماعية، إن الأزمة هذه تكمن في حقيقة أن الفكر الإسلامي المعاصر **لم يستق مسلماته، ومفاهيمه، وأحكامه من القرآن الكريم نفسه – باعتباره المرجع الأول للفكر الإسلامي** – بل بناها في كثير من الأحيان تأسيساً على المرجعيات الأخرى، كالأحاديث التي رواها الأئمة عما صدر عن الرسول الكريم ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، وعلى الإجماع والقياس، اللذين قررهما العلماء في القرون الماضية، وهي جميعاً علوم ظنية اجتهادية، غير قطعية الثبوت، تخضع بالضرورة لمبدأ الصواب والخطأ، ولا تفيد اليقين في أكثرها، كما يقرر العلماء أنفسهم.

لقد أكد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه **المستصفى**، والعلامة الآمدي في كتابه **الإحكام في أصول الأحكام** على مايلي: " **سنة الآحاد**: وهي مارواها.. عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحد أو اثنان أو جمع لم يبلغوا حد التواتر، ورواها عن هذا الراوي مثله حتى وصلت إلينا بسند طبقاته آحاد لا جموع التواتر. **ومن هذا القسم: أكثر الأحاديث التي جمعت في كتب السنة**، وتسمى سنة الآحاد أو خبر الواحد. **وحكم سنة الآحاد: أنها ظنية الثبوت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذا لا تفيد العلم اليقيني، بل تفيد الظن** " (٨).

ويقول الشيخ الغزالي في الموضوع نفسه: " أما إذا روى الخبر واحد، أو عدد يسير ولو في بعض طبقاته، فإنه لا يكون متواترا بنسبته إلى رسول اللـه ﷺ، وإنما يكون آحاديا، في اتصاله بالرسول **شبهة، فلا يفيد اليقين**. إلى هذا ذهب أهل العلم، ومنهم **الأئمة الأربعة**: مالك، وأبو حنيفة، والشافعي،

وأحمد في إحدى الروايتين عنه.. قال البزدودي: { **دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة**، لأن خبر الآحاد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال، ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه، وأضلّ عقله }. وبهذا أخذ الإمام محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمود أبو دقيقة، وغيرهم. يقول المرحوم الإمام محمد عبده: { **القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته**، أما ماعداه مما ورد في الأحاديث، سواء صح سندها، أم اشتهر، أم ضعف، **فليس مما يوجب القطع**. كما ذكر الشيخ شلتوت في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة قوله: { إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند)، **ومن جهة الدلالة (المعنى)**، كالشبهة في اتصاله، **والاحتمال في دلالته** } " [٩].

وكون الظن يلحق بالسنة من جهة الدلالة، يعني وجوب **البرهان على صحة الحديث المروي من حيث المتن كذلك**، أي من حيث توافق مضمون الحديث الفكري ومعناه مع آيات القرآن الكريم، ومبادئه، وأحكامه. وهو من **القواعد الأساسية لعلم الحديث والرواية**، التي أكد أغلب علماء الحديث على وجوب الأخذ بها.

أما بالنسبة **للاجماع والقياس**، فلا يمكن الاعتماد على ما جاء منهما في القرون الماضية فيما يخص الأمور غير العقدية من الدين، أي البعيدة عن أمور العقيدة. حيث تعتمد شؤون الحياة الأخرى اعتماداً كلياً على المعطيات الزمانية والمكانية المتغيرة للمجتمعات الإنسانية، كما أكد الدكتور القرضاوي، من خلال مثاليه حول الشافعي، وأتباع أبي حنيفة. لقد أجمع المسلمون يوماً على **حرمان المرأة من التعليم** خوفا من نشوزها، رغم تأكيد مجمل القرآن الكريم، والأحاديث المروية، على وجوب طلب العلم على كل مسلم، ومسلمة. كما أجمع الكثير منهم على شرعية **استدعاء الزوجة إلى بيت الطاعة مكرهة**، رغم تعارض ذلك الواضح مع آيات القرآن الكريم *،

---

* انظر الآية الكريمة رقم ٢٢٩ من سورة البقرة.

ومع كثير من الأحاديث المروية. فهل يجمع المسلمون اليوم على الأمرين؟.. وهل يصلح مثل هذين الإجماعين للتطبيق في مجتمعاتنا المعاصرة ؟..

وعندما يرجع بعض علماء الإسلام إلى القرآن الكريم، فإنما يرجعون إلى آيات متفرقة بعينها منه، أو إلى جمل من الآيات فقط، حيث تجتزأ الجملة عن سياقها في الآية الكريمة *، أو تعتبر الجمل الأخرى من الآية الكريمة منسوخة، أي باطلا حكمها.

يقول السيوطي في **الإتقان في علوم القرآن** " ومن عجيب النسخ أيضا **آية أولها منسوخ وآخرها ناسخ**، ولا نظير لها، وهي قوله ﴿..**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**..﴾ المائدة ١٠٥، يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا ناسخ لقوله ﴿..**عليكم أنفسكم** ..﴾ " [(١٠)]. ويقول ابن كثير في تفسيره للآية ١٨٤ من سورة البقرة: " ﴿..**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**..﴾ منسوخة، **نسختها الجملة التي تليها**، وهي ﴿..**وأن تصوموا خير لكم**..﴾ ".

" إن الدعوة إلى محاصرة العقل، والحجر عليه، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين، هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن.. وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم.. أصبح من بعض الوجوه عائقاً يحول دون هذا كله.. وشيئاً فشيئاً، **تتحول القدسية من القرآن إلى السنة، فتجعل السنة حاكمة على القرآن**، ومن ثم **انتقلت القدسية لفهوم البشر**، وبقي الكتاب والسنة للتبرك. فالمشكلة المستعصية في اختلاط قداسة النص ببشرية التفسير، والاجتهاد لذلك النص، وإدراك مرماه. حيث عُدّ رأي الشيخ أو المتبوع في تفسير نص ما أو فهمه، هو الأمر الوحيد، والممكن، والمحتمل، والأكمل لمدلول ذلك النص، وصار أي رأي أو احتمال آخر خروجاً عن الاجماع، أو نوعاً من الابتداع، وقد لا نستغرب في هذا المناخ أن ينتهي بعض الفقهاء والأصوليين إلى القول: **(كل آية أو حديث**

---

* انظر شرح الآية ٢٢٨ من سورة البقرة في الفصل الثالث، بحث العمل الصالح والتفصيل الإلهي.

**تخالف ماعليه أصحابنا، فهو مؤول أو منسوخ)**، وهذا القول منسوب إلى أبي الحسن الكرخي من الأحناف " [١١].

إن أزمة الفكر الإسلامي المعاصر هي أزمة منهاج علمي وأدوات معرفية، تنتمي إلى القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، أي الثامن والتاسع والعاشر للميلاد، مازال المسلمون يستخدمونها، وهم يعيشون القرن الخامس عشر للهجرة، وعلى أبواب القرن الحادي والعشرين للميلاد.

وبناء على ماتقدّم، فقد استخدمت المنهاج العلمي التالي في إجراء هذا البحث، اعتمادا على **تفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم**. وتتلخص خطوات المنهاج بما يلي:

أولاً: دراسة كل موضوع يطرح على بساط البحث **من خلال الذكر الحكيم أولاً**، وفق نظرة علمية كلية شاملة لمجمله، ولكل الآيات الكريمة ذات العلاقة.

ثانياً: **الآية الكريمة الواحدة وحدة متكاملة**، لا يجوز تجزئتها، أو بتر جمل منها عن سياقها، أو بتر الآية الكريمة عن سياقها في السورة، أي عما قبلها ومابعدها من الآيات الكريمة * .

ثالثاً: ربط الآيات الكريمة ذات الموضوع نفسه بعضها مع البعض الآخر **في سياق منطقي، وتحليلها وفق قواعد اللغة العربية، ومعهود العرب في الخطاب، ودلالات الألفاظ كما كانت عند العرب** ** .

---

* لهذا عندما تذكر آية كريمة غير كاملة في مكان ما من هذا الكتاب، فإنها تكون قد ذكرت كاملة في مكان سابق. أما الآيات الكريمة التي لم تذكر بكاملها في معاجم اللغة، وفي نصوص العلماء الذين نقل عنهم، فتركت على حالها.

** لهذا اعتمد الكتاب في شروحاته اللغوية بشكل أساسي على معجمي: **مقاييس اللغة** لأبي الحسن أحمد ابن فارس، الذي يبحث في أصول الكلمات ودلالاتها اللغوية الأساسية، و**مفردات ألفاظ القرآن الكريم** للراغب الأصفهاني، الذي يبحث في أصول الكلمات كما جاءت في القرآن الكريم نفسه، وأحيانا في الأحاديث المروية. كما اعتمد الكتاب على **الفريد في إعراب القرآن المجيد** للمنتجب حسين الهمداني،

رابعاً: الرجوع – ما أمكن – إلى الأحاديث المروية عن الرسول الكريم ﷺ، **التي تتفق مع القرآن الكريم، وتشرحه، وتبينه** *.

خامساً: **استنتاج المعاني، والمسلمات، والمفاهيم القرآنية.**

إن هذا الكتاب ليس أكثر من محاولة متواضعة، تهدف إلى المساهمة في إعادة بناء أهم المسلمات والمفاهيم الإسلامية. تلك المسلمات والمفاهيم، التي يقوم على أساسها فهم دين الله الواحد، الدين القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام، دين عالمي شامل يخاطب كل المؤمنين بالغيب في العالم، سواء أكانوا على شرعة التوراة، أم على شرعة الإنجيل، أم على شرعة القرآن الكريم، أم من هم من الأميين، أم الصابئة.

يقول تعالى:

**﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** البقرة ٦٢.

وهو اجتهاد أدعو الله أن يثيبني عليه الأجرين..

والله ولي التوفيق.

---

**ولسان العرب** لابن منظور، **وشرح المفصل** لموفق الدين يعيش بن علي النحوي، **وأساس البلاغة** لمحمود بن عمر الزمخشري، وبعض الكتب النحوية الأخرى.

* تم الأخذ بالأحاديث المروية التي يتفق متنها – أي مضمونها الفكري – مع المبادىء الأساسية، والمعاني الكلية، والأحكام التفصيلية للذكر الحكيم. أما الأحاديث التي لا يتفق متنها مع ذلك، فلم يؤخذ بها في هذا الكتاب. إن القول **بنسخ السنة للقرآن الكريم، وتخصيص عمومه، وتقييد مطلقه، يجعلها حاكمة عليه**، موجهة لمعانيه ومقاصده الإلهية. وبتعبير آخر يجعلها مرجعاً أولا للفكر الإسلامي، مما يرفضه كل مسلم حق. أما مراجع الكتاب الأساسية في هذا الخصوص، فهي **صحيح البخاري** للإمام عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، **وصحيح مسلم** للإمام أبي الحسن مسلم القشيري النيسابوري. كما أخذ الكتاب عن **رياض الصالحين** للإمام النووي، **ومشكاة المصابيح** للخطيب التبريزي، وبعض كتب الحديث الأخرى.

# مصادر ومراجع المقدمة

(١) اعتمد هذا الكتاب على نسخة **القرآن الكريم**، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، الدوحة، قطر، ١٤٠٣هـ، و**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** بحاشية المصحف الشريف، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٩٨٨م، ١٤٠٨هـ.

(٢) الغزالي، محمد، **كيف نتعامل مع القرآن**، في مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥)، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص: ٢٥-٢٦.

(٣) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الثاني، دمشق، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص: ٧٠١.

(٤) إبراهيم سلقيني، **أصول الفقه الإسلامي**، السنة الرابعة، كلية الحقوق، جامعة دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، ١٩٨٩-١٩٩٠م، ص: ٦٦.

(٥) مرجع سابق، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص: ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٦) " فضيلة العلامة يوسف القرضاوي في حديثه عن الاجتهاد في الإسلام في معرض الكتاب "، **جريدة الراية القطرية**، العدد (٥٣٤٢)، الدوحة، قطر، ١٩٩٦/١٢/٢٢م.

(٧) مرجع سابق، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص: ٢٥٠. ويقول الشيخ الغزالي في معرض حديثه عن أنواع التفسير بالرأي " الرأي الذي نهينا عنه في تفسير القرآن هو الهوى، وهو أن يكون الإنسان نفسه سيئ النية أو متجهاً إلى مأرب من المآرب، فيتلو القرآن ويلوي عنقه كي يخدم هذا المأرب "، ص: ٢٤٨.

(٨) مرجع سابق، **أصول الفقه الإسلامي**، ص: ٦٧. استقى الدكتور سلقيني معلوماته من **المستصفى** للإمام الغزالي (١:٩٣)، ط: أولى، و**الإحكام في أصول الأحكام** للعلامة الآمدي (٢:٤٧)، ط: مطبعة المعارف ١٣٣٢هـ.

(٩) الغزالي، محمد، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، بيروت، ١٩٩٦م، ص: ١٧٠ و ١٧٧.

(١٠) مرجع سابق، **الإتقان في علوم القرآن**، ص: ٧١٤

(١١) مرجع سابق، **كيف نتعامل مع القـرآن**، مقدمة عمر عبيد حسنة، ص: ١٦-١٧.
وأذكر هنا أن التشريع السوري مثلا يعتمد في أغلبه على المذهب الحنفي.

# الفصل الأول

## الكتاب الحق / أم الكتاب

## دستور الإسلام

إذا كان الذكر الحكيم يؤكد أن الدين الإسلامي بدأ يوحى إلى الإنسانية مع نوح عليه السلام، واستمر مع الأنبياء والرسل من بعده، إلى أن اكتملت تفاصيله مع محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل، فهل يعني بذلك أنه يضم بين دفتيه التعاليم، والقيم، والمبادىء العامة، التي أنزلت إلى الإنسانية برمتها عبر تاريخها الطويل؟..

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما تلك التعاليم، والقيم، والمبادىء العامة، التي أوحيت إلى محمد ﷺ، وإلى النبيين والرسل جميعاً من قبله من جهة؟.. وما هي التفاصيل التي أضافتها بعثة محمد ﷺ إلى الدين الإسلامي من جهة أخرى؟..

وبتعبير آخر: أيّة تعليمات سماوية من الذكر الحكيم كانت قد أنزلت إلى الأنبياء والرسل من قبل محمد ﷺ؟.. وما هي التعليمات السماوية الجديدة، التي أنزلت إلى محمد ﷺ فى الذكر الحكيم، ولم تنزل إلى الأنبياء والرسل من قبله؟..

وما سبب ذلك التركيز الشديد في الإخبار عن قصص الأمم السابقة، والأنبياء والرسل الذين بعثوا إليها، والتعاليم والأحكام التي أرسلوا بها؟..

ثم لماذا يعطي الذكر الحكيم تلك الأهمية الاستثنائية لابراهيم عليه السلام؟.. ولماذا وصفه – دون غيره من الأنبياء والرسل – بالأمة، وبالإمام، وبأبي الأنبياء؟.. ولماذا يأمر الناس والأنبياء والرسل جميعا باتباع

ملته هو بالذات، وليس ملة نوح مثلا وقد بدأ الإسلام معه، أو ملـة محمد ﷺ وقد اكتمل الإسلام ببعثته؟..

ثمة أسئلة كثيرة تثيرها قصة الوحي بالدين الإسلامي القديم الجديد للناس في كل زمان، وفي كل مكان، سنحاول الإجابة عليها في هذا الفصل من الكتاب. مؤكدين أن **الذكر الحكيم هو المرجع الوحيد لما جاء في هذه الدراسة من قصص أهل الكتاب، وعقائدهم، وشرائعهم**، أما التوراة والأناجيل، فهي خارج دائرة البحث.

## الكتاب الحق:

وردت كلمة **(الكتاب)** - بمعنى كتاب الله - في كثير من الآيات الكريمة، فهل الذكر الحكيم هو المقصود دائما بالكتاب، وأحيانا الكتب التي أنزلت إلى الأمم السابقة، أم أنها تعني بشكل أساسي التعاليم، والقيم، والمبادىء العامة، التي طلب الله من الإنسانية تمثلها، عن طريق أنبيائه ورسله جميعا؟..

إن لله العلم الكامل بخلقه: الكون بكل تفاصيله، والإنسان بتكوينه النفسي الفطري، الذي لا يتغير بتغير الزمان أو المكان: فالحب والكراهية، والقسوة والرحمة، والكرم والبخل، والصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والنزوع إلى الحرية والتعلم والتطور - مثلا - صفات موجودة في الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض، وستبقى حتى نهايته عليها، طالما أنها تمثل فطرته، أي طبيعة خلقه. إن مايختلف في الإنسان على مر العصور، ماهو إلاّ قدراته الفكرية، وأدواته المعرفية في فهم قوانين الكون بكل موجوداته، وبالتالي تطويعها، وتطويرها حسب احتياجاته المتغيرة، مما يساعده على التطور والتقدم، وبالتالي بناء الحضارة.

يقول تعالى:

**﴿ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾** لقمان ٢٨.

وبما أن الإنسان واحد في فطرته التي تمثل جوهر خلقه، وبما أن الله واحد لا إله غيره، فإن العقل والمنطق يقتضيان أن يكون لله دين واحد أوحى به إلى الأنبياء والرسل جميعا، وبالتالي أن يكون له كتاب واحد أصل يضمّ التعاليم، والقيم، والمبادىء العامة للتعاليم السماوية التي أنزلت إليهم أجمعين. وهذا مايؤكده الذكر الحكيم [*].

يقول تعالى:

**﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وماااختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** البقرة ٢١٣. ورد ذكر الأنبياء بصيغة الجمع، وهم كل الأنبياء، ومن بينهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام، بينما ورد الكتاب بصيغة المفرد، أي أن لله كتاباً واحداً أصلاً أنزله إلى الأنبياء جميعا.

**﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾** آل عمران ٨١. أوحى الله إلى النبيين جميعا كتاباً واحداً، لا كتباً متعددة.

**﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ○ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون ○ ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون﴾** الزمر ٦٨-٧٠. يحاسب

---

[*] هذا لا ينفي كون كلمة (الكتاب) تأتي أحيانا بمعنى الذكر الحكيم.

الناس جميعا على أعمالهم يوم الحساب على أساس كتاب الله الواحد (مفرد) بالرغم من تعدد النبيين (جمع). ولا يعني الكتاب هنا صحيفة الأعمال، لأن الأعمال ذكرت في الآية التي تليها ﴿.. ووفيت كل نفس ماعملت..﴾.

**﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوٰة وآتى الزكوٰة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾** البقرة ١٧٧. يطلب الله من الناس جميعا الإيمان بالغيب، والملائكة، والكتاب الواحد الذي أوحى به إلى النبيين أجمعين. نلاحظ أن ماطلب تعالى من الناس جميعا الإيمان به هو ما جاء في مقام النبوة، وليس ما جاء في مقام الرسالة، حيث قال ﴿..والكتاب والنبيين..﴾ ولم يقل (..والكتاب والرسل..).

**﴿ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾** الحديد ٢٦. إن ما أرسل إلى نوح وإبراهيم والنبيين من ذريتهم، ومن بينهم موسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام، إنما هو كتاب الله الواحد الحق، وهو موضوع نبوتهم أجمعين *.

نستنتج من الآيات الكريمة المذكورة ومجمل الذكر الحكيم ما يلي:

١- لقد أنزل الله **كتاباً واحداً** -لا كتباً متعددة- إلى **النبيين جميعا** ومن بينهم محمد ﷺ. وعليه فإن الكتاب الواحد الأصل هو الأساس الجامع فيما بينهم، وهو موضوع نبوتهم أجمعين - ولا أقول دليلها - ﴿..**فبعث الله النبيين**

---

* نفهم من الآيات الكريمة المذكورة أن صيغة المفرد في كلمة (الكتاب) مقصودة تماما، وأنها لا تعني الكتب السماوية بمجملها، أي باعتبار الكتاب اسم جنس. حيث لا يوجد في الآيات الكريمة ما يمنع ذكر الكتاب بصيغة الجمع (كتبه)، كما في قوله تعالى **﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾** التحريم ١٢. وردت كلمة (الكتاب) بصيغة الجمع مرتين بالإضافة إلى الآية الكريمة المذكورة، في سياق خطاب يخص فريقا بعينه من المؤمنين. تجد تفصيل ذلك في الفصل الثالث، بحث الإيمان بالغيب وضده الكفر.

**مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب..﴾ ﴿..ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء..﴾﴿..ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة..﴾ ﴿..آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..﴾﴿..وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب..﴾** .

والكتاب الواحد الذي نزل إلى النبيين جميعا هو **ميثاق نبوتهم**، الذي أخذ الله عليهم جميعا العهد الغليظ بإبلاغه للناس كافة، لذلك يقول تعالى:

**﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾** الأحزاب ٧.

**﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة..﴾** آل عمران ٨١.

وبما أن الكتاب الواحد هو ميثاق نبوة النبيين، فهو أيضا **ميثاق المؤمنين**، الذي يربطهم بالخالق. يقول تعالى:

**﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ○ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾** الرعد ١٩-٢٠.

**﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾** الأعراف ١٦٩.

٢- وقد أنزل الله الكتاب الواحد الميثاق بالحق، أي أن موضوعه هو الحق من الله. والحق لغويا " يدل على **إحكام الشيء** وصحته.. ويقال حقّ الشيء: **وجب**.. ويقال ثوب محقق، إذا كان محكم النسج.. والحاقة: القيامة، لأنها تحقّ بكل شيء " [١] و " أصل الحق: **المطابقة والموافقة**، كمطابقة رجل الباب في حقه (أي عقب الباب) لدورانه على استقامة " [٢].

وعليه فإن **موضوع الكتاب الواحد الأصل هو الحقّ من الله**. وهو كذلك لسببين اثنين:

أ- لأنه أرسل إلى الإنسانية برمتها، أي أنه **واجب على الناس كافة تطبيقه والالتزام به في كل زمان وفي كل مكان**، بغض النظر عن اختلاف شرائعهم ومناهجهم، وقد كان معروفا من قبل نزول الذكر الحكيم.

يقول تعالى:

**﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق..﴾** البقرة ٢١٣. **الحق** هو موضوع الكتاب الواحد، الذي أنزل إلى الناس جميعا بواسطة النبيين.

**﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾** الزمر ٦٩. إن الله يقضي يوم الحساب بين الناس والنبيين والشهداء **بالحق**، وهو موضوع كتاب الله الواحد، الأصل، الذي أنزل إلى النبيين جميعا. ولذلك يقول تعالى أيضا **﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾** الأعراف ٨.

**﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾** البقرة ١٧٦. نزل **الكتاب الواحد الحق** إلى الناس جميعا، الذين اختلفوا فيما بعد.

**﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ومأنا عليكم بوكيل﴾** يونس ١٠٨. لقد أنزل الله **الكتاب الواحد بالحق** إلى النبيين جميعا، ليبلغوه للناس كافة، ولذلك فهو الحق، الذي أنزل إلى الناس من أجل هدايتهم.

والحق أيضا هو موضوع الكتاب الأصل الذي نزل إلى محمد ﷺ في الذكر الحكيم، ولذلك يقول تعالى:

**﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** المائدة ٤٨. أُنزل الكتاب الحق إلى محمد ﷺ كما أُنزل إلى النبيين جميعا من قبله، ولذلك فهو الحق الجامع فيما بينهم * .

**﴿أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾** الأنعام ١١٤.

**﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وماأرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾** الإسراء ١٠٥.

**﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾** سبأ ٦.

**﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ○ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين﴾** الصافات ٣٦-٣٧.

**﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ○ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ○ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** الزخرف ٢٩-٣١.

ب- لأنه **محكم الصياغة شكلاً ومضموناً، ومتطابق** في النبوات كلها، حيث أُنزل إليهم جميعا كتاباً واحداً. ولولا أن الكتاب الواحد الحق الذي أنزل إلى النبيين والرسل من قبل محمد ﷺ هو **عين الكتاب الحق** الذي أنزل إلى

---

* أما الشرائع والمناهج فتختلف من أمة لأخرى حسب مشيئة الله. يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

محمد ﷺ، لما طلب الله من نبيه التأكد من الذين أوتوا الكتاب من قبله من منشئه الإلهي.

يقول تعالى:

**﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾** العنكبوت ٤٧.

**﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾** يونس ٩٤.

**﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ○ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾** القصص ٥٢-٥٣.

وعليه **فالكتاب الحق كتاب ينزع إلى المطلق**. ولذلك يتوجب على المجتمعات الإنسانية الالتزام به في كل زمان ومكان، بغض النظر عن الظروف الموضوعية المحيطة، الاجتماعية منها، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والعلمية، وغيرها.

٣- وبما أن الرسول نبيّ بالضرورة، فقد أوحي **الكتاب الحق إلى الرسل من النبيين**، فكان موضوع نبوتهم كذلك. أما رسالاتهم، التي تفصّل الكتاب الحق، وتبيّنه، فقد أنزلت إليهم جميعا منفصلة عنه (باستثناء محمد ﷺ خاتمهم). ولذلك تشير الآيات الكريمة إلى الرسالات من قبل محمد ﷺ بكونها **منفصلة** عن الكتاب الحق، في قوله تعالى:

**﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾** فاطر ٢٥.

بما أن الشيء لا يعطف على نفسه في اللغة العربية، وإنما يكون العطف للمتغايرات، أو للمتشابهات، وللخاص على العام، لذلك فإن العطف في الآية

الكريمة هو عطف متشابهات، حيث تتشابه البينات، والزبر، والكتاب المنير، في أنها جميعا من عند الله *. أي أن الله أرسل الرسل جميعا بالبينات وبالزبر، تبيانا للكتاب الحق، وتفصيلا له.

﴿**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**﴾ آل عمران ١٨٤. الرسل جمع، والكتاب واحد حق ينير للرسالات طريقها، أما البينات والزبر فهي صفة الرسالات.

﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾ الحديد ٢٥. لقد أرسل الله الرسل جميعا بالبينات، وهي صفة الرسالات وموضوعها، وبالكتاب الواحد الحق، وهو موضوع نبوتهم أجمعين.

﴿**الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون**﴾ غافر ٧٠. الكتاب الذي أنزل إلى الرسل جميعا كتاب واحد حق وهو موضوع نبوتهم، أما موضوع رسالاتهم فهو الشرعة التي أرسل بها كل رسول على حدة، التي تبيّن الكتاب الحق، وتفصّله.

وعليه، بما أن الكتاب الحق هو موضوع نبوة النبيين والرسل، وهو الأساس الجامع فيما بينهم، لذلك فإن التوراة هي بالضرورة رسالة موسى عليه السلام، التي أوحيت إليه منفصلة عن الكتاب الحق، ورسالة عيسى عليه السلام هي التوراة والإنجيل مجتمعين، اللذين أوحيا إليه أيضا منفصلين عن الكتاب الحق. لذلك يقول تعالى ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾ آل عمران ٤٨، أي أن الكتاب الذي أوحي إلى عيسى عليه السلام هو كتاب غير التوراة والإنجيل.

---

* جاء في كتاب **مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي** ما يلي: **" إن الواو يستدعي معناه أن لا يكون معطوفه هو المعطوف عليه**، لامتناع أن يقال: جاء زيد وزيد، وأن يكون زيد الثاني هو زيد الأول ". ضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص: ٢٥٠.

٤- وإذا كانت الرسالات السماوية أوحيت إلى الرسل من قبل محمد ﷺ منفصلة عن الكتاب الحق، فإن الأمر يختلف مع خاتم النبيين والرسل، حيث أوحيت إليه **الرسالة متداخلة مع الكتاب الحق في كتاب واحد، هو الذكر الحكيم.** وبما أن الأمر كذلك، فقد كان من الضروري تمييز الكتاب الحق عن الرسالة بالاسم في الكتاب الذي أوحي إلى محمد ﷺ، لذلك وصفه تعالى بـ (**أمّ الكتاب**) أي رأس الكتاب، وجوهره، وأمه، وأهم جزء فيه. أما رسالة محمد ﷺ فقد أطلق عليها اسم القرآن * .

يقول تعالى:

**﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾** فاطر ٣١.

أي أن الكتاب الحق الذي أوحي إلى النبيين جميعا هو **بعض الكتاب الذي أوحي إلى محمد** ﷺ، حيث أن (من) في ﴿**..من الكتاب..**﴾ هي حرف جر للتبعيض. أما البعض الآخر فهو القرآن، رسالة الرسول الخاتم ﷺ، ولذلك يقول تعالى:

**﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وماأرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ○ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلا﴾** الإسراء ١٠٥-١٠٦.

أي أنه تعالى فرّق القرآن عن الكتاب الحق، ليقرأه رسوله على الناس على مكث، أي بتمهل وتأن، حيث يحوي القرآن المعلومات الجديدة بالنسبة للإنسانية، أما الكتاب الحق فإن الناس يعلمونه حق العلم، لأنه نزل إليهم جميعا من قبل.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفقرات القادمة، بحث أم الكتاب.

ولهذا يقول تعالى أيضا ﴿..**ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا..**﴾ أي أن الحق الذي جاء إلى النبيين جميعا (ومن بينهم النبي الخاتم) واحد، أما الشرائع التي أتى بها الرسل من النبيين، فتختلف من رسول لآخر.

ولأن القرآن من جنس التوراة والإنجيل، عطفت الآية الكريمة القرآن عليهما عطف متشابهات في قوله تعالى:

﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ التوبة ١١١.

بما أن التوراة هي رسالة موسى، ورسالة عيسى هي التوراة والإنجيل مجتمعين، لذلك فإن رسالة محمد ﷺ هي القرآن بما في ذلك التوراة والإنجيل. **ويشكل القرآن مع الكتاب الحق مجمل الكتاب الذي نزل إلى محمد**ﷺ، **أي مجمل الذكر الحكيم.**

٥- **الكتاب الواحد الحق هو الحق الموجود بين يدي الله.** يقول تعالى:

﴿**وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين**﴾ سبأ ٣١.

بما أن الشيء لا يعطف على نفسه كما جاء آنفا، لذلك فإن الذي بين يدي الله هو شيء غير القرآن، حيث يؤكد تعالى في آيات أخرى أن القرآن موجود في اللوح المحفوظ ﴿**بل هو قرآن مجيد ○ في لوح محفوظ**﴾ البروج ٢١-٢٢.

وعليه، بما أن الذكر الحكيم يحوي القرآن الكريم والكتاب الحق مجتمعين، وبما أن القرآن موجود في اللوح المحفوظ، وهو ليس الكتاب الذي بين يدي الله، لذلك فإن **الذي بين يدي الله هو الكتاب الحق بالضرورة.**

أما قوله تعالى ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**﴾ المائدة ٤٦، فإن الخطاب في قوله ﴿**..بين يديه..**﴾ يعني عيسى بن مريم وليس الله عز وجل، وهكذا الأمر بالنسبة للآيتين السادسة من سورة الصف، والخمسين من سورة آل عمران.

لذلك فعندما يقول تعالى ﴿**ألم ○ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**﴾ البقرة ١-٢، فإنما يعني **الكتاب الحق الموجود بين يدي الله**، الذي أنزل إلى النبيين جميعا بمن فيهم محمد ﷺ، ولهذا استعمل اسم الإشارة (ذلك) الذي يدل على البعد، عوضا عن (هذا) الذي يدل على القرب. وهذا لا يعني أن هناك ريباً أوشكاً في الأجزاء الأخرى من الذكر الحكيم، وإنما هو إشارة إلى الكتاب الحق بعينه *.

## موضوع الكتاب الحق:

بما أن الكتاب الذي أنزل إلى النبيين جميعا، ومن بينهم محمد ﷺ، هو كتاب واحد، وهو الحق من الله، فإن هذا يعني أن التعاليم، والقيم، والمبادىء العامة، التي أرسلت إلى الإنسانية عبر تاريخها الطويل **واحدة بالضرورة.** وبتعبير آخر، إن المفاهيم الأساسية، والقيم، والمبادىء العامة، التي طلب تعالى من الإنسانية تمثلها عبر تاريخها الطويل، واحدة لا غير. **وما الاختلاف الظاهر فيما بين الأمم في العصر الحالي، وفي كل العصور، سوى**

---

* تجد شرحا أكثر تفصيلا للآيتين الكريمتين في الفصل الثالث، بحث الإيمان بالغيب وضده الكفر.

**اختلاف في ظاهر الشرائع التي تعتنقها تلك الأمم، وليس في أصل الدين، ودستوره.**

وموضوع الكتاب الحق هو دين الله الواحد، القيم على الدين كله، أي الإيمان بالغيب مع الصراط المستقيم، الذي اكتمل نزوله مع بعثة إبراهيم عليه السلام، حيث دعا الله الأنبياء والرسل والناس جميعا من بعده إلى الالتزام بملته – **ملة إبراهيم** – وسفّه كل من يخرج عنها. ونلفت الانتباه إلى أن هذا لا يعني اكتمال الدين بكل تفاصيله، أي لا يعني اكتمال الشرعة من الدين.

### ١- الإسلام دين الله الواحد:

اشتقت كلمة (الإسلام) من الفعل (سَلَمَ)، و " معظم بابه من **الصحة والعافية..** فالسلامة: أن **يسلم الإنسان من العاهة والأذى.** قال أهل العلم: **الله** جل ثناؤه هو **السلام**، لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء.. ومن الباب الإسلام، وهو الانقياد، لأنه يسلم من الإباء والامتناع. " [٣] و " السلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة. " [٤] *.

**ودين الله الواحد هو دين الإسلام**، بدأ بالوحي إلى الإنسانية مع بعثة نوح عليه السلام، حيث يقول تعالى على لسانه:

**﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾** يونس ٧٢.

---

* لذلك يشبه تعالى الكفر بالمرض في قوله ﴿وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون O وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ التوبة ١٢٤-١٢٥.

واستمر دين الإسلام مع الأنبياء والرسل من بعده، ومن بينهم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام. يقول تعالى:

**﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾** الشورى ١٣ * .

ثم اكتمل دين الإسلام بكل تفاصيله مع محمد ﷺ، حيث يقول تعالى من خلال الآية الثالثة من سورة المائدة **﴿..اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا..﴾** ** .

**أهل الكتاب:**

على ضوء ماتقدم، نجد أن مفهوم **أهل الكتاب** أوسع من مجرد اشتماله على اليهود والنصارى، لأنه يشمل كل الأمم التي أنزل إليها كتاب الله الواحد الحق.

يقول تعالى:

**﴿ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾** الحديد ٢٦.

**﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ○ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل**

---

* إن قوله تعالى ﴿.. ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى..﴾ إشارة إلى الوصايا العشر المعروفة لدى اليهود والنصارى. يأتي تفصيل ذلك في الفقرات القادمة.

** يأتي ذكر الآية كاملة في الصفحة ٥٦.

**ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ○ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ○ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ○ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ○ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون ○ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ○ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾** الأنعام ٨٣-٩٠.

إن الأنبياء والرسل المذكورين جميعا هم الذين أوتوا الكتاب الواحد الحق، موضوع نبوتهم أجمعين، بالإضافة إلى من اجتبى تعالى من آبائهم، وذرياتهم، وإخوانهم من الأنبياء والرسل، من لم يقص علينا تعالى نبأهم في الذكر الحكيم. وقد أنزل الصراط المستقيم إليهم جميعا فاهتدوا بهديه، كما أمر تعالى نبيه ورسوله محمداً ﷺ الاقتداء بهديهم. و(الحكم) هو موضوع رسالاتهم * . أما (النبوة) فهي دلائل النبوة وإشاراتها ككلام الله لموسى، وشفاء عيسى للأكمه والأبرص، وإسراء محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، عليهم السلام أجمعين.

وبما أن الدين الإسلامي بدأ مع نوح، واستمر مع الأنبياء والرسل جميعا، إلى أن اكتمل بكل تفاصيله مع محمد ﷺ، خاتمهم، فإن التسمية التي استخدمها الذكر الحكيم للدلالة على اليهود والنصارى هي **تسمية ملّة**، أطلقوها هم على أنفسهم، **وليست تسمية دين.** أي أن الذكر الحكيم استعمل تلك التسمية تمييزا لهم على أساس ما عرفوا به من اسم من قبل بعثة محمد ﷺ، لا على أساس الدين الواحد، الذي يدينون به، كما يدين به كل المؤمنين بالغيب في كل زمان، وفي كل مكان.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

لقد سمي النصارى باسمهم لأنهم نصروا عيسى عليه السلام ضد أعدائه، فنصروا الله بنصره:

**﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾** الصف ١٤.

أما دين النصارى **فهو الإسلام**، يقول تعالى:

**﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** المائدة ١١١.

وقد سمي اليهود باسمهم لأنهم هادوا إلى الله، أي تابوا إليه عن عبادة العجل. يقول **معجم مقاييس اللغة:** " هود.. أصل يدل على إرواد وسكون.. والهوادة: حال ترجى معها السلامة بين القوم.. فأما اليهود فمن هاد يهود، إذا تاب هودا، **وسموا به لأنهم تابوا عن عبادة العجل**. وفي القرآن **﴿..إنا هدنا إليك..﴾** وفي التوبة هوادة حال وسلامة " * .

أما دين اليهود **فهو الإسلام**، يقول تعالى:

**﴿وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾** يونس ٨٤.

ولذلك فعندما يقول تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** آل عمران ٨٥، إنما يعني الإسلام على ملة إبراهيم، وأساسه التوحيد، أي إسلام من هم على شرعة التوراة، أو على

---

* وعليه فليس بالصحيح القول إن اليهود سموا باسمهم نسبة إلى (يهوه)، الذي اتخذوه إلها لهم.

شرعة الإنجيل، أو على شرعة القرآن الكريم، على ملة إبراهيم عليه السلام، أو على أيّ من شرائع الرسل التي لم يقصّ علينا تعالى نبأها في الذكر الحكيم.

ولذلك يؤكد تعالى من خلال **سورة الكافرون**، أن للكافرين وحدهم (الذين ينكرون وجود الله ويوم الحساب) دينا يختلف عن دين المسلمين **﴿لكم دينكم ولي دين﴾** الكافرون ٦، أما كل من يؤمن بالله الواحد وباليوم الآخر، ومن بينهم المؤمنون من اليهود، والنصارى، والصابئة، فهو على دين الإسلام.

يقول تعالى:

**﴿إن الدين عند الله الإسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ○ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾** آل عمران ١٩-٢٠.

إن الذين أوتوا الكتاب الحق هم **الأمم التي بعث إليها الرسل** المذكورون في سورة الأنعام، ومن بينهم اليهود، والنصارى. والدين الذي بعث إليهم جميعا هو دين الإسلام. لذلك فإن الله يطلب من نبيه دعوتهم إلى أن يسلموا وجههم لله، فإن فعلوا فقد اهتدوا، وإلا فليس له عليهم سوى البلاغ. وينطبق هذا أيضا على الأميين الذين لا كتاب لهم، والأميون تعني عكس الذين أوتوا الكتاب *.

ولهذا يقول تعالى أيضا **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس**

---

* يأتي شرح الآية بتفصيل أكثر في الفصل الثالث، بحث الإيمان بالغيب وضده الكفر.

**لايعلمون﴾** الروم ٣٠، أي أن الدين القيّم هو دين الفطرة، الذي يدين به أكثر خلق الله من حيث لا يعلمون.

وبهذا نؤكد على مايلي:

- إن عدم علم متبعي شرعتي التوراة والإنجيل - **الموحدين لله** - أنهم على دين الإسلام لا يعني خروجهم منه، وإنما يعني **أنهم على دين الإسلام من حيث لا يعلمون.**

- عندما يذكر الذكر الحكيم المسلم والمسلمين، أو المؤمن والمؤمنين، بشكل مطلق، أي دون قرينة تخصصهم بفريق بعينه، فإن **الخطاب يكون موجها إلى كل من أسلم وجهه لله وهو محسن، أي كل من آمن بالله واليوم الآخر قولا وعملا،** سواء أكان على شرعة القرآن الكريم، أم على شرعة التوراة، أم على شرعة الإنجيل، أم كان من الأميين، أو الصابئة.

- إن التعبير الشائع (تعدد الأديان)، المقصود به اختلاف الأديان فيما بين اليهودية، والنصرانية، والإسلام، تعبير خاطىء تماما. أما التعبير الصحيح فهو **(تعدد الشرائع)**، لأنه لا يوجد تعدد في الأديان أصلا، إلا مقارنة مع الكافرين.

إن التأكيد على تلك النتائج لفي غاية الأهمية، لأنها غائبة عن فكر الكثير من الناس وحتى عن فكر الكثير من الفقهاء والدعاة، حيث أدى هذا الغياب إلى نتائج خطيرة في مجال الحكم على أتباع الشرائع السماوية الأخرى، والأميين، والصابئة - **الموحدين لله** - من حيث الإيمان والكفر، بل وفي مجال الحكم حتى على المذاهب المختلفة ضمن الشرعة الواحدة *.

---

* علينا أن نؤكد هنا أن معركة العرب مع اليهود تتركز حاليا حول الأراضي العربية المحتلة، وأنها ليست معركة حول العقيدة والدين، على الرغم من محاولات اسرائيل المكشوفة إخفاء إيديولوجياتها الاستعمارية، ومطامعها التوسعية خلف اعتبارات دينية. لقد اغتصبت اسرائيل - وهي حركة سياسية

## ٢- الدين القيم ملة إبراهيم عليه السلام:

وإذا كان دين الإسلام بدأ مع نوح عليه السلام، واكتمل بكل تفاصيله مع محمد ﷺ، فلماذا يؤكد تعالى أن ما أمر به محمدا ﷺ – وموسى وعيسى من قبله – هو اتباع ملة إبراهيم بالذات، وليس اتباع ملة نوح مثلا، وقد بدأ الإسلام معه؟.. هذا من جهة ومن جهة أخرى، لماذا أمر تعالى الناس كافة في كل زمان ومكان باتباع ملة إبراهيم، ولم يطلب منهم اتباع ملة محمد ﷺ، باعتباره خاتم النبيين والرسل ؟.. ولماذا ركز على حقيقة أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أطلق على المسلمين اسمهم، وأنه أمة وحده ، وأبو المسلمين جميعاً، وإمامهم؟..

للإجابة على تلك الأسئلة نبدأ بقوله تعالى:

**﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ○ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ○ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ○ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** النحل ١٢٠-١٢٣.

**﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ○ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ○ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ○ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك**

---

صهيونية عالمية وكيان عسكري عدواني بلا حدود – أرض فلسطين العربية وأراض عربية أخرى، وانتهكت حرماتها، وظلمت أهلها، وعذبتهم، وقتلتهم، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق. ولهذا، فقد حق على العرب المسلمين قتال الظالمين المعتدين من يهود وغيرهم، بهدف استعادة الحقوق والأراضي المغتصبة.

أنت العزيز الحكيم ○ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ○ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ البقرة ١٢٦ - ١٣١.

نلاحظ أن قوله تعالى ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه..﴾ هو قول عام غير مخصوص، أي أنه موجه للإنسانية عامة في كل زمان ومكان.

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ قولوا آمنا بالله ومأأنزل إلينا ومأأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ومأأوتي موسى وعيسى ومأأوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ البقرة ١٣٥ - ١٣٦.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلو'ة وآتوا الزكو'ة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ الحج ٧٨.

﴿ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين ○ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ آل عمران ٦٧-٦٨. نلاحظ أن محمدا ﷺ ذكر في هذه الآية في مقام النبوة، وفي هذا إشارة إلى أن اتباع ملة إبراهيم هو من مقام النبوة، وليس من مقام الرسالة.

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ○ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ آل عمران ٩٥-٩٧.

**﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ○ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾** النساء ١٢٤ – ١٢٥.

**﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾** الأنعام ١٦١.

تجيب الآيات السابقة على الأسئلة المطروحة، فنقول: صحيح أن دين الإسلام بدأ ببعثة نوح عليه السلام، إلا أن **الدين الإسلامي القيم على الدين كله، أي كتابه الحق ودستوره**، لم تكتمل قواعده إلا مع بعثة إبراهيم عليه السلام. وهذا يعني أن قواعد الدين القيم على الدين كله، كانت قد اكتملت بالنزول إلى الإنسانية من قبل بعثة محمد ﷺ.

وإذا كان الدين القيم قد اكتملت قواعده مع بعثة إبراهيم عليه السلام من قبل، فما هي إذن قواعد هذا الدين، ملة إبراهيم، الذي اعتبره تعالى قيّما على الدين كله؟..

الدين القيّم: القيّم من الفعل (قوَم) وله " أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس.. والآخر على انتصاب أو عزم.. ومن الباب: هذا قوام **الدين الحق**، أي به يقوم "[٥]. " والقيّم: **المستقيم لا زيغ فيه**، السيد السائس للأمر.. والقائم: **المنتصب على الشيء، الثابت عليه**.. "[٦].

فالدين القيم على الدين كله هو الجزء **الثابت** منه، **الحق، المحكم، المتطابق، المنتصب على الدين كله، المستقيم لا زيغ فيه**، وهي صفات **الكتاب الحق**، الذي أنزله تعالى إلى النبيين جميعا وإلى خاتمهم محمد ﷺ، فأصبح موضوع نبوتهم، وميثاقهم الجامع فيما بينهم.

### ٣- إبراهيم والصراط المستقيم:

لقد اكتمل نزول كتاب الله، الواحد، الحق مع بعثة ابراهيم عليه السلام، وأطلق عليه تعالى اسم **الدين القيم على الدين كله ملة إبراهيم**، لأنه مع بعثة إبراهيم اكتمل الوحي بقواعد الصراط المستقيم، بأوامره، ونواهيه، واعتبر الالتزام بها الدليل المادي على الإيمان بالغيب. وعليه فإن **موضوع الكتاب الواحد الحق هو الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب، باعتبار الأخير أساساً للعقيدة.**

**﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾** إبراهيم ١. موضوع الكتاب الحق الذي أنزل إلى محمد ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، والنور هو الالتزام بقواعد الصراط المستقيم.

**﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾** سبأ ٦.

لقد بدأت قواعد الصراط المستقيم بالنزول إلى الأنبياء بالتدرج ابتداء بنوح عليه السلام، حيث أرسل بقاعدتين وهما التوحيد، وبرّ الوالدين *، كما أرسل لوط بقاعدتين، وهما التوحيد واجتناب الفاحشة **، ولكن الصراط المستقيم لم تكتمل قواعده العشر إلا مع بعثة إبراهيم عليه السلام. ولذلك فهو أول نبي رسول اقترن اسمه بالصراط المستقيم في الذكر الحكيم.

يقول تعالى:

---

* "ظهر مفهوم بر الوالدين أول مرة في تاريخ الإنسانية كمفهوم أخلاقي تم فيه تمييز الإنسان عن البهائم مع نوح عليه السلام **﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾** نوح ٢٨." محمد شحرور، دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ١٩٩٤م، ص: ٤٨.

** أنظر الآيات ١٦٠ إلى ١٦٦ من سورة الشعراء والآية ٨٠ من سورة الأعراف.

**﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين○ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** الأنعام ١٦١ - ١٦٣.

يطلب الله من محمد ﷺ **﴿..أمرت وأنا أول المسلمين﴾** أن يكون أول من ينقاد إلى التسليم بتلك الحقيقة الهامة * ، وهي أنه بعث على صراط مستقيم كان قد أرسل من قبل إلى إبراهيم عليه السلام، فأصبح ملته والدين القيم على الدين كله. أي أن **محمداً ﷺ لم يأت بصراط مستقيم آخر مختلف** عن الذي أتى به إبراهيم عليه السلام، وسار عليه من بعده كل من موسى وعيسى والأنبياء والرسل جميعا، بل هو **صراط مستقيم واحد** اكتملت قواعده مع بعثة إبراهيم، ثم أمر تعالى محمداً ﷺ باتباعه، أي باتباع ملة إبراهيم، وسفّه كل من يرغب عنها.

**﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ○ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ○ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ○ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾** النحل ١٢٠ - ١٢٣.

تؤكد الآيات الكريمة أن اتباع ملة إبراهيم هي في اتباع الصراط المستقيم المنزل إليه، بالإضافة إلى الإيمان بالغيب باعتباره منطلقاً أساسياً للعقيدة. وهكذا كان اكتمال كتاب الله الواحد، الحق، القيم على الدين كله مع بعثة إبراهيم عليه السلام، الذي وصفه تعالى - دون الأنبياء والرسل

---

* يقول الطبري في تفسير الآية " وبذلك أمرت، يقول وبذلك أمرني ربي. وأنا أول المسلمين، يقول وأنا أول من أقر وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك " .

جميعـــا - بـالأب، وبالأمـة، وبالإمـام *، أي **بـالأصل، والمرجـع، الدينـي، والثقافي للمسلمين جميعا.**

نلاحظ أن الصـراط المســتقيم ورد بحالــة النكـرة (غـير مقـترن بـأل التعريف) مع إبراهيم عليه السلام، لأنـه لـم يكـن قد دخـل ضمـن المعـارف الإنسانية وقتذاك، باعتبـاره وحـدة متكاملـة. أمـا مـع موسـى وأخيـه هـارون، اللذين عاشا مرحلة تاريخية متأخرة عن إبراهيم، فقد ذكر معهمـا معرفـا، أي مقترنا بأل التعريف، حيث أصبح معروفا من قبل الناس في عصرهما.

**﴿ولقد مننا على موسى وهارون ○ ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ○ ونصرنـاهم فكـانوا هـم الغـالبين ○ وآتيناهمـا الكتـاب المسـتبين ○ وهديناهما الصراط المستقيم﴾** الصافات ١١٤-١١٨.

كما ذكر الصراط المستقيم مع محمد ﷺ معرفا أيضا بـأل التعريـف فـي قوله تعالى:

**﴿اهدنـا الصراط المستقيم ○ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولا الضالين﴾** الفاتحة ٦-٧.

وفي قوله تعالى أيضا:

**﴿قل إنني هدانـي ربـي إلـى صراط مستقيم دينـا قيمـا ملـة إبراهيم حنيفـا وماكان من المشركين﴾** الأنعام ١٦١. " (دينا) منصوبة علـى البدل من محل **﴿..إلى صراط مستقيم..﴾** " (٧)، أي أن الصراط المستقيم عرّف بكونه الدين القيم ملة إبراهيم.

---

* يأتي شرح الفعل (أمّ)، الذي اشتقت منه كلمة (أمّة) و (إمام) في بحث أمّ الكتاب من هـذا الفصـل، وفـي بحث نشوء الأمم في الفصل الثاني.

## ٤- قواعد الصراط المستقيم:

أما قواعد الصراط المستقيم، فيعرّفها الذكر الحكيم في الآيات الكريمة التالية:

**﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾** الأنعام ١٥١.

**﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾** الأنعام ١٥٢.

**﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** الأنعام ١٥٣.

يحدد اسم الإشارة (هذا)، الذي يدل على القرب، في قوله تعالى **﴿..وأن هذا صراطي مستقيما..﴾**، قواعد الصراط المستقيم التي ذكرت في الآيتين السابقتين. إن استعمال اسم الإشارة (هذا) في الآية الكريمة، يدل على أن الذكر الحكيم لا يعني بالصراط المستقيم مطلق الشريعة، وإنما يعني ماذكر في الآيتين السابقتين بالتحديد. ثم كيف يكون الصراط المستقيم مطلق الشريعة التي أنزلت على محمد ﷺ، وهو ماأنزل من قبل على إبراهيم، ونعلم أن الله لم ينزل مطلق شريعة محمد ﷺ من قبل على إبراهيم عليه السلام ؟..

يقول الطبري في تفسير الآية الكريمة " يقول تعالى ذكره وهذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في **هاتين الآيتين** من قوله **﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم..﴾** وأمركم بالوفاء به هو **صراطه**، يعني طريقه **ودينه** الذي ارتضاه لعباده " [(٨)].

وتؤكد الآية ١٦١ من السورة نفسها ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين**﴾ أن ما أمر محمد ﷺ باتباعه هو الصراط المستقيم نفسه، الذي أنزل إلى إبراهيم عليه السلام من قبل، فأصبح ملته، ودين الله القيم على الدين كله.

وقد ذُكرت قواعد الصراط المستقيم أيضا في الآيات الكريمة من ٢٢ وحتى ٣٩ من سورة الإسراء، مع تفصيل بعض الحكمة من فرضها. والحكمة هي في مثل قوله تعالى ﴿..**فتقعد مذموما مخذولا**﴾ تعقيباً على تحريم الشرك بالله ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر..**﴾ الآية ٢٢.

وعليه فإن **قواعد الصراط المستقيم** كما وردت في الذكر الحكيم هي:

أولاً : **التوحيد**: وهو **الإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر.**
ثانياً : **الإحسان للوالدين.**
ثالثاً : **اجتناب قتل الولد من إملاق.**
رابعاً : **اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.**
خامساً : **اجتناب قتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق.**
سادساً : **عدم الاقتراب من مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.**
سابعاً : **الوفاء بالكيل والميزان بالقسط.**
ثامناً : **القول العدل ولو كان ذا قربى.**
تاسعاً : **الوفاء بالعهود.**
عاشراً : **على الانسانية الالتزام بقواعد الصراط المستقيم باعتبارها سبيل الله المطلق، الذي لا يخضع لتأثير اختلاف الأزمان والأمكنة، وعدم الحياد عنها إلى أي سبيل آخر من صنع البشر، وقاية للمجتمعات الإنسانية من الفرقة، والتناحر، والفساد.**

وبما أن الصراط المستقيم هو موضوع الكتاب الحق، وبما أنه أنزل مكتملا إلى إبراهيم عليه السلام أولاً، ثم أعيد النزول به إلى موسى عليه السلام من بعده، فقد ذكر موسى في الآية التي تلي آيات التعريف بالصراط

المستقيم مباشرة، وذلك بعد حرف العطف (ثم)، الذي يفيد التراخي الزمني. أي أن الصراط المستقيم نزل على موسى في الكتاب الحق، بعد فترة تراخ زمني من نزوله على إبراهيم عليهما السلام.

يقول تعالى:

**﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾** الأنعام ١٥٤.

يتضمن الكتاب الذي أوتيه موسى **﴿ثم آتينا موسى الكتاب..﴾** تمام ما أوتي إبراهيم من قبله وهو الصراط المستقيم **﴿..تماما على الذي أحسن..﴾**، كما أوتي موسى تفصيلا له **﴿..وتفصيلا لكل شيء..﴾**، وهو مجمل الأحكام التي تفصّله، وتبيّنه، أي رسالته موضوع التوراة. ويقول تعالى أيضا **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين﴾** الأعراف ١٤٥. *

ثم ذكر الصراط المستقيم في الكتاب الذي أنزل إلى محمد ﷺ، على أنه الصراط الذي لم يضلّ، ولم يغضب الله على كل من اتبعه من الأمم السابقة.

يقول تعالى:

**﴿اهدنا الصراط المستقيم ○ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** الفاتحة ٦-٧.

---

* لم يرد في الذكر الحكيم أن إبراهيم عليه السلام أرسل بشرعة محددة إلى جانب الصراط المستقيم، ولكن بالحكم الذي كان موضوع رسالته، أي الحكم بكل ما من شأنه منع ظلم الإنسان لنفسه ولأخيه الإنسان بشكل عام.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن قواعد الصراط المستقيم العشر هي مايطلق عليها اليهود والنصارى اسم الوصايا العشر، ويؤكد تعالى على صحة دعواهم من خلال إثباته لذلك فى ختام آيات التعريف بالصراط المستقيم: ﴿..**ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾ و ﴿..**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾ و ﴿..**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾ *.

لقد لفت الدكتور عبد الفتاح عاشور في كتابه **الوصايا العشر** ** الانتباه إلى تحديد الذكر الحكيم للوصايا العشر في الآيات الثلاث المذكورة من سورة الأنعام، كما ذكر ذلك الدكتور محمد شحرور في كتابه **الكتاب والقرآن** ***. وقد أكد على صحة ذلك أيضا الشيخ محمد الغزالى بقوله: " وأذكر أن النبي لقيه أكثم بن صيفي، وهو رجل من حكماء الجاهليين، وكان مشركا، فقال للنبي: إلام تدعو الناس يا أخا العرب؟ فقرأ عليه النبي ﷺ ﴿**قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق..**﴾ الأنعام ١٥١، إلى آخر **الوصايا العشر الموجودة في هذه الآيات الثلاث**.. فقال له أكثم: والله لو لم يكن ما تقوله دينا لكان في دنيا الناس حسنا " (٩).

---

* تعكس الوصية الأولى من الوصايا العشر **" أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيري "** مبدأ **التوحيد** بكل أبعاده، كما هو واضح من الصياغة اللغوية للوصية. أما مفهوم (بنوة الله للسيد المسيح) فظاهره لا يعني ذلك. إن الصياغة اللغوية للمفهوم مغرقة في المادية، إلى الدرجة التي لم تعد تعبر معها عن المعنى المقصود، حيث ينظر المسيحيون – كما ينظر المسلمون من أمة محمد ﷺ – إلى **السيدة مريم ابنة عمران على أنها السيدة العذراء** التي نفخ تعالى فيها من روحه، فأنجبت السيد المسيح. لقد تمت صياغة المفهوم في العهود القديمة، قبل أن يكون الإنسان قادرا على **التجريد العقلي**، ولهذا فإني أدعو علماء شرعة السيد المسيح في زماننا المعاصر إلى إعادة صياغة المفهوم، كي يتماشى مع كون المسيح عليه السلام بعض من روح الله في جسد بشر – **وليس ابنه بالمفهوم الإنساني للكلمة** – هذا من جهة، وكي يتماشى مع مضمون الوصية الأولى من الوصايا العشر (التوحيد) من جهة أخرى.

** مطبعة الحضارة العربية، الفجالة، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

*** دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، دمشق، سورية، ١٩٩٠م، ص: ٤٩٢.

٥- **نستنتج مما سبق مايلي:**

أ- **الإسلام** هو أن يسلم الإنسان وجهه لله وهو محسن، أي أن يشهد **بالإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر** (يسلم وجهه لله)، وبالالتزام **بالكتاب الحق، الدين القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام**، أي بقواعد **الصراط المستقيم، باعتبارها أساسا ومنطلقا** (وهو محسن)، وذلك بهدف تحصيل الصحة والسلامة، اللتين تقربانه من الله السلام المطلق، وتبعدانه عن المرض العقيدي، وهو الكفر.

ب- الصراط المستقيم هو **دستور الكتاب**. ولذلك فهو محور رسالة محمد ﷺ، ومنطلقها الأساسي.

يقول تعالى:

**﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾** الأنعام ٣٩.

**﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** المائدة ١٦.

**﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾** آل عمران ١٠١.

**﴿ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ○ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما﴾** النساء ١٧٤-١٧٥.

**﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾** الحج ٥٤.

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ الملك ٢٢.

﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ آل عمران ٥١.

﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ○ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ يس ٦٠-٦١.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين ○ اهدنا الصراط المستقيم﴾ الفاتحة ٥-٦.

﴿إنك لمن المرسلين ○ على صراط مستقيم ○ تنزيل العزيز الرحيم﴾ يس ٣-٥.

﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ○ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما﴾ الفتح ١-٢.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ○ صراط الله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ الشورى ٥٢-٥٣.

﴿وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ○ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ الأنعام ١٢٦-١٢٧.

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ يونس٢٥.

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ○ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ المؤمنون ٧٣-٧٤.

ت- الصراط المستقيم (موضوع الكتاب الحق) **هو المنظومة الفكرية الأخلاقية المطلقة، التي ترسخ أسس المعرفة اليقينية للإنسان في كل زمان وفي كل مكان**، وتوجه سلوكه نحو تحقيق الغايات الإنسانية الكبرى، مما يوفر له الطمأنينة والتوافق الداخلي مع نفسه، واللحمة مع مجتمعه. ويلعب هذان العاملان الدور الأهم في تأسيس المجتمعات الإنسانية المتحضرة وتطورها وتقدمها، كما أنهما يتوافقان مع فطرة الإنسان، أي مع طبيعة تكوينه النفسي والفكري في كل زمان ومكان.

ويأتي على رأس تلك المنظومة، الحرية الفكرية العقائدية للإنسان تجاه كل ماينتمي إلى النظام المادي للكون. حيث يعني الإيمان بالله، وتجنب الشرك به تحرير روح الإنسان من تبعيتها العقائدية الفكرية المحتملة لسلطة ما، أو لشخص ما، أو حتى لفكر ما. إن التطلع الدائم نحو الخير المطلق يضمن حرية روح الإنسان، ويوجهها نحو تحقيق الأهداف الخيرة للإنسانية. ولا يعني هذا عبودية من نوع آخر كما يعتقد فريق من الناس، لأن العبودية تعني التبعية الفكرية أو الجسدية أو كلاهما لما ينتمي إلى النظام المادي للكون، بينما يعني الإيمان بالله التطلع الدائم نحو الخير المطلق، وهو من طبيعة الذات الإلهية *.

كما يعني الالتزام بقواعد الصراط المستقيم الحفاظ على نسيج الأسرة الداخلي، وعلى وحدتها وقوتها، باعتبارها أساسا للمجتمعات الإنسانية، ولبنتها الأولى.. وأن يتوقف الإنسان عن قتل أخيه الإنسان بغير حق في كل زمان ومكان..

وأن تتوقف كل أنواع الفواحش، الظاهرة منها والباطنة..

وأن تنتهج الإنسانية منهج الصدق والعدل في المعاملات الاقتصادية، والسياسية، والتجارية، وغيرها..

وأن يفي الناس جميعا – والدول أيضا – بكل أنواع العهود والعقود السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية..

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث، بحث العمل الصالح وعبادة الله.

أي أن يتوقف ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، بكل ما ينضوي تحت ذلك من تفرّعات، وعلى جميع المستويات، وأن يتحقق العدل الإنساني، بكل ما ينضوي تحت ذلك من تفرّعات، وعلى جميع المستويات.

إن ترسيخ أسس المعرفة اليقينية للإنسانية – من خلال ترسيخ قواعد الصراط المستقيم – هو القاعدة الأساسية لدين الله الواحد، الحق، القيم على الدين كله، الذي أرسل للناس جميعا بهدف تكريس مفهومي التوحيد والعمل الصالح *. ولذلك فإن **على المسلم الالتزام به في كل زمان وفي كل مكان، بمعزل عن خصوصيات المجال التاريخي الذي يعيشه**. أي إن على المسلم الإحسان لوالديه، والوفاء بالكيل والميزان، وبالعهود، وبالمواثيق، والقول العدل، واجتناب القتل، والفاحشة في كل تجربة إنسانية يمر بها، ودون اعتبار للظروف والملابسات المحيطة.

ث- الصراط المستقيم هو **قاعدة العمل الصالح** ومرجعه الأساسي، أي أنه لا يمكن أن يكون عمل المسلم صالحا مهما تصوّر أنه بلغ درجة من الكمال والخير، إذا كان فيه عقوق للوالدين مثلا، أو قتل نفس بغير حق، أو أكل مال يتيم، أو نقض لعهد، أو قول زور، أي إذا كانت فيه مخالفة لأي قاعدة من قواعد الصراط المستقيم **.

ج- وبما أن دين الإسلام هو دين الله الواحد، وبما أن الذكر الحكيم أكد على لساني موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وأتباعهما من المسلمين، لذلك فإن شرعة موسى شرعة إسلامية، وشرعة عيسى شرعة إسلامية كذلك.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

** يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث، بحث العمل الصالح.

وبتعبير آخر: إن **الإسلام دين واحد ذو ثلاث شرائع سماوية، وهي: شرعة التوراة، وشرعة الإنجيل، وشرعة القرآن الكريم**، بالإضافة إلى شرائع الرسل المسلمين التي لم يقص علينا تعالى نبأها في الذكر الحكيم *.

ح- بما أنه تعالى طلب من نبيه ورسوله محمد ﷺ التصريح بالهداية إلى قواعد الصراط المستقيم، التي أوحيت إلى إبراهيم عليه السلام من قبل، وبما أن قواعد الصراط المستقيم التي أوحيت إلى إبراهيم – المذكورة في سورة الأنعام من الآية ١٥١ إلى الآية ١٥٣ – لا تتضمن أية أحكام تشريعية، لذلك فإن **الصراط المستقيم لا يشمل الأحكام التشريعية** الموجودة في الذكر الحكيم.

خ- عرّفت آيات سورة الأنعام قواعد الصراط المستقيم، ولم تذكر الفرائض الأربع من بين قواعده. وعليه فإن **الفرائض الأربع ليست من الصراط المستقيم**، وإنما هي تدريب إلهي مفروض على الإنسان من أجل الوصول به إلى ممارسة العمل الصالح، والابتعاد عن العمل الفاسد، انطلاقا من الالتزام بأوامر الصراط المستقيم، باعتبارها أصلاً ومرجعاً **.

د- أما الإضافات التي أضافتها الشرائع إلى الدين الإسلامي من خلال شرعتي التوراة، والإنجيل، وأخيرا من خلال شرعة القرآن الكريم، فهي الشروحات والأحكام التي تفصّل الصراط المستقيم، وتبيّنه. وهذا واضح من خلال الآية التي ورد في سياقها قوله تعالى ﴿..**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا..**﴾، والآية هي:

---

* يقول الدكتور يوسف القرضاوي: " لا مانع في الإسلام من أن يقف أتباع الديانات السماوية الذين يتبعون ابراهيم الخليل عليه السلام في خندق واحد.. قد يختلفون في بعض الأمور، لكن بينهم من الأصول المشتركة ما يجعلهم ضد الذين ينادون بوحدانية الدولار، ووحدة السوق، ويعتبرون أنه لا إله إلا المادة " **جريدة الوطن القطرية**، العدد (٤٧٢)، الدوحة، قطر، ١٨/١٢/١٩٩٦م.

** يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

**﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ومآأهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ومآأكل السبع إلا ماذكيتم ومآذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾** المائدة ٣.

لو فكرنا مليا لماذا وردت فكرة اكتمال دين الإسلام فى سياق هذه الآية بالذات، أي في سياق تعداد المحرّمات من الأطعمة، وحكم من يُضطر إلى تناولها، لعرفنا أن اكتمال دين الإسلام هو في اكتمال تفاصيل الأحكام التي تنظم الحياة المعاشة للناس، ومصالحهم الدنيوية، الفردية والجماعية المستجدة، وليس في اكتمال دستور الدين الحق، القيم على الدين كله، وجوهره، وأمه. لقد وردت فكرة اكتمال دين الإسلام في سياق هذه الآية الكريمة، حتى قبل النطق بالحكم على من يُضطر إلى تناول المحرّمات من الأطعمة، ولابد أن يكون لله **حكمة** في هذا، ونراها في التأكيد على أن **اكتمال الدين إنما يتعلق باكتمال الشرعة من الدين، وليس دستور الدين، موضوع الكتاب الحق.**

ذ- **الصراط المستقيم هو القبلة الفكرية المعنوية الحقيقية** للناس جميعا، التي أرسى قواعدها إبراهيم عليه السلام من قبل، كما أرسى القواعد من بيت الله العتيق.

يقول تعالى:

**﴿سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** البقرة ١٤٢.

فسواء أتوجه الناس على اختلاف شرائعهم ومذاهبهم للمشرق، أم للمغرب، باعتباره قبلة لهم، يبقى الصراط المستقيم قبلتهم الفكرية والمعنوية، التي يجب أن يتوجهوا إليها جميعا بقلوبهم، وبالتالي عملهم.

وبهذا نعلم أن بيت اللـه العتيـق – بقواعـده – هـو تجسـيد مـادي لقواعـد الصراط المستقيم، وأن الاتجاه إليه أثناء الصلاة، كما الحـج إليـه، هـو تعبـير مجازي عن تعهد المصلي والحاج بالتزام قواعده.

ولهذا السبب أيضـا نذكـر إبراهيـم عليـه السـلام دون غـيره مـن الأنبيـاء والرسل في ختام صلاتنا يوميا بالدعاء:

" اللهم صلّ على **محمد وعلى آل محمد**، كما صليت على **إبراهيم وعلـى آل إبراهيم**، وبارك على **محمد وعلى آل محمد**، كما باركت على **إبراهيم وعلـى آل إبراهيم** في العالمين إنك حميد مجيد ".

## أمّ الكتاب:

أمّ : " هي أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب، وهي **الأصل**، **والمرجع**، **والجماعة**، **والدين**، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة وهي **القامة**، **والحين**، **والقصد**.. قال الخليل: كل شيء يضم إليه ماسواه مما يليه، فإن العرب تسمي ذلك الشيء أمّا، ومن ذلك أمّ الرأس **وهو الدماغ**.. وكل مدينة هي **أمّ ماحولها من القرى**.. والأمّ: **الرئيس** " [١٠]. وتجمع **أمّ الكتاب** جلّ المعاني المذكورة، فهي **الدين**، **والأصل**، **والمرجع**، **والقصد**، **والرئيس**، وهي مركز الكتاب كله، حيث يلحق بها كل ما حولها من مبادىء وأفكار، كما هو حال القرى الصغيرة بالنسبة لأمّ القرى، وباقي أجزاء الرأس بالنسبة لأمّ الرأس (الدماغ). وبتعبير معاصر، إن أمّ الكتاب هي **دستور الكتاب**، الذي تتبع منه وتلحق به كل القوانين التشريعية والتوجيهات العامة في الذكر الحكيم.

### ١- أمّ الكتاب/الكتاب الحق:

بما أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام - دون الأنبياء والرسل جميعا- بالأب، وبالأمة، وبالإمام، أي **بالأصل**، **والمرجع** الديني للمسلمين جميعا، وبأنه أول من أنزل إليه الكتاب الأصل، **الحق**، **المحكم** مكتملا (الصراط المستقيم)، فأصبح ملته، **ودينه القيم** على الدين كله..

وبما أن **أم الكتاب هي أصل الكتاب**، **ومرجعه**، والجزء الأهم منه - كما ورد في التفسير اللغوي - وهي نفسها **الآيات المحكمات**، التي عرّفها تعالى بقوله ﴿**..منه آيات محكمات هن أم الكتاب..**﴾ *..

---

* نلاحظ الربط المجازي بين إبراهيم عليه السلام كونه أبا للمسلمين، والكتاب الحق الذي نزل عليه كونه أما لكتابهم.

لذلك فإن **الكتاب الأصل، الحق، المحكم**، هو نفسه **أم الكتاب** التي أوحيت إلى محمد ﷺ في الذكر الحكيم.

لقد سمي الكتاب باسمه في النبوات السابقة على نبوة محمد ﷺ لأنه أوحي إليهم جميعا **منفصلاً** عن رسالاتهم، التى سميت بأسماء أخرى كالتوراة والإنجيل. أما بالنسبة إلى محمد ﷺ فقد أوحي إليه **متداخلاً** مع رسالته في الذكر الحكيم، لذلك كان لا بد من تمييزه عن الرسالة بالاسم داخل الكتاب، فسمي **بأم الكتاب**، أي الجزء الأهم منه، الأصل، والمرجع، والدستور.

وللتأكيد على أن أم الكتاب هي الكتاب الحق نفسه، يخبرنا تعالى أنها هي **الآيات المحكمات** من الكتاب، ونعلم أن **المحكم هو الحق**، أي أنها هي الكتاب الحق نفسه، **محكم الصياغة، المتطابق، المتوافق** مع مانزل إلى النبيين والرسل من قبل.

ولما كان الكتاب الحق، الدين القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام هو أم الكتاب التي نزلت إلى محمد ﷺ، لذلك فإن موضوع الكتاب الحق هو **موضوع أم الكتاب** بالضرورة، أي **الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب، باعتبار الأخير أساساً للعقيدة.**

وأوجز الفكرة في المقدمتين المنطقيتين والنتيجة التالية:

**المقدمة الأولى:** بما أن **الكتاب الحق** هو **الكتاب الأصل، المحكم**، الذي نزل إلى محمد ﷺ وإلى النبيين والرسل من قبله، وموضوعه الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب..

**المقدمة الثانية:** وبما أن **أم الكتاب** هي **أصل الكتاب، ومرجعه**، وهي نفسها الآيات **المحكمات** التي نزلت إلى محمد ﷺ..

**النتيجة:** لذلك فإن **أم الكتاب هي الكتاب الحق نفسه**، الدين القيم، ملة إبراهيم عليه السلام، وموضوعها الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب.

إن أم الكتاب هي بالتعبير المعاصر **دستور الكتاب**، الذي استمدت الشرائع السماوية جميعا منه أحكامها، لأنها كما قال ابن فارس هي الأصل، والمرجع. ولذلك أمر الله الأنبياء والرسل والناس جميعا من بعد إبراهيم عليه السلام بالالتزام بها، باعتبارها الدين القيم على الدين كله ملة إبراهيم، وسفّه كل من يخرج عنها * . ويكون قد أكد بذلك أن أم الكتاب واحدة متطابقة، لم يصبها التعديل، أو الإنساء، أو المحو، أو الاثبات، أو العفو عبر الرسالات السماوية.

يقول تعالى: ﴿**يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ الرعد ٣٩. أي أن المحو والإثبات يكون **خارج أم الكتاب**، لأن أم الكتاب موجودة عند الله بين يديه، واحدة لا تتغير، حيث أوحى بها كتاباً واحداً، حقاً، متطابقاً إلى النبيين والرسل جميعا ** .

ويؤيد هذا ماورد من المأثور " وقال ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير: ( **هنّ أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب.** وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن) " (١١).

---

* بما أن السفاهة هي الخروج عن ملة إبراهيم، أي عن قواعد الصراط المستقيم، **فالسفهاء** هم الخارجون عن الصراط المستقيم بأوامره ونواهيه، أي الذين يغشون بالكيل والميزان، ويأكلون مال اليتيم، ولا يوفون بالعهود، ولا يقولون العدل..إلخ. وقد وصف الذكر الحكيم المشركين من أمة موسى الذين عبدوا العجل بالسفهاء في الآية ١٥٥ من سورة الأعراف، كما وصف الكافرين بذلك في الآية ١٣ من سورة البقرة، أي أنهم الخارجون عن القاعدة الأولى من قواعد الصراط المستقيم. كما وصف الذكر الحكيم قتل الأولاد بالسفه في الآية ١٤٠ من سورة الأنعام، وهو الخروج عن القاعدة الثالثة من قواعد الصراط المستقيم. لذلك فإن تعريف السفهاء بأنهم النساء والصبيان على وجه العموم، كما يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا**﴾ النساء ٥، يتناقض مع الفكر القرآني، كما أنه اعتداء على كرامة المرأة وإنسانيتها.

** تجد التفاصيل في بحث النسخ.

وعليه فإن **موضوع أم الكتاب هو الإيمان بالله الواحد لا شريك له بكل صفاته وباليوم الآخر (الإيمان بالغيب)، والصراط المستقيم بقواعده العشر.**

٢- أم الكتاب/سورة الفاتحة:

يقول تعالى:

**﴿بسم الله الرحمن الرحيم ○ الحمد لله رب العالمين ○ الرحمن الرحيم ○ مالك يوم الدين ○ إياك نعبد وإياك نستعين ○ اهدنا الصراط المستقيم ○ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** سورة الفاتحة.

موضوع السورة هو **الإيمان بالله الواحد لا شريك له**، بصفاته المذكورة، الذي يستحق بها الحمد والعبادة **﴿بسم الله الرحمن الرحيم ○ الحمد لله رب العالمين ○ الرحمن الرحيم.. إياك نعبد وإياك نستعين﴾**، **والإيمان باليوم الآخر ﴿مالك يوم الدين﴾**، والدعاء بالاهتداء بقواعد **الصراط المستقيم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**، الصراط نفسه الذي أنعم الله بنزوله من قبل على الأمم السابقة، الذي لم يضلّ، ولم يغضب الله على كل من التزم به منهم، بل سينال رحمة من الله الرحمن الرحيم * .

نرى بوضوح الآن أن **سورة الفاتحة هي نفسها أم الكتاب بصورة مختصرة.** وأقول إن سورة الفاتحة هي أمّ الكتاب مختصرة، وليس أمّ

---

* لا يمكن اعتبار الحرف (غير) في قوله تعالى **﴿.. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** للاستثناء، بمعنى أن الذين أنعم الله عليهم بنزول الصراط المستقيم هم قوم غير القوم الذين غضب الله عليهم (وهم اليهود) والذين ضلوا (وهم النصارى)، وذلك حسب ما جاء في تفسير ابن كثير للآية. حيث أن **﴿.. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** هما صفتان للذين أنعم الله عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، أي أن اليهود والنصارى وأهل الكتاب جميعا غير مغضوب عليه من قبله تعالى ولا هم ضالون عن سبيله، وذلك بما أوحى إليهم تعالى في الصراط المستقيم. وهذا ما يؤكد عليه الطبري في تفسيره للآية بقوله: " والقراء مجمعة على قراءة (غير) بجر الراء منها.. وأن يكون **﴿..غير المغضوب عليهم ..﴾** نعتا لـ **﴿..الذين أنعمت عليهم ..﴾** ، وأنهم بما أنعم الله عليهم في دينهم بأنهم غير مغضوب عليهم ولا هم ضالون ".

الكتاب بتفصيلها، لأن الصراط المستقيم ذكر فيها بالاسم فقط دون تفصيل، حيث ورد تفصيله – كما رأينا – في آيات سورة الأنعام الثلاث.

وبهذا ندرك تماما لماذا تقرأ أمة محمد ﷺ سورة الفاتحة في كل صلاة، عملا بما عُرف عن صلاة محمد ﷺ. إنها رسالته إلى الناس جميعاً أن الإيمان بالغيب مع الصراط المستقيم هما أساس الدين الإسلامي، أي أنهما دستور الكتاب.

ولهذا يقول تعالى:

**﴿حم ○ والكتاب المبين ○ إنا جعلناه <u>قرآنا عربيا</u> لعلكم تعقلون ○ وإنه في <u>أم الكتاب</u> لدينا لعلي حكيم﴾** الزخرف١-٤.

الهاء في ﴿**..جعلناه..**﴾ تعود على الكتاب المبين. والكتاب المبين: هو الكتاب الذي يبيّن الكتاب الحق/أم الكتاب، ويفصّله، ويشرحه، أي أن موضوعه هو الشرائع السماوية جميعها. وقد جعل مع موسى عليه السلام توراة، ومع عيسى عليه السلام إنجيلا، أما مع محمد ﷺ فقد جعل قرآنا عربيا * . وبما أن وظيفة الكتاب المبين إبانة أم الكتاب/الكتاب الحق، وتفصيلها، وشرحها، لذلك يقرر تعالى أنه موجود فيها، حتى وكأنها تحتويه احتواء. وعلى الرغم من كون القرآن موجودا في أم الكتاب/الكتاب الحق، إلا أنه موجود فيها على سبيل المجاز لا الحقيقة، وذلك للأسباب التالية:

لما كان تعالى يقرر أن القرآن موجود في أم الكتاب، وهي الحق الموجود بين يدي الله..

ولما كان تعالى يقرر في آيات أخرى أن القرآن ليس الموجود بين يدي الله، وإنما في اللوح المحفوظ **﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا**

---

* يقول الزمخشري في الكشاف في إعراب الآية الكريمة "﴿..قرآنا عربيا..﴾ حال".

بالذي بين يديه..﴾ ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث..﴾ ﴿بل هو قرآن مجيد ○ في لوح محفوظ﴾ البروج ٢١-٢٢..

ولما كان يستحيل وجود الشيء الواحد في مكانين مختلفين في آن معا على سبيل الحقيقة من جهة، كما يستحيل وجود أي تناقض في الذكر الحكيم من جهة أخرى..

فإن الاستنتاج المنطقي هو أن المعنى المراد من الآية الكريمة معنى مجازي، وليس معنى حقيقيا. أي أن القرآن (الموجود في اللوح المحفوظ) موجود في أم الكتاب (الموجودة بين يدي الله) على سبيل المجاز. أما لماذا استُعمل المجاز في الآية الكريمة، فنفهم أنه بهدف التأكيد على تلك الحقيقة الهامة، التي يقوم على أساسها الدين الإسلامي كله، وهي أن **أم الكتاب هي منبع القرآن الكريم** وأساسه، حتى وكأنه يوجد داخلها بكل تفاصيله، وشروحاته، فتحتويه بذلك احتواء. ولذلك يقول تعالى:

**﴿إنه لقرآن كريم ○ في كتاب مكنون﴾** الواقعة ٧٧-٧٨.

(مكنون) هو اسم المفعول من الفعل (كنّ)، و " الكاف والنون أصل واحد يدل على ستر، أو صون. وأكننت الشيء: أخفيته " [١٢]. وهذا يعني أن مضمون القرآن مخفي، ومحفوظ بين طيات الكتاب الحق/أم الكتاب، حيث يستقى منه معانيه، ومضامينه، ومبادئه الفكرية الكلية.

ويتفق مع هذا ماروي على لسان الرسول الكريم في **صحيح البخاري**، أنه قال: " الفاتحة هي سبع من المثاني وهي نفسها القرآن العظيم " [١٣].

٣- **لسان أم الكتاب:**

وعلى الرغم من كون أم الكتاب/الكتاب الحق ذات شكل ومضمون إنسانيين عالميين شاملين، إلاّ أنها نزلت إلى الأنبياء والرسل كل بلسانه، أي

**بلسان قومه**. واللسان أو اللغة لا يخص شكل الآيات – أي صياغتها اللفظية – وإنما هيئتها فحسب * .

ولهذا يقرّر الذكر الحكيم أن الكتاب الحق/أم الكتاب نزل إلى محمدﷺ **بلسان عربي مبين**، أي بلسان عربي الإبانة، بحيث بقي شكله ومضمونه عالميين شاملين. نلاحظ أن الآيات الكريمة التالية تصف **لسان** الكتاب الحق/أم الكتاب فقط بأنه عربي (أي هيئته)، فتنفي بذلك عن شكله ومضمونه الجنسية العربية.

يقول تعالى:

**﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾** الأحقاف ١٢. يصدق الكتاب الحق/أم الكتاب الذي نزل إلى محمد ﷺ بلسان عربي مانزل من قبل إلى موسى من كتاب، أي يقوّيه، ويثبّته. وهذا أيضا ماتثبته الآيتان الكريمتان التاليتان:

**﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ○ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ○ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم﴾** النحل ١٠٢-١٠٤. لم يصدّق الملحدون أن الكتاب الحق/أم الكتاب، الذي نزل إلى محمد ﷺ بواسطة الروح القدس، هو نفسه الذي نزل إلى النبيين من قبل، كونه نزل من قبل بلسان أعجمي – وهو لسان الشخص الذي يتهمون محمدا ﷺ بأنه يتعلم منه – وإلى محمد ﷺ بلسان عربي. إن الذين يؤمنون حقا بآيات الله يعلمون أن اختلاف لغة الآيات الكريمة لا يغير شيئا من شكلها، ولا من مضمونها.

---

* يأتي تفصيل ذلك في بحث النسخ.

﴿**نزل به الروح الأمين ○ على قلبك لتكون من المنذرين ○ بلسان عربي مبين ○ وإنه لفي زبر الأولين**﴾ الشعراء ١٩٣-١٩٦. إن الكتاب الحق/أم الكتاب **موجود** في زبر الأولين شكلا ومضمونا، أما ما هو عربي منه في الذكر الحكيم فهو اللسان فقط، ووظيفته الإبانة.

أما **القرآن الكريم**، وهو الجزء من الذكر الحكيم الخاص بشرعة محمد ﷺ، فقد **جعل عربيا من حيث اللسان ومن حيث الشكل أيضا** (دون المضمون)، كونه لم ينزل إلى نبي أو رسول من قبله، كما هو حال الكتاب الحق/أم الكتاب، وإنما أنزل أول ماأنزل إلى محمد ﷺ الرسول العربي، ليبلغه لأمته العربية، وليطبق أول مايطبق في بيئة عربية.

يقول تعالى:

﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾ يوسف ٢.

﴿**وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**﴾ طه ١١٣.

﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ○ قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون**﴾ الزمر ٢٧-٢٨.

﴿**كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون**﴾ فصلت ٣.

﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ○ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ولا نصير**﴾ الشورى ٧-٨.

﴿**وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق**﴾ الرعد ٣٧.

**﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾** الزخرف ٣.

نلاحظ أن الآيات الكريمة لم تصف لسان القرآن فقط بأنه عربي، كما هو حال الكتاب الحق/أم الكتاب، وإنما وصفته بجعله عربيا في ذاته. وهذا لايعني نفي صفة الشمولية والعالمية عن مضمون القرآن الكريم، فهو إنساني عالمي شامل، طالما أنه يستقي تفاصيله وطروحاته من الكتاب الحق/أم الكتاب، ذي الصفة العالمية الإنسانية الشاملة.

أما القول إن أم الكتاب هي رسالة محمد ﷺ، أي كل مايتعلق بالحدود، والفرائض، والمعاملات، بالإضافة إلى الأخلاق، اعتمادا على أن الآيات المحكمات هي الأحكام نفسها، فليس بالقول الصحيح، وأثبت ذلك في الفقرات التالية *.

**٤- أم الكتاب/الآيات المحكمات:**

أ- ورد تعريف أم الكتاب في الذكر الحكيم بكونها **الآيات المحكمات** في قوله تعالى:

**﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ** ابتغاء الفتنة**

---

* هذا هو الرأي الذي تبناه الدكتور محمد شحرور في كتابه الكتاب والقرآن، **اعتمادا على التفاسير القرآنية المشهورة، التي تقرر أن الآيات المحكمات هي آيات الأحكام نفسها،** وأنها تغطي ما جاء في القرآن الكريم من آيات " ناسخة وحلاله وحرامه وحدود ما يؤمر به ويعمل به ". ابن كثير، في تفسير الآية ٧ من سورة آل عمران.

** المتشابهات كلمة مشتقة من الفعل (شبه)، وهو كما ورد في **معجم متن اللغة** " أصل واحد يدل على تشابه الشيء لونا ووصفا.. واشتبه الأمران إذا أشكلا ". ويقول **معجم ألفاظ القرآن الكريم:** " قال: **﴿..وأتوا به متشابها..﴾** أي يشبه بعضه بعضا **لونا لا طعما وحقيقة..﴿..ولكن شبه لهم..﴾** أي مثل لهم من حسبوه إياه.. والشبه من الجواهر: مايشبه لونه لون الذهب ". إن هذا يعني أن الشبه بين الشيئين يكمن عادة في الظاهر وليس في الحقيقة، أي في شكل الشيء دون مضمونه. ولتفسير التشابه في القرآن الكريم لدينا احتمالان: إما أن يكون التشابه فيما بين الآيات الكريمة بعضها مع البعض

**وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذّكر إلا أولو الألباب﴾** آل عمران ٧.

فالآيات المحكمات هنّ أم الكتاب (الكتاب الحق) بعينها، أي أنها الآيات المتطابقات، المتوافقات في النبوات والرسالات السماوية جميعاً. وأرى أن المحكم من الآيات **ليس آيات الأحكام**، للأسباب التالية:

**(مُحْكَمات)** هي جمع اسم المفعول (مُحْكَم)، المشتق من الفعل الرباعي (أَحْكَم) ويعني " **الاتقان والثبات** " [١٤]، "وأحكم الأمر أتقنه، واستحكم الأمر: **وثق، ثبت، كان محكماً** " [١٥]، والمراد لغويا من حيث اللفظ والمعنى، أي من حيث الشكل والمضمون. أما الفعل المضارع من الفعل (أَحْكَم) فهو (يُحْكِم)، ومصدره (إحكام)، واسم الفاعل منه (مُحْكِمُ) أو (حَكَمٌ) وهو واضع الأحكام. وأصل الفعل ثلاثي وهو (حَكَمَ)، ويعني المنع وأوله (الحُكْم)

---

الآخر شكلا مع اختلاف المضامين، وهذا الاحتمال مستبعد لما يتصف به القرآن الكريم من بلاغة فائقة، ومستوى رفيع في مجال الدلالات اللغوية، والاحتمال الثاني –وهو الاحتمال المنطقي– أن يكون التشابه في الآية الكريمة نفسها. والسؤال هو: كيف تتشابه الآية مع نفسها؟ للإجابة على السؤال نقول: بما أن التشابه يكمن عادة في الشكل دون المضمون، لذلك فإن الآية الكريمة الواحدة تتشابه مع نفسها من حيث الشكل (هي في حقيقة الأمر تحمل شكلا واحدا متطابقا) ولكنها تختلف من حيث المضمون. أي أن الآية الكريمة الواحدة يمكن أن **تحمل مضمونين مختلفين متباينين**، أحدهما يراد به المجاز والآخر يراد به الحقيقة. وعلى المؤمن في هذه الحالة أن يميز بين المجاز والحقيقة حسب المعطيات الكلية الشاملة للقرآن الكريم، لأن حمل المعنى على الوجه المناقض للمقاصد الإلهية يؤدي إلى اختلافات خطيرة، وفتن بين الناس، سببها التأويل الخاطئ للآيات الكريمة. ولذلك يحاول الذين في قلوبهم زيع (أي ميل عن الحق ) تأويل الآية المتشابهة حسب المعنى الذي اشتبه مع المعنى الأصلي، لا حسب المعنى الإلهي نفسه، الذي يقصده تعالى من الآية الكريمة، سواء أكان حقيقة أم مجازا **﴿..فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه..﴾**. وأذكر مثالا على هذا مذهب أهل التجسيد، الذي يصور الله إنسانا له أيد وارجل ووجه وعينان كبني البشر، انطلاقا من مثل قوله تعالى، الذي قصد به المجاز لا الحقيقة **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾** الفتح ١٠. فالمعطيات الكلية للقرآن الكريم تؤكد أن الله ليس كمثله شيء، وبالتالي فهو لا يشبه الإنسان ولا كائن من كان في الكون، لذلك فإن تأويل قوله **﴿..يد الله فوق أيديهم..﴾** بأن الله له أيد كبني البشر، أي تأويل الآية على ظاهرها دون أخذ المجاز بعين الاعتبار، أمر يدعونا للحكم على قائله بالزيغ عن الحق. أما التفسير الشائع، الذي يقرر أن الاتجاه إلى تأويل الآيات المتشابهات هو بحد ذاته ميل عن الحق، فقد أدى إلى عزوف دارسي الذكر الحكيم عن دراسة وفهم أكثر من ثلثي آياته، وتأويل آيات الأحكام منه فقط، الأمر الذي نتج عنه جهل المسلمين بمعظم آيات الذكر الحكيم.

وهو المنع من الظلم [١٦]، وأول الآيات المحكمات هي الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد وعدم الشرك به، أي منع ظلم الإنسان لنفسه.

لذلك فالآيات المحكمات هنّ كذلك لأنهن يمنعن الظلم الإنساني من جهة كالشرك بالله، وعقوق الوالدين، والقتل (معنى الفعل الثلاثي حَكَمَ)، ولأنهن من جهة أخرى آيات منيعة في حد ذاتها، أي محكمة الإغلاق شكلاً ومضموناً (وهو دلالة اسم المفعول من الفعل أَحْكَمَ).

أما **الأحكام**، فهي جمع مصدر الفعل الثلاثي (حَكَمَ) وهو (حُكْمٌ)، والفعل المضارع منه (يَحْكُم)، وليس (يُحْكِم)، واسم المفعول منه (محكوم)، وليس (مُحْكَمٌ)، واسم الفاعل منه (حاكِمٌ)، وليس (حَكَمٌ). أي أن الأحكام (جمع حُكْمٌ) ليست مصدر الفعلْ (أَحْكَمَ)، ولذلك فهي لا تحمل دلالة اسم مفعوله. وهذا يعني أن الأحكام ليست محكمة الإغلاق من حيث الشكل، كما هو الحال والآيات المحكمات، بالرغم من أنها محكمة من حيث المضمون، كونها تتطلع جميعاً إلى منع الظلم الإنساني بأشكاله كافة.

وعلى هذا أرى أن **الآيات المحكمات شيء، وآيات الأحكام شيء آخر**، وهذا ماتؤيده معاني الذكر الحكيم، بالإضافة إلى الدلالة اللغوية للكلمتين.

فأم الكتاب هي الآيات المحكمات، أي الآيات المنيعة المغلقة من حيث الشكل والمضمون، كونها نزلت مكتملة إلى إبراهيم عليه السلام أولاً، ثم أعيد الوحي بها كما هي شكلاً ومضموناً إلى موسى، ثم إلى عيسى من بعده، وأخيرا إلى محمد عليهم السلام أجمعين.

وبما أن موضوع أم الكتاب هو الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب، لذلك يؤكد تعالى على إحكامه لآيات الصراط المستقيم، التي أصبحت بإحكامه محكمة:

**﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ○**

**ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ○ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ○ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾** الحج ٥٢-٥٥ * .

ويتفق مع هذا أيضا ماروي عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: " المحكمات هي قوله تعالى ﴿**قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا..**﴾ والآيات من بعدها، وقوله تعالى ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا..**﴾ إلى ثلاث آيات بعدها " (١٧). وموضوع آيات سورة الإسراء هو نفس موضوع آيات سورة الأنعام، حيث تحدد قواعد الصراط المستقيم، مع بيان بعض الحكمة من فرضها.

وعليه.. نرى أن الآيات المحكمات هنّ قوله تعالى ﴿**قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا..**﴾ وحتى قوله ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه..**﴾ إلى آخر الآية، أي الآيات التي أحكم إغلاقها شكلاً ومضموناً عبر النبوات والرسالات السماوية جميعاً، التي تحدد قواعد الصراط المستقيم.

لقد وصف تعالى آيات الصراط المستقيم **بالمحكمات**، لأنها تهدف إلى توضيح **أسس المعرفة اليقينية المحكمة للإنسانية برمتها**، أي إلى تأسيس القيم والمبادىء العامة، التي توجه السلوك الإنساني، وتؤطره في كل زمان وفي كل مكان، بمعزل عن تعدد الشرائع، وعن اختلاف العوامل الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، المؤثرة في المجتمعات الإنسانية.

---

* تجد شرح الآية بتفصيل أكثر في بحث النسخ.

أما الأحكام * فهي **مجمل التوجيهات العامة** ** والقوانين التشريعية، التي تبيّن وتفصّل ماجاء من تعليمات محكمة منيعة في أم الكتاب، وهي موضوع الشرائع، أي موضوع القرآن باعتباره شرعة محمد ﷺ. وعلاقة الآيات المحكمات بآيات الأحكام، كعلاقة الدستور بالقوانين الوضعية، التي تصاغ انطلاقا منه، وتفصيلاً وبياناً له، فتعتبر بذلك تطبيقاً لما ورد في الدستور، لا الدستور نفسه.

يقول تعالى:

﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ البقرة ٢١٣.

اشتقت كلمة (البيّنات) من الفعل (بَيَنَ) و " بان الشيء إذا اتضح وانكشف " (١٨)، " وسمي ماشرح به المجمل والمبهم من الكلام بياناً، نحو قوله تعالى ﴿**ثم إن علينا بيانه**﴾ القيامة ١٩" (١٩). فالبينات هنا هي الآيات التي تبيّن، وتشرح، وتفصّل الكتاب الحق/أم الكتاب في الشرائع السماوية، أي التي تشرح، وتبين قواعد الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب. حيث لم يختلف الذين أوتوا الكتاب، وهم أصحاب الشرائع السماوية جميعا، إلاّ من بعد ماجاءتهم تلك البيّنات. وتأخذ كلمة (البيّنات) المعنى نفسه في قوله تعالى:

---

* الأحكام اصطلاح وضعه الفقهاء ولم يرد ككلمة في الذكر الحكيم، وقد وردت الكلمة بصيغة المفرد.

** وتشمل التوجيهات الحضارية، والتهذيبية، والذوقية..إلخ، مثل ضرورة التفسح في المجالس (المجادلة ١١)، وعدم دخول بيوت الآخرين دون استئذان وسلام (النور ٢٧)..إلخ.

﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من <u>قتل نفسا</u> بغير نفس أو فساد في الأرض <u>فكأنما قتل الناس جميعا</u> ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا <u>بالبينات</u> ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ المائدة ٣٢. البينات هنا هي الأحكام التي تبيّن، وتفصّل أسباب النهي عن القتل، والنهي عن القتل قاعدة من قواعد الصراط المستقيم.

كما تأخذ المعنى نفسه في قوله تعالى:

﴿**لقد أنزلنا <u>آيات مبينات</u> والله يهدي من يشاء إلى <u>صراط مستقيم</u>**﴾ النور ٤٦.

ويتضح تماما أن الذكر الحكيم فصّل آيات الصراط المستقيم في آيات أخرى منه، فى قوله تعالى:

﴿**وهذا <u>صراط ربك مستقيما</u> قد <u>فصلنا الآيات</u> لقوم يذكرون**﴾ [illegible] ١٢٦. أي أن آيات الصراط المستقيم فصّلها تعالى في آيات أخرى من الذكر الحكيم.

ولتوضيح ماتقدم نضرب الأمثلة التالية:

**المحكم** هو أن **قتل النفس** بغير حق منهى عنه باعتباره أساسا من أسس المعرفة اليقينية، التي يجب أن يلتزم بها الإنسان في كل زمان وفي كل مكان، أي باعتباره قاعدة إسلامية أساسية **لا مجال للاجتهاد البشري فيها لا شكلا ولا مضمونا**، وذلك اعتمادا على القاعدة المحكمة الخامسة من قواعد الصراط المستقيم، وهي ﴿**..ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق..**﴾ **الواردة في النبوات والرسالات جميعا**. أما **الأحكام** التي تطبق على من يخالف تلك الآية المحكمة، فهي كثيرة ومتشعبة، وغالباً ما تختلف من حيث الشكل من شرعة لأخرى. فهناك حكم القتل الخطأ، وحكم القتل العمد، وحكم قتال المشركين الذين تربطهم عهود بالمسلمين، وحكم قتال من لا تربطهم عهود بالمسلمين، وحكم النفس بالنفس، والعين بالعين..إلخ، وحكم الحر

بالحر، والعبد بالعبد..إلخ، وغيرها من الأحكام الكثيرة، التي وردت في القتل والقتال في شرعة محمد ﷺ، وفي الشرائع من قبلها.

كما أن **الفاحشة أمر منهي عنه**، باعتباره أساسا من أسس المعرفة اليقينية **المحكمة**، التي يجب أن يلتزم الإنسان بها في كل زمان وفي كل مكان، تأسيسا على القاعدة المحكمة الرابعة من قواعد الصراط المستقيم، وهي **﴿..ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن..﴾**. أما **حكم الزني** (وهو أول سبيل الفاحشة) *، فيختلف من حيث الشكل من شرعة لأخرى، فهو الرجم في شرعة موسى عليه السلام، والجلد مائة جلدة في شرعة محمد ﷺ **.

وهذا ماينطبق أيضا على ضرورة اجتناب عقوق الوالدين والشهادة بالعدل، اعتمادا على القاعدتين المحكمتين الثانية والثامنة من قواعد الصراط المستقيم **﴿..وبالوالدين إحسانا.. وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى..﴾**،

---

* للتمييز بين **الفاحشة والزنى** نقول: اشتقّت كلمة (الفاحشة) من الفعل (فحش) وهو " كل ما يتكرر من القبيح " حسب تعريف **معجم مقاييس اللغة**. ويقال الفحش في الغنى، أي الغنى المبالغ فيه – وليس الغنى فحسب (وهو مثال على الفحش في الكم)، كما يقال الفحش في الكلام، أي المبالغ في قبحه من الكلام – وليس القبيح منه فحسب (وهو مثال على الفحش في الكيف). أما الزنى فهو " الفعل المعروف " أيضا حسب تعريف **معجم مقاييس اللغة**، أي الجماع بين الرجل والمرأة خارج الإطار الشرعي، وبهذا توصف بأنها علاقة قبيحة. وعليه، فإن الفاحشة يمكن أن تكون في الزنى، كما يمكن أن تكون في غيره، و**الفحش في الزنى ليس** الزنى بعينه، وإنما المبالغة في فعل الزنى، ويكون ذلك في الكم كممارسة المرأة للبغاء، أو في **الكيف** كنكاح المحارم من النساء، واللواط، والسحاق. يقول تعالى **﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾** الإسراء ٣٢، أي أن الزنى هو سبيل الفاحشة، لذلك على المؤمنين الا يقربوها. ولو أن الفاحشة هي الزنى بعينه، لأمكن الاستعاضة عن كلمة (الفاحشة) بكلمة (الزنى)، ولكان معنى الآية ألا تقربوا الزنى إنه كان زنى وساء سبيلا.. أي لما استقام المعنى. يقول الفخر الرازي في تفسير الآية **﴿.. ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن..﴾**: " الأولى الا يخصص هذا النهي بنوع معين (يقصد الزنى)، بل يجري على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها: لأن اللفظ عام والمعنى الموجب لهذا النهي وهو كونه فاحشة أيضا عام.. ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل " **مفاتيح الغيب**، ص: ٢ و ٢٢٣. ونؤكد هنا أن هذا لا يعني تساهلا في موضوع الزنى، ولكنه أمر يقتضيه البحث العلمي.

** أنظر هامشي الصفحة ٩٠.

أما عقوبة من لا يحسن لوالديه ولشاهد الزور مثلا، فمتروكة لاجتهاد الإنسان، حسب المعطيات الزمانية والمكانية المستجدة للمجتمعات الإنسانية.

وبالرغم من أن **الأحكام المذكورة في الكتاب ثابتة لا تتغير**، إلا أن فهم الإنسان لها ولملابساتها، وتقديره لمناهج تطبيقها، يتغيران مع تغير الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والتعليمية، والسياسية، السائدة في المجتمعات الإنسانية * .

**وهنا نرى كيف يلعب الاجتهاد البشري دورا أساسيا في فهم آيات الأحكام، وفي وضع مناهج لتنفيذها، بينما يفقد الدور نفسه بالنسبة للمحكم من الآيات.**

ب- وعليه، فإذا كانت الآيات المحكمات هن أم الكتاب، فإن آيات الأحكام هن من **تفصيل الكتاب**، أي أنهن الآيات اللاتي يفصّلن قواعد الصراط المستقيم، ويبيّنها، ويوضّحن قوانين العقوبات التي تطبق على من يخالف بعضها. والاسم (تفصيل الكتاب) يعبر عن حقيقة معناه، حيث أن التفصيل يعني الشرح والبيان للقواعد الأساسية. ولذلك يقول تعالى:

**﴿الر كتاب <u>أحكمت</u> آياته <u>ثم</u> <u>فصلت</u> من لدن حكيم خبير﴾** هود ١.

أي أن كتاب الله **أُحكمت آياته** أولاً مع بعثة إبراهيم عليه السلام (أحكم = الآيات المحكمات = الصراط المستقيم)، ثم **فُصّلت** بعد فترة تراخ زمني (وهو مدلول حرف العطف (ثم) الذي يفيد التراخي الزمني) من خلال الأحكام التي أرسلت في شرعة موسى ومن بعده عيسى عليهما السلام في التوراة والإنجيل، وأخيرا **فُصّلت بشكل كامل** من خلال التوجيهات العامة والأحكام التشريعية التي أرسلت إلى محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل في شرعة القرآن الكريم.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني، بحث الشرائع والمناهج.

- **وتفصيل الكتاب هو موضوع شرعة محمد ﷺ، أي موضوع القرآن الكريم،** لذلك يقول تعالى:

**﴿وما كان هذا <u>القرآن</u> أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه <u>وتفصيل الكتاب</u> لا ريب فيه من رب العالمين﴾** يونس ٣٧.

يقول الهمداني " **﴿..ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب..﴾..** مفعول له بمعنى ولكن أنزل (أي القرآن) للتصديق والتفصيل.. أي تبيين ما كتب عليكم من الأوامر والنواهي، وفرض من الأحكام والشرائع "[٢٠]، أي أن القرآن هو تفصيل الكتاب، الذي لا ريب فيه من رب العالمين.

ويقول تعالى أيضا:

**﴿كتاب <u>فصلت آياته قرآنا عربيا</u> لقوم يعلمون﴾** فصلت ٣.

يقول الزمخشري "**﴿..<u>قرآنا عربيا</u>..﴾** .. هو نصب على الحال، أي فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا "[٢١]. فالقرآن حال من تفصيل الكتاب، الذي جاء جواباً على السؤال الممكن طرحه وهو: كيف فصلت آيات الكتاب؟.. فيأتي الجواب: قرآناً عربياً. أي أن القرآن هو الجزء من الذكر الحكيم، الذي يفصّل الجزء الآخر منه، ويبيّنه، أي أنه الجزء الذي يفصّل الكتاب الحق/أم الكتاب، ويبيّنه.

- وعليه، فإن **تفصيل الكتاب** يحوي أهم الأحكام التي نزلت من قبل بعثة محمد ﷺ، بما في ذلك القصص القرآني، كما يحوي كل الأحكام الجديدة التي أنزلت إلى محمد ﷺ:

وللدلالة على أن **تفصيل الكتاب** يحوي أهم **التعاليم والأحكام التي أنزلت من قبل بعثة محمد ﷺ، بما في ذلك القصص القرآني**، يقول تعالى:

**﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾** يوسف ٣.

ويقول تعالى:

**﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** يوسف ١١١.

إن قوله تعالى **﴿..وتفصيل كل شيء..﴾** هو من باب التأكيد على أن القصص القرآني ليس حديثاً يفترى، ولكن تفصيل لكل ما نزل على الأنبياء والرسل من قبل. وقد قصّ الذكر الحكيم قصصهم ليس بهدف التسلية، ولكن لتكون عبرة للمؤمنين من جهة، ولتبيان المبادىء الأساسية وأهم الأحكام التي تضمنتها الشرائع السابقة من جهة أخرى (كأحكام القتل في شرعة موسى مثلا)، وذلك من أجل أن تعلم أمة محمد ﷺ أنها أحكام أرسلت من عند الله، وأنها ليست من عند العباد، أي من أجل ألاّ تنكر على أهل الكتاب العمل بها.

وللدلالة على أن **تفصيل الكتاب** يحوي أيضا كل **الأحكام المستجدة** التي أنزلت إلى محمد ﷺ، يقول تعالى:

**﴿أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ○ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾** الأنعام ١١٤-١١٥.

(الحَكَم) من أسماء الله الحسنى، وقد وصف الله ذاته به لأنه مع إحكامه لآيات الصراط المستقيم كان حَكَما على الناس جميعا. وهو تعالى لم يكتف بتنزيل المحكم من الآيات، بل فصّلها أيضا في الأحكام التي تضمنها تفصيل الكتاب. وعليه فإن تفصيل الكتاب يحوي الأحكام التشريعية التي أنزلت إلى

محمد ﷺ، بالإضافة إلى أهم الأحكام التشريعية التي أنزلت في الرسالات السابقة.

كما يحوي القرآن – وهو شرعة محمد ﷺ – رؤية عامة حول أهم القضايا الفكرية، التي تشغل حيزا هاما من تفكير الإنسانية على مر العصور، كقضايا الموت، والحياة، والخلق، والخلود، وحول أهم **القوانين الموضوعية** التي تحكم الكون، كالقوانين الطبيعية، والقوانين الاجتماعية، والإنسانية. ولكن القرآن لم يذكر تلك القوانين بهدف شرحها باعتبارها نظريات علمية، ولكن بهدف **تكريس مبدأ التوحيد** من جهة، **وتوجيه الفكر الإنساني نحو دراسة تلك القوانين والتفكر بها** من جهة أخرى، حيث يلعب هذان العاملان دوراً أساسياً في صنع الحضارات الإنسانية النافعة.

يقول تعالى:

**﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ○ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ○ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ○ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ○ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾** المؤمنون ١٢-١٦.

**﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾** الرعد ٣١.

**﴿أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** النمل ٦١.

ت- وبما أن القرآن الكريم هو شرعة محمد ﷺ، أي رسالته، وبما أن **وظيفة الرسالة هي إبانة الكتاب الحق/أم الكتاب** وتفصيله، لذلك يقول تعالى:

**﴿وماعلمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾** يس ٦٩.

**﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ومـا علـى الرسـول إلا البـلاغ المبيـن﴾** العنكبوت ١٨.

**﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾** الدخان ١٣.

**﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ○ وما علينا إلا البلاغ المبين﴾** يس ١٦-١٧.

**﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾** الزخرف ٢٩.

**﴿وأطيعوا اللـه وأطيعوا الرسـول فـإن توليتم فإنمـا علــى رسـولنا البـلاغ المبين﴾** التغابن ١٢.

ث- وبما أن وظيفة القرآن الكريم – رسالة محمد ﷺ – هـي الإبانـة والتفصيل، لذلك فإنها بإبانتها وتفصيلها للكتاب الحق/أم الكتاب، **تصدق** ما جـاء فيـه، أي تقويّه، وتثبّته.

– فالتصديق مصدر مشتق من الفعل (صَدَق)، وله أصل واحد " يدل علـى قـوة في الشيء قولا وغيره.. من ذلـك الصـدق، خـلاف الكـذب، سـمي لقوتـه فـي نفسه ولأن الكذب لا قوة له.. وأصل هذا من قولهم شيء صَـدْق، أي صلـب، ورمح صَدْق " (٢٢). إن بيان الشيء، من خلال شـرح تفاصيلـه، يـؤدي إلـى تقويته، وتثبيته في النفس الإنسانية.

يقول تعالى:

**﴿وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الـذي بيـن يديـه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين﴾** يونس ٣٧.

**﴿لقد كـان فـي قصصهم عبرة لأولـي الألبـاب ماكـان حديثـا يفـترى ولكـن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شـيء وهـدى ورحمـة لقـوم يؤمنـون﴾** يوسف ١١١.

تؤكد الآيتان الكريمتان أن القرآن (ويتضمن القصـص القرآنـي) يصـدّق ما هو موجود بيـن يدي اللـه، وهـو الكتـاب الحـق/أم الكتـاب. أي أن رسـالة محمـــد ﷺ تصدّق نبوته، أي تقويّها، وتثبّتها، حالهـا حـال الرسـالات مـن قبلها، لذلك يقول تعالى:

**﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمـة ثـم جـاءكم رسـول مصدق لمـا معكم لتؤمنـن بـه ولتنصرنـه قـال ءأقررتـم وأخذتـم علـى ذلكـم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾** آل عمران ٨١.

لقد ذكرت الآية الكريمة الكتاب مع مقـام النبـوة **﴿..ميثـاق النبييـن لمـا آتيتكم من كتاب..﴾**، أما التصديق فذكرتـه مـع مقـام الرسـالة **﴿..ثـم جـاءكم رسول مصدق..﴾**، أي أن الرسالات وموضوعها الشـرائع، تصـدّق النبـوات وموضوعها الكتاب الحق/أم الكتاب.

- كما أن للتصديق شقّ آخر في الذكر الحكيم، حيـث يصـدّق الكتـاب الحـق/أم الكتـاب الـذي نـزل إلـى محمـد ﷺ، الحـقّ، موضـوع نبـوة النبييـن أجمعيـن، الموجود بين يدي الله، لذلك يقول تعالى:

**﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم ○ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بيـن يديه وأنزل التوراة والإنجيل ○ من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾** آل عمران ٢-٤.

إن الكتاب الذي نزل إلى محمد ﷺ بالحق يصـدّق الحقّ الموجـود بيـن يدي الله، الذي نزل إلى النبييـن جميعـا، كمـا صدّقتـه التـوراة والإنجيـل مـن قبل. إن وقفة التنجيم بعد ذكر التـوراة والإنجيل تعنـي تكـرار الجملـة نفسـها **﴿..مصدقا لما بين يديه..﴾**. أي أن التوراة والإنجيل أنزلا قبل القرآن الكريم

أيضا مصدّقين للكتاب الحق الموجود بين يـدي اللـه، وهدايـة للنـاس ﴿..**من قبل هدى للناس..**﴾.

ويقول تعالى أيضا:

﴿**والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير**﴾ فاطر ٣١.

إن بعض الكتاب الذي أوحي إلى محمد ﷺ هو الحقّ من اللـه الموجـود بين يديه، الذي نزل إلـى النبيين مـن قبلـه (حيث أن {مـن} هـي حـرف جر للتبعيض).

﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾ البقرة ٨٩.

يصدّق الكتاب الحق/أم الكتاب، الذي أوحي إلى محمد ﷺ الكتاب الحقّ الذي بحوزة أهل الكتاب، أي يقويّه، ويثبّته. ولا يمكن أن تكون الشرائع هي المقصودة بقوله ﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم..**﴾، لأن المعرفة ﴿..**جاءهم ماعرفوا..**﴾ تفترض وحـدة الشـكل كذلـك، لا وحـدة المضمون فحسب. لذلك لا يمكن لأهل الكتاب أن يعرفوا، أو أن يصدّقـوا – عن طريق الشرائع – بأن شرعة محمد ﷺ قد أتت تصديقا لشرائعهم، لأنها تختلف عن شرعتهم من حيث الشكل *. أما الكتاب الحق/أم الكتاب فواحد في النبوات كلها شكلا ومضمونا، لذلك فمن الممكن التصديق به.

---

* تختلف الشرائع السماوية فيما بينها من حيث الشكل فقط، بينما تتحد في المضامين والمبادىء الفكرية. يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

**﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾** الأحقاف ١٢.

الكتاب الحق/أم الكتاب، الذي أوحي إلى محمد ﷺ بلسان عربي، يصدق الكتاب الحق، الذي أوحي إلى موسى عليه السلام من قبل. نلاحظ أن الآية الكريمة لم تذكر التوراة بدلا عن الكتاب، لأن التوراة هي شرعة موسى، أما كتاب موسى فهو الكتاب الحق الذي أنزل إليه.

- وبما أن رسالة محمد ﷺ تصدّق نبوته، ونبوته تصدّق النبوات من قبله، لزم أن **تصدّق رسالته النبوات من قبله** كذلك. أي أن مجموع مانزل إلى محمدﷺ (من رسالة ونبوة) يصدق الكتاب الحق الموجود بين يدي الله، الذي نزل إلى الأنبياء والرسل جميعا من قبل. لذلك يقول تعالى:

**﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾** الأنعام ٩٢. يدل اسم الإشارة (هذا)، الذي يفيد القرب، على أن المعني بالكتاب في الآية الكريمة هو مجمل الكتاب الذي نزل إلى محمد ﷺ، أي مجمل الذكر الحكيم، الذي يتضمن نبوة محمد ﷺ، ورسالته، وليس النبوة وحدها.

**﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾** البقرة ٩٧.

ج- لا يعني قوله تعالى **﴿..فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال..﴾** أن آيات السورة كلها محكمة (المرجح أنها سورة التوبة)، بمعنى أن كل آية من آيات السورة محكمة على حدة، ولكن نفهم أن **المعني بالإحكام في الآية الكريمة هو موضوع السورة، الذي يركّز على أحكام القتل والقتال.**

**﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم﴾** محمد ٢٠.

لقد عرّف الذكر الحكيم الآيات المحكمات بكونها أم الكتاب، أي **سورة الفاتحة**. لذلك فعندما يصف تعالى سورة التوبة بالإحكام، فإننا نفهم أن الإحكام هنا يخص **موضوع السورة** – مقارنة بسور القرآن الأخرى – الذي يركز بشدة على أحكام قتال المشركين والمنافقين، الأمر الذي لا نجده في سور القرآن الكريم الأخرى * .

وإذا كان **الكتاب الحق**/**أم الكتاب** هو **المصدر الذي تستقي منه الشرائع** جميعا تفاصيلها، وأحكامها، وأهدافها الكبرى، فهل لحق به النسخ عبر الرسالات السماوية المتتالية ؟..

---

* وحتى لو اعتبرنا تجاوزا أن المحكم هو الأحكام نفسها، فلا يمكن اعتبار آيات سورة التوبة كلها أحكاما، كقوله تعالى: **﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** التوبة ٧٠.

## النسخ والإنساء والمحو والإثبات والعفو:

يقول الشيخ محمد الغزالي:

" والزعم بأن (١٢٠) آية من آيات الدعوة **نسخت** بآية السيف، هو حماقة غريبة دلت على أن الجماهير المسلمة في أيام التخلف العقلي أو العلمي في حضارتنا، جهلوا القرآن.. فقصة **النسخ** *، أو الحكم بتحنيط بعض الآيات،

---

* **النسخ في الفقه الإسلامي** اصطلاحا هو " **رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه**.." **البيان في تفسير القرآن** للخوئي ٢٩٦/١. وهو كما جاء في **تفسير ابن كثير** للآية ١٠٦ من سورة النساء " **رفع الحكم بدليل شرعي متأخر**.. أخبرنا عوف عن الحسن أنه قال: في قوله ﴿..**أو ننسها**..﴾ قال: إن نبيكم ﷺ قرأ قرآنا ثم نسيه.. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار ". ويقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، في **الإتقان في علوم القرآن**: " قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه **الناسخ والمنسوخ**. وقد قال عليّ لقاصٍ: أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.. **والنسخ في القرآن الكريم على ثلاثة أضرب**: أحدها: **ما نسخ تلاوته وحكمه معاً**: قالت عائشة: { كان فيما أنزل: عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن }. رواه الشيخان.. والضرب الثاني: **ما نسخ حكمه دون تلاوته**.. فمن البقرة: قوله تعالى ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت**..﴾ البقرة ١٨٠ منسوخة، قيل: بآية المواريث، وقيل بحديث (لا وصية لوارث)، وقيل بالإجماع.. وقوله ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث**..﴾ البقرة ١٨٧ ناسخة لقوله ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**..﴾ البقرة ١٨٣.. ومن عجيب المنسوخ قوله تعالى ﴿**خذ العفو**..﴾ الآية، فإن أولها وآخرها وهو ﴿..**وأعرض عن الجاهلين**﴾ الأعراف ١٩٩ منسوخ، ووسطها محكم وهو ﴿..**وأمر بالعرف**..﴾. وقال السعيدي: لم يمكث منسوخ مدة أكثر من قوله تعالى ﴿**قل ماكنت بدعا من الرسل**..﴾ الأحقاف ٩، مكثت ست عشرة سنة حتى نسخها أول الفتح عام الحديبية (ذكر المؤلف الكثير من الأمثلة الأخرى).. والضرب الثالث: **ما نسخ تلاوته دون حكمه**.. عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأيّ تعد سورة الأحزاب ؟ قلت اثنتين وسبعين أو ثلاثا وسبعين آية. قال: إن كانت لتعدل سورة البقرة، وإن كنا نقرأ فيها آية الرجم. قلت: وما آية الرجم ؟ قال: (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم).. وعن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة نحو براءة، ثم رفعت، وحفظ منها: (إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب).. وعن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل علينا: (أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة) ؟ فإنا لا نجدها ! قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن " دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، دمشق، سورية، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م، ص: ٧٠٠ إلى ٧٢٠. ويقول هبة الله بن سلامة البغدادي في **الناسخ والمنسوخ** " سورة البقرة تحتوي على ثلاثين آية منسوخة.. وسورة آل عمران تحتوي من المنسوخ على عشر آيات.. وسورة النساء تحتوي على أربع وعشرين آية منسوخة.. وسورة المائدة تحتوي من المنسوخ على تسع آيات.. وسورة الأنعام تحتوي

فهي موجودة ولكن لا تعمل.. **باطل**، وليس في القرآن أبدا آية يمكن أن يقال إنها عُطّلت عن العمل وحكم عليها بالموت.. **هذا باطل.. كل آية يمكن أن تعمل**. لكن الحكيم هو الذي يعرف الظروف التي يمكن أن تعمل فيها الآية، وبذلك توزع آيات القرآن على أحوال البشر بالحكمة والموعظة الحسنة " (٢٣).

وأتفق مع الشيخ الغزالي في ما ذهب إليه، إذ هل يمكن أن يُبطل كلام الله كلامه في الكتاب نفسه، ويلغيه ؟.. وهل يمكن أن يمحو كلام الله كلامه، أو أن يعفو عنه، أو أن يبدله، في الكتاب نفسه ؟.. وإذا كان الأمر كذلك، فعلى أي أساس * ؟..

وإذا كانت بعض الأحاديث المروية عن الرسول الكريم ﷺ تنسخ بعض آيات الكتاب، كما تنسخ بعض آيات الكتاب بعضها الآخر - بمعنى تبطل حكمها وتلغيه - إذا كان الأمر كذلك **، فلماذا **لم يرد على لسان الرسول الكريم تصنيف للآيات الناسخة والمنسوخة**، أو **للأحاديث التي تنسخ آيات الكتاب**، فتُبطل حكمها وتلغيه، على ما لهذا الأمر من أهمية تمس أصول الدين نفسها، وأساسياته؟..

يؤكد تعالى في كتابه العزيز أن كلمته تمت صدقاً وعدلاً مع نزول الذكر الحكيم، وأن كل كلمة من كلمات الله التي أوحيت إلى محمد ﷺ ثابتة إلى يوم الدين، غير مبدلة بكلمات أخرى.

يقول تعالى:

---

من المنسوخ على خمس عشرة آية.. " ثم أكمل تعداد الآيات المنسوخة في الذكر الحكيم كله. دراسة وتحقيق موسى العليلي، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م. ص: ٧٦ إلى ١١٩.

* يقول ابن كثير في النسخ في تفسيره للآية ١٠٦ من سورة البقرة " قال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن ".

** والرأي للفقه الإسلامي الشائع.

﴿**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾ الأنعام ١١٥.

﴿**واتل ماأوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا**﴾ الكهف ٢٧.

إن آيات الذكر الحكيم ومعطياته الكلية تؤكد أن **النسخ، والإنساء، والعفو، والمحو، والإثبات لا تكون بين آيات الذكر الحكيم نفسها، وإنما بين الرسالات السماوية المتعاقبة، وعلى عدة مستويات. كما أنه لا يمكن للأحاديث المروية عن الرسول الكريم أن تبطل حكم آيات الذكر الحكيم، أو تلغيه.**

قلنا إن **أم الكتاب هي الآيات المحكمات،** التي نزلت مكتملة إلى إبراهيم عليه السلام، فأصبحت ملته ودينه القيم على الدين الإسلامي كله، ثم أعيد النزول بها **كما هي** إلى موسى، ثم إلى عيسى عليهما السلام، ثم إلى محمد ﷺ، خاتم النبيين والرسل. ولذلك فهي **واحدة، متطابقة في الرسالات السماوية الثلاث،** لم تتعرض للتعديل، أو للإنساء، أو للمحو، أو للعفو. أما ماتعرض **للتعديل، والإنساء، والمحو، والعفو** عبر الرسالات السماوية المتعاقبة، فهو **الشرائع، وموضوعها الأحكام التشريعية،** وذلك بما تناسب ودرجة التطور الفكري والحضاري للإنسانية على مرّ العصور.

لقد بدأت الرسالات السماوية بتضمين الأحكام التشريعية مع موسى، واستمرت مع تعديلها مع عيسى عليهما السلام، واكتملت الأحكام التشريعية في صورتها النهائية مع محمد ﷺ، خاتم النبيين والرسل.

وبما أن الإنسانية كانت قد بلغت في عهد محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي مرحلة من التطور الفكري والحضاري أكثر تقدما مما كانت عليه قبل عدة قرون تفصلها عن الرسالات السابقة، فإنه من المنطقي أن تكون **الأحكام التشريعية التي حملتها رسالة محمد ﷺ إلى الإنسانية أكثر مرونة وتطورا** من سابقاتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تكون تلك الأحكام

**صالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان على وجه العموم**، باعتبارها الوحي الأخير من الله للإنسانية. ولكن هذا لا يعني أن أحكام القرآن تلغي مثيلاتها في الرسالات السابقة – وخصوصا المذكورة منها فيه – وإنما تعدّل عليها، وتضيف إليها، وتنسي وتمحو بعضها، وتعفو عن بعضها، لتتناسب مع تطور الإنسان والإنسانية.

يقول تعالى:

**﴿مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ○ مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾** البقرة ١٠٥-١٠٦.

يدور موضوع الآيتين الكريمتين حول **الكافرين والمشركين من أهل الكتاب**، الذين يكرهون أن تتزل رسالة سماوية على غيرهم من الأمم **﴿..أن ينزل عليكم من خير من ربكم..﴾**، أو تعدل بعض أحكامهم، أو تنسى **﴿..مانسخ من آية أو ننسها..﴾**. ويقرر تعالى أن نسخه للآيات الكريمة عبر الرسالات المتتالية، وإنسائها، هو **إما بهدف تطوير الأحكام التشريعية** نحو الأفضل، لتتناسب مع تطور الإنسانية الفكري والحضاري **﴿..نأت بخير منها..﴾**، أو **بهدف تثبيت أسس المعرفة اليقينية**، التي أنزلت إلى الإنسانية من قبل، التي لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة **﴿..أو مثلها..﴾**.

## ١- النســـخ والإنساء:

### أ- النسخ:

يقول ابن فارس في **معجم مقاييس اللغة**: " النون والسين والخاء أصل واحد إلا أنه مختلف في قياسه، قال قوم: قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانه، وقال آخرون: **قياسه تحويل شيء إلى شيء**. قالوا: النسخ: **نسخ**

**الكتاب.. وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه**، وانتسخت الشمس الظل والشيب الشباب، وتناسخ الورثة: أن يموت ورثة بعد ورثة وأصل الإرث قائم لم يقسم..قال السجستاني: النسخ: أن تحول ما في الخلية من العسل والنحل في أخرى. قال: ومنه نسخ الكتاب ".

**والنسخ في القرآن الكريم يحمل المعنيين كلاهما:**

**المعنى الأول للنسخ:**

تحويل شيء إلى شيء، ومنه تحويل العسل والنحل في الخلية إلى أخرى، **ونسخ الكتاب**. والتحويل من مكان إلى آخر ونسخ الكتاب حرفا بحرف، يعني الاحتفاظ بالشيء كما هو في حال تحويله من مكان إلى آخر، **وإثبات الشكل والمضمون في نسخة الكتاب في حال نسخه.** أي أن النسخة يجب أن تكون **مثل** الأصل تماما، أي مطابقة له من حيث الشكل، والمضمون.

وينطبق هذا المعنى للنسخ، أي **التحويل مع إثبات الشكل والمضمون**، على **آيات الكتاب الحق/أم الكتاب**، أي على آيات الصراط المستقيم والإيمان بالغيب، حيث أنها دستور الكتاب، وأهم ماجاء فيه. وقد نسخت هذه الآيات شكلاً ومضموناً عبر الرسالات السماوية **كنسخ الكتاب**، ابتداء برسالة موسى، وانتهاء برسالة محمد عليهما السلام. ولذلك عرّف تعالى آيات أم الكتاب **بالآيات المحكمات**، أي محكمات الصياغة، المتطابقات، المتوافقات من حيث الشكل والمضمون في الرسالات السماوية جميعاً. وهذا يستدعي – كما جاء في الشرح اللغوي – أن تكون **النسخة مثل الأصل**، أي أنها ليست بأحسن منه، بل مطابقة له تماماً، لذلك يقول تعالى:

**﴿ما<u>ننسخ</u> من آية أو ننسها نأت بخير منها أو <u>مثلها</u>..﴾** *.

---

* ويتفق مع هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " **هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب**، من عمل بهن دخل الجنة، ومن كفر بهن دخل النار "، الفخر الرازي، الجزء ١٤، ص: ٣. وكلمة **النسخ** في الحديث المروي **تعني إبطال الحكم وإلغاءه.**

أما تعدد اللغات الإنسانية التي نزل بها الكتاب الحق/أم الكتاب، حيث نزل إلى موسى باللغة السريانية وإلى عيسى عليهما السلام باللغة الآرامية وإلى محمد ﷺ باللغة العربية، فيدلّ على اختلاف في هيئة الآيات الكريمة فقط، بعيداً عن شكلها ومضمونها. لقد عرّف القرآن الكريم هذا النوع من الاختلاف بـ (**الإبدال**)، في قوله تعالى:

**﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ○ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ○ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** النحل ١٠١- ١٠٣.

**فالإبدال** يمكن أن يكون مطلقاً، كما يمكن أن يكون في الهيئة فقط. يقول الشيخ أحمد رضا في معجمه: " بدّله: **غيّر هيئته والعين واحدة** " (٢٤). وهذا يعني أن هناك من الآيات الكريمة – التي نزّلها روح القدس من قبل على الأمم السابقة – مابدّل تعالى منها لسانها فقط، أي هيئتها التي كانت عليها، مع الاحتفاظ بها واحدة متطابقة، أي الاحتفاظ بشكلها ومضمونها على حالهما. إن المؤمن الحق يعلم أن تبديل لسان الكتاب الحق عبر الرسالات السماوية، من لسان أعجمي – وهو لسان الشخص الذي يتهمون محمدا ﷺ بأنه يتعلم منه – إلى لسان عربي مبين **﴿..لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾**، إن المؤمن الحق يعلم أن هذا التبديل لا يعني اختلافاً في صياغة الآيات الكريمة، التي كانت محكمة ومازالت محكمة، ولا في مضامينها ومعانيها، التي كانت محكمة أيضا ومازالت كذلك، بل هو **إبدال في الهيئة فقط**. لقد أعيد الوحي بآيات الكتاب الحق/أم الكتاب **لتثبيت** الإيمان في قلوب الذين آمنوا من أصحاب الكتب السماوية السابقة، فتكون بذلك هدىً وبشرى للمسلمين جميعاً.

وقد ورد المعنى الأول للنسخ في القرآن الكريم في قوله تعالى **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون﴾** الجاثية ٢٩. فعندما يُستنسخ عمل الإنسان، تتغير صورته التي يؤول إليها، على الرغم من بقائه

عين ما كان عليه شكلا ومضمونا. فلربما تصبح النسخة تصويرا إلهيا، أو لغة إلهية، أو أي احتمال آخر نجهله، أما عمل الإنسان فيبقى كما هو شكلا ومضمونا دون تغيير.

**المعنى الثاني للنسخ:**

كل شيء خلف شيئا فقد انتسخه، كما **تنتسخ الشمس الظل**، والشيب الشباب، وكما الحال في **تناسخ الورثة** وأصل الإرث قائم لم يقسّم، وكما الحال أيضا ومبدأ **تناسخ الأرواح** الذي يعتقد المؤمنون به " أن الأرواح تنتقل إلى الأجسام على التأبيد " [(٢٥)]. إن النسخ بهذا المعنى إنما يعني **نسخ الشكل دون المضمون** بفعل حركة الزمن، أي تغير شكل المنسوخ فقط دون مضمونه مع مرور الزمن. ولربما يترك تغير الشكل أثرا على المضمون، ولكن جوهره أو ماهيته تبقى على حالها أبدا.

فعندما تنتسخ الشمس الظل، يبقى المكان على حاله بكل موجوداته، وهو المضمون، والذي يُنتسخ هو الشكل فقط، أي درجة إضاءة المكان وحرارته مثلا، اللتين تعبران عن حركة الشمس، تبعا لحركة الزمن. وعندما ينتسخ الشيب الشباب، يظل موضوع النسخ هو هو، وهو شعر الإنسان، أما شكله فهو الذي يُنتسخ، تعبيرا عن حركة الزمن، التي أدت إلى فقدانه لونه. أي أن انتساخ الشيب لا يمكن أن يقع على عين الإنسان مثلا، أو على أذنه (وهذا يعني تغيرا في مضمون النسخ)، وإنما على شعره بذاته، الذي كان ملونا ثم أصبح أبيض، نتيجة لحركة الزمن. والحال تنطبق على معنى تناسخ الورثة، وتناسخ الأرواح، حيث يبقى مضمون النسخ قائما فيهما كليهما، وهو أصل الإرث في تناسخ الورثة، والروح الواحدة في تناسخ الأرواح، وما يُنتسخ بفعل حركة الزمن غير شكليهما، أي الورثة والأجساد.

وقد ورد هذا المعنى في الذكر الحكيم في قوله تعالى:

**﴿ومماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ○* ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ○ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾** الحج ٥٢-٥٤.

للوصول إلى معرفة دقيقة لمعنى النسخ في الآية الكريمة، علينا أن نستفتي معاجم اللغة للتعرف على معنى الكلمتين (تمّنى) و (أمنيّة).

يقول الأصفهاني في **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**: " المنى: التقدير. يقال منى لك الماني: قدر لك المقدر.. وقوله تعالى: **﴿..ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني"..﴾** معناه **إلا تلاوة مجردة عن المعرفة**، من حيث إن التلاوة بلا معرفة المعنى تجري عند صاحبها مجرى أمنية تمنيتها على التخمين.. وقوله **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته..﴾** أي في تلاوته ".

وعليه فإن الشيطان يستطيع أن يلقي بوساوسه في قلب كل من يتلو آيات الله تلاوة مجردة عن المعرفة والعلم، أي تلاوة **خالية من التدبر والفهم**، ولاينجو من ذلك حتى الأنبياء والرسل. فإذا تلى النبي أو الرسول آيات الله تلاوة مجردة عن المعرفة والعلم، فهذا يعني أن علمه بالآيات إنما يقتصر على شكلها، دون مضمونها. وفي هذه الحالة يستطيع الشيطان أن يلقي

---

* يقول ابن كثير في تفسير الآية " حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع **﴿أفرأيتم اللات والعزى ○ ومناة الثالثة الأخرى﴾** قال: فألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) قالوا: ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله هذه الآية **﴿وماأرسلنا من قبلك من نبي ولا رسول إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته..﴾**.. قال ابن عباس **﴿..في أمنيته..﴾** إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه.. قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله **﴿..تمنى..﴾** أي تلا وقرأ كتاب الله، **﴿..ألقى الشيطان في أمنيته..﴾** أي في تلاوته ". وأتفق مع الشيخ الغزالي، الذي رأى أنه من الإسفاف بمكان ذكر قصة الغرانيق في التفاسير القرآنية. راجع مقدمة الكتاب.

بوساوسه في تلاوة النبي أو الرسول ﴿.. **في أمنيته**..﴾. ولذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان، إنما يقع بالضرورة على ما أصاب الآيات نتيجة لما ألقى الشيطان أصلاً، وقد أصاب الشيطان شكل الآيات فقط دون مضمونها، طالما أن التلاوة كانت على سبيل التمني، أي تلاوة مجردة عن العلم والمعرفة. وعليه فإن **النسخ في هذه الآية إنما يقع على الشكل فقط، دون المضمون.**

أما الذين أوتوا العلم والمعرفة ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم**..﴾ أي الذين يقرؤون آيات الله فيحيطون بها شكلا ومضمونا، فإن الشيطان لا يستطيع أن يلقي في تلاوتهم، طالما أنهم لا يتمنّون بها.

وينطبق المعنى الثاني للنسخ، وهو " **كل شيء خلف شيئا فقد انتسخه** "، على **الأحكام التشريعية**، حيث يقع النسخ على شكل الأحكام فقط، دون مضمونها.

لقد حكمت مثلا رسالة موسى عليه السلام على الزاني بالرجم *، بينما حكمت رسالة محمد ﷺ على الزاني بالجلد (الآية ٢ من سورة النور) **، حيث **تغير شكل الحكم فقط**، وهو الجلد بديلا عن الرجم، بينما بقي مضمون الحكم كما هو، وهو: ضرورة معاقبة الزاني حتى لا يعاود – هو أو غيره – ارتكاب فعل الزنى مرة أخرى، باعتباره **منطلقا أساسيا**، وللحفاظ على الأسرة والأنساب تحقيقا لصالح الإنسان والإنسانية، باعتباره **هدفا نهائيا.**

وهذا ماينطبق أيضا على أحكام القتل في الرسالات السماوية المتتابعة، فقد حكمت رسالة موسى أن ﴿..**النفس بالنفس والعين بالعين والأنف**

---

* أنظر الحديث رقم (٣٤٣٦) في صحيح البخاري (المذكور في ص: ١١٦-١١٧)، الذي يؤكد وجود حكم الرجم في التوراة.

** جاء في **صحيح البخاري**، كتاب المحاربين، الحديث رقم (٦٤٢٨)، ما يلي: " حدثني إسحاق، حدثنا خالد، عن الشيباني: سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل رجم رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، **قلت قبل سورة النور أم بعد** ؟ قال: **لا أدري** "، أخرجه مسلم في الحدود. وبما أن حكم الرجم غير مذكور في القرآن الكريم، لذلك فمن المرجح أن الرسول الكريم ﷺ رجم قبل آية سورة النور، لا بعدها.

**بالأنف..﴾** المائدة ٤٥، بينما تعددت أحكام القتل والقتال في رسالة محمد ﷺ، ومنها حكم **القتل الخطأ**، وحكم ﴿**..الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى..﴾** البقرة ١٧٨، حيث تغير شكل الأحكام فقط، بينما بقي مضمونها واحدا في الشرعتين لم يتغير، وهو: ضرورة معاقبة القاتل لا محالة، حتى لا يعاود ارتكاب فعل القتل – هو (إن لم يُقتل) أو غيره – باعتباره **منطلقا أساسيا**، ومن أجل منع الظلم والجريمة إحقاقا للحق والعدل في المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان، باعتباره **هدفا نهائيا**.

كما ينطبق النسخ – بمعنى تعديل الأحكام – على **الفرائض الأربع**، كونها تندرج في باب الأحكام التشريعية. لقد فرضت الصلاة والزكاة والصوم والحج على المؤمنين في ظل الشرائع جميعا، بما فيها شرعتا موسى وعيسى عليهما السلام. ورغم اختلاف الهيئة التي تؤدى كل أمة من خلالها فرائضها، إلا أن مضامينها، ومعانيها، وأهدافها تبقى واحدة في الشرائع كلها *.

ووجب بالضرورة مع هذا المعنى للنسخ، وهو ما نطلق عليه بالتعبير المعاصر (**تعديل الأحكام**)، أن تكون الأحكام الجديدة خيرا من أحكام الشرائع السابقة، وإلا لما استوجب نسخها أصلا. لذلك يقول تعالى:

**﴿.. ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها..﴾**

ب- **الإنســـــاء:**

(الإنساء) هو مصدر الفعل (نسي)، وله " أصلان صحيحان، يدل أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك الشيء " [٢٦].

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

والإنساء في الذكر الحكيم يعني الأصلين كلاهما: فهو يدل على إلغاء الآيات شكلا ومضمونا من ذاكرة الإنسان الدينية، مع ترك آثارها في الوجود الموضوعي. وهو ما ينطبق عليه قوله تعالى:

**﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وماكان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾** غافر ٧٨.

لقد تجاوز الله عن ذكر الرسل الذين لم يشأ أن يقصّ علينا قصصهم، بكل ماجاؤوا به من تعاليم وأحكام، ولذلك فهي غير موجودة في ذاكرة محمد ﷺ وأمته، رغم وجودها في الوجود الموضوعي. ولربما كان الصابئة هم المعنيين هنا، حيث ذكروا في سياق إيجابي في الذكر الحكيم (أنظر الآية ٦٩ من سورة المائدة والآية ٦٢ من سورة البقرة).

وفي الإنساء، يكون الحكم التشريعي الجديد دائما أحسن من الحكم السابق، وإلا لما وجب الإنساء أصلا، لذلك يخبرنا تعالى بأنه عندما ينسي آية، فإنما يكون ذلك بهدف استحداث خير منها:

**﴿.. مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها..﴾.**

٢- **المحو والإثبات:**

(محى) " أصل صحيح يدل على الذهاب بالشيء.. وامحى الشيء: ذهب أثره " (٢٧).

وعليه، فإن محو الآيات يعني ذهاب أثرها، أي محوها شكلا ومضمونا من الذاكرة الدينية للإنسان، ومن الوجود الموضوعي نفسه على حد سواء.

يقول تعالى:

**﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق ○ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وماكان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب ○ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾** الرعد ٣٧-٣٩.

**يمحو** الله مايشاء من الآيات الكريمة التي أنزلت إلى الرسل من قبل محمد ﷺ، التي انتهى زمانها، فلم تعد صالحة لأن تنتفع الإنسانية بها (هذه الآيات يستحيل علينا التعرف عليها لأنها محيت من ذاكرة الإنسان ومن الوجود الموضوعي، فلم يبق الله لها أثرا)، كما **يثبت** مايشاء من الآيات الكريمة. ويكون المحو **خارج دائرة آيات أم الكتاب** - التي تبقى عند الله واحدة لا تتغير - أي داخل دائرة آيات الأحكام فقط.

و" الثبات هو ضد الزوال (المحو).. والإثبات والتثبيت تارة يقال بالفعل، فيقال لما **يخرج من العدم إلى الوجود**، نحو: **أثبت الله كذا..**" (٢٨). والإثبات بهذا المعنى هو استحداث شيء لم يكن موجودا أصلا. وهذا ما ينطبق على الأحكام التي وردت في شرعة القرآن الكريم، ولم ترد في الشرائع من قبله، كآيات **حدود الله**، حيث لم ترد تفاصيلها في الرسالات السابقة، على الرغم من وجود معانيها ومضامينها الفكرية في الكتاب الحق/أم الكتاب، موضوع النبوات جميعا *.

وعليه، فإن المحو والإثبات كانا عبر الرسالات السماوية المتتالية، وليس في رسالة محمد ﷺ بذاتها، وذلك كله خارج دائرة الكتاب الحق/أم الكتاب.

---

* تقرأ شرحا لمفهوم حدود الله في الفصل الثاني.

٣- **العفـــو:**

للفعل عفو " أصلان يدل الأول على ترك الشيء، والثـاني علـى طلبـه.. قال الخليل: وكل من استحق عقوبة، فتركته، فقد عفوت عنه " (٢٩).

يقول تعالى:

**﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتـاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾** المائدة ١٥.

والعفو في الآيـة الكريمـة يحمـل المعنـى الأول، وهـو تـرك الشـيء إثـر عقوبة، أي إعفاء الناس من الالتزام ببعض الأحكام التي فرضهـا اللـه عليهم في الشرائع السابقة عقوبة لهم. وهو حال بعض الأحكـام التـي عُفـي اليهـود من الالتزام بها، بعد أن فرضوها على أنفسـهم، ففرضهـا اللـه عليهـم عقوبـة لهم، وذلك في مثل قوله تعالى **﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا مـاحملت ظهورهمـا أو الحوايـا أو مااختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾** الأنعام ١٤٦. لقد عفى الله عن اليهود من الالتزام بهذا الحكم من خـلال شـرعة القـرآن الكريـم، التـي لا تطلب من المؤمنين الالتزام به. أي أن **اليهود ليسوا ملزمين بهـذا الحكـم إذا ما اتبعوا شرعة القرآن الكريم، التي أنزلها الله للناس جميعا.**

لقد اكتملت شرعة الله في صيغتها النهائية مع نزول القرآن الكريم، ولـم يعد هناك مجال لنسـخ الأحكـام التشـريعية، أو إنسـائها، أو محوهـا، أو العفـو عنها بعد نزوله، حيث اعتبر **الشرعة الكاملة لديـن اللـه، الصالحـة للتطبيق من قبل الإنسانية برمتها في كل زمان وفي كل مكان علـى وجـه العمـوم** *.

---

* **القول بالنسخ** – بمعنى إلغاء بعض أحكام القرآن الكريـم وإبطالهـا – يجعـل مـن السـؤال التـالي الـذي يثيره البعض سؤالا مشروعا، وهو: إذا كان الله ألغـى بعض الأحكـام الأولـى، وأنـزل أحكامـا جديـدة تواكب التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع المسلم في غضون عـدة سـنوات،

ولذلك فإن **رؤية الفقه الإسلامي للنسخ** بكونه ما نُسخ تلاوته وحكمه من الآيات الكريمة (أي سقوط عدد من الآيات الكريمة من الذكر الحكيم تلاوة وحكما)، وما نسخ تلاوته دون حكمه (أي سقوط عدد من الآيات الكريمة من الذكر الحكيم تلاوةً مع بقاء حكمها *)، وما نُسخ حكمه دون تلاوته (كما هو الحال وأحكام الفاحشة مثلا، حيث تبطل الآية ٢ من سورة النور حكم الآيتين ١٥ و ١٦ من سورة النساء **، وكما تبطل آية السيف حكم مائة وعشرين آية من آيات الدعوة إلى الله).. إن هذه **الرؤية** اجتراء على كتاب الله، يجب وضع حد له، بالإضافة إلى أنها تنافي العقل، والمنطق، وكل ماجاء به الذكر الحكيم.

أما الخطأ الذي كانت له آثار مخيفة على الفكر الإسلامي، فهو تجويزه لنسخ الأحاديث المروية عن الرسول الكريم لآيات القرآن الكريم، حيث **تبطل الأحاديث المروية حكم الآيات القرآنية، وتلغيه**، كما هو الحال والحديث " لا وصية لوارث " الذي يعتبره الفقه الإسلامي ناسخا للآية ١٨٠ من سورة البقرة ***، وكما هو الحال والحديث المروي في الصحيحين، الذي ينسخ الآية ٢٤ من سورة النساء في زواج المتعة ****.

---

فكيف تصلح تلك الأحكام للتطبيق في زماننا المعاصر، أي بعد مرور أربعة عشر قرنا من الزمان؟!!..

* راجع الهامش الأول من البحث، ص: ٨٢ .

** أنظر **تفسير ابن كثير** للآيات المذكورة.

*** أنظر تفسير ابن كثير للآية المذكورة، وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني، بحث حدود الله.

**** يقول **ابن كثير في تفسيره** للآية " وقال مجاهد: نزلت في **نكاح المتعة**، ولكن الجمهور على خلاف ذلك. **والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم البقر الأهلية يوم خيبر** ".

لقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن تدوين الأحاديث على لسانه على نحو ما روى علماء الحديث أنفسهم، كما نهى أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن تدوينها، ولم تدون من قبل الأئمة المجتهدين إلا في القرون اللاحقة. جاء في **المختصر الوجيز في علوم الحديث** مايلي: " عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: { لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه } ، **صحيح مسلم** بشرح النووي ص ١٢٩ جـ ١٨، **وجامع بيان العلم وفضله**، ص ٦٣ جـ ١. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: { ما هذا الذي تكتبون؟ }. قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: { كتاب غير كتاب الله؟ أتدرون ماضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى } ، **تقييد العلم**، ص ٣٤ . "

**ونؤكد هنا أن كل حرف وكلمة ومعنى وردت في الذكر الحكيم، هي كلمات الله سارية المفعول تلاوة وحكما منذ أن أوحي بها إلى محمد ﷺ، وحتى نهاية العالم بمن فيه *.**

---

الخطيب، محمد عجاج ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ٦٦-٦٧. وجاء في الكتاب نفسه أيضا مايلي" جمع أبو بكر رضي الله عنه خمس مئة حديث عن رسول الله ﷺ، فبات ليلة يتقلب كثيرا، فلما أصبح قال للسيدة عائشة رضي الله عنها: { أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك } قالت السيدة عائشة: { فجئته بها، فدعا بنار فحرقها }، **تذكرة الحفاظ**، ص ٥ جـ ١.

وعن عروة بن الزبير أن عمر رضي الله أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: { إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا }، **جامع بيان العلم وفضله**، ص ٦٤ جـ ١، وانظر **تقييد العلم** ص ٥٠ ، **وطبقات ابن سعد** ص ٢٠٦ قسم ١ جـ ٣. وقال عمر رضي الله عنه: " أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم "، **جامع بيان العلم وفضله**، ص ٧٢ جـ ١. " ص ٧٠-٧١ .

**وصحيح البخاري** هو الكتاب الذي يعتمده أهل السنة مرجعاً أولاً وثقةً، وقد وضع بعد وفاة الرسول الكريم بمائتي عام تقريباً. ولد البخاري عام ١٩٤ هـ ، وتوفي عام ٢٥٦ هـ .

* أذكر هنا ماقاله الجاحظ فيما أخبر عن واصل بن عطاء وعلاقته بأصول الفقه " كان واصل هنا ينكر فكرة كانت تعتلج في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وهي **جواز النسخ والبداء على الله**، وهي فكرة يقال أن **الكيسانية قد أدخلتها في حربها المريرة مع الأمويين**، وملخصها أن الله يبدو له شيء ما، ثم يبدو له شيء آخر، **فيغير الأول وينسخه**. وجعلت الكيسانية هذا في الأخبار الماضية والمستقبلة، ولقد فعلت الكيسانية هذا **تحت تأثير يهودي**، ولم تكن هذه هي عقيدة المختار التي نسبت إليه الكيسانية فقد كان المختار رجلا من محبي أهل البيت، وإنما انتشرت هذه العقيدة وغيرها من **عقائد يهودية** بين أتباعه وبعد وفاته " النشار، علي سامي، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨١، ص: ٣٩٦. ونقول: على الرغم من أن الفقهاء أنكروا **فكرة البداء على الله** نكرانا تاما، إلا أنهم لم ينكروا **فكرة النسخ** كما رأينا.

# مصادر ومراجع الفصل الأول


(١) ابن زكريا، أبو الحسن أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، إيران، جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ .

(٢) الأصفهاني، الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .

(٣) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٤) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(٥) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**. ومما جاء في شرح الكلمة كذلك "ويقولون: قوم جمع امرىء، ولا يكون ذلك إلا للرجال، قال تعالى: ﴿..لا يسخر قوم من قوم..﴾ ثم قال ﴿..ولا نساء من نساء..﴾ أي أن كلمة (قوْم) لا تكون إلا للرجال دون النساء ".

(٦) أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.

(٧) الهمداني، المنتجب حسين بن أبي العز، **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، تحقيق الدكتور محمد حسن النمر، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ١٤١١هـ، ١٩٩١م .

(٨) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م.

(٩) الغزالي، محمد، " الغباء في فهم قضايا المرأة.. سبب هزائم إسلامية كثيرة "، **جريدة الشرق القطرية**، العدد رقم (٢٩٤٠)، ١٩٩٦/٤/٢، ص: ١٥.

(١٠) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١١) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، في تفسير الآية السابعة من آل عمران .

(١٢) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١٣) البخاري، الإمام عبدالله محمد بن اسماعيل، **صحيح البخاري**، الجزء الرابع، كتاب فضائل القرآن، ضبط الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير واليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

(١٤) الغلاييني، مصطفى، **جامع الدروس العربية**، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١ هـ، ١٩٩١م، الجزء الأول، ص: ١٨٢.

(١٥) مصدر سابق، **معجم متن اللغة**.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) مصدر سابق، **تفسير القرآن العظيم**، في تفسير الآية السابعة من آل عمران .

(١٨) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١٩) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(٢٠) مصدر سابق، **الفريد في إعراب القرآن المجيد**.

(٢١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٢٢) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٢٣) مرجع سابق، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص: ٩٩.

(٢٤) مصدر سابق، **معجم متن اللغة**.

(٢٥) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، في شرح الفعل (نسخ).

(٢٦) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٢٧) المصدر السابق.

(٢٨) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(٢٩) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

# الفصل الثاني

## الأمم والشرائع والحساب

ألخص ماجاء في الفصل الأول بالقول: **الكتاب الحق/أم الكتاب** هو الكتاب الأصل، المحكم، الذي نزل إلى الأنبياء والرسل جميعا كتاباً واحداً متطابقاً، وموضوعه قواعد الصراط المستقيم مع الإيمان بالغيب. وهو دستور دين الله الواحد، القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام، الذي تستقي منه الشرائع جميعا تفاصيلها وأحكامها، ولا تخرج عنه، حتى وكأنه يحتويها احتواء. ولذلك فهو الخيط الجامع فيما بين الرسل والنبيين، وميثاقهم، وموضوع نبوتهم أجمعين.

ومن أجل توضيح علاقة الشرائع بالكتاب الحق بشكل عام، وعلاقة القرآن (شرعة محمد ﷺ) بأم الكتاب بشكل خاص، فإنه لا بد من توضيح كيفية نشوء الأمم، حسب الرؤية القرآنية.

### نشوء الأمم:

يقول تعالى:

**﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** البقرة ٢١٣.

**﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ماآتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** المائدة ٤٨.

(الأمّة) إسم مشتق من الفعل (أَمّ) " وله أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل والمرجع والجماعة والدين * .. **والأمة الدين**.. وكذلك **كل من كان على دين حق مخالف لسائر الأديان فهو أمة**، وكل قوم نسبوا إلى شيء وأضيفوا إليه فهم أمة.. وقيل **﴿إن إبراهيم كان أمة..﴾** أي إماما يهتدى به، وهو سبب الاجتماع " [(١)].

## ١- أمة الفطرة:

أ- كان الناس جميعا أمة واحدة على الفطرة قبل بعثة النبيين **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين..﴾**، أي أنه قبل بعثة النبيين لم يكن يوجد على الأرض سوى أمة واحدة، توجهها **الفطرة الإنسانية بالضرورة**، وتمنحها مثلها، وقيمها، ومبادئها العامة، طالما أن الرسالات السماوية لم تكن قد بدأت توحى إلى الإنسانية بعد. والفطرة هي الخلقة، أي طبيعة تكوين الإنسان الخلقي **.

**والفطرة الإنسانية فطرة خيرة مؤمنة في جوهرها**، لسببين اثنين:

أولا: **لأنها تمتلك المعرفة المسبقة بالله وباليوم الآخر (التوحيد)**. لذلك يقول تعالى:

---

* أعتذر على تكرار شرح الفعل (أمّ)، ولكن استكمال شرحه فيما يخص كلمة (الأمة) أمر ضروري.

** جاء في معجم مقاييس اللغة " الفاء والطاء والراء (فطر) أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه.. والفطرة: الخلقة. " .

**﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾** الأعراف ١٧٢.

ثانيا: لأنها تمتلك **المعرفة الفطرية المسبقة بدين الله القيم على الدين كله** كذلك. يقول تعالى:

**﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** الروم ٣٠ *.

وبما أن المعرفة المسبقة بالله وبدينه القيم تعني قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، فإن هذا يستدعي أن يمتلك الإنسان تلك **الحاسة المعرفية الفطرية، التي يميز بها بين الخير والشر، وبين الحق والباطل.** ويستطيع الإنسان تحصيل المعرفة بحاسته تلك، تماما كما يستطيع تحصيل المعارف من العالم الموضوعي، بواسطة السمع، والأبصار. وتسمى تلك الحاسة في القرآن الكريم **بالفؤاد**، وهي جزء من نفخة الروح الإلهية – إلى جانب السمع والأبصار – التي كرم الله الإنسان بها، وميزه عن المخلوقات الأخرى.

يقول تعالى:

---

* تغلب الفطرة الإنسانية الخيرة الصالحة ميل الإنسان إلى فعل الشر، على الرغم من معاناة الإنسانية من العنف والحروب والفاحشة على مدى عمرها المديد. والدليل على ذلك عمار الكون وانتشار الرخاء وتقدم الإنسانية الفكري، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، والصحي، إلخ.. في كل مكان. ولو أن ميل الإنسان إلى فعل الشر هو الغالب، لدمّر الإنسان نفسه والأرض التي يعيش عليها منذ زمن بعيد.

**﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** النحل ٧٨.

**﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾** المؤمنون ٧٨.

**﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون﴾** السجدة ٩.

اشتقت كلمة (الفؤاد) من الفعل (فأد) " وهو أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة.. والفؤاد سمي بذلك لحرارته " [٢] و " الفؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي: **التوقد.. وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له..** قال البرهان البقاعي: وخص بالذكر لأنه **ألطف مافي البدن**، **وأشده تألما بأدنى شيء من الأذى** " [٣].

يقول تعالى:

**﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾** القصص ١٠. كادت أم موسى أن تفضح نفسها وتبدي ما بها، إذ فقدت قدرتها على التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، بعدما ألقت بوليدها في اليم. وهو عمل يبدو في **الظاهر شرا**، إلا أنه في حقيقته **يحمل الخير الكثير**، كونه يحفظ حياة النبي الرسول القادم. ولهذا ربط الله على قلب أم موسى لتكتم سرها، وتكون من المؤمنين.

**﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾** الفرقان ٣٢. نزل القرآن الكريم بالتدرج * على فؤاد نبي الله ورسوله ﷺ، وذلك **ليثبت الله فيه الحق والخير** طيلة سنوات جهاده عليه السلام من أجل إبلاغ الرسالة، ويبعد عنه الشك، والريبة، والباطل.

**﴿وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾** هود ١٢٠. يوحي تعالى من أنباء الرسل إلى رسوله الكريم ﷺ ، **تثبيتا للحق والخير في فؤاده**، وإبعادا للشك والريبة، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

**﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾** ابراهيم ٣٧. يدعو ابراهيم عليه السلام ربه أن يجعل **الفطرة الخيرة المؤمنة** لبعض الناس تهوي إلى زيارة بيت الله المحرم، إنقاذا لمن أسكن عنده من ذريته من الهلاك.

**﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى ○ ما كذب الفؤاد ما رأى ○ أفتمارونه على ما يرى ○ ولقد رآه نزلة أخرى ○ عند سدرة المنتهى﴾** النجم ١٠-١٤. عندما صدّق فؤاد رسول الله ﷺ ما رأى من أمر جبريل عليه السلام، إنما فعل ذلك **بفطرته الخيرة، القادرة على التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل.**

---

* وهو معنى الفعل رتل، وهو " اتساق الشيء وانتظامه على استقامة "، مفردات ألفاظ القرآن الكريم.

وعلى الرغم من أن الإنسان فطر على معرفة اللـه، وعلـى معرفـة دينـه القيم على الدين كله، إلا أن هنـاك مـن النـاس مـن **يخـالفون مـا ترضـاه لهـم فطرتـهم الخيرة المؤمنة، ويستغنون عن العمل بما ترشدهم إلى فعله.**

يقول تعالى:

**﴿ونقلب أفئدتـهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيـانهم يعمهون﴾** الأنعام ١١٠.

**﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا مـا هـم مقترفون﴾** الأنعام ١١٣.

**﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيـه وجعلنـا لهـم سـمعا وأبصـارا وأفئـدة فمـا أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهـم مـن شـيء إذ كـانوا يجحـدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾** الأحقاف ٢٦.

إن معرفة الإنسان المسبقة بالله وبدينه القيم، تعنـي أنـه يمتلك **المعرفـة المسبقة بقواعد الصراط المستقيم**، باعتبارها موضـوع ديـن اللـه القيـم علـى الدين كله، لذلك يقول تعالى:

**﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم ○ قل هـو الـذي أنشـأكم وجعـل لكـم السـمع والأبصـار والأفئـدة قليـلا ماتشكرون﴾** الملك ٢٢-٢٣.

كما تقول الآيات الكريمة بعد شرح قواعد الصراط المستقيم في سـورة الإسراء:

﴿**وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ○ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾ الإسراء ٣٥-٣٦.

إن قوله تعالى ﴿..**أنشأكم وجعل لكم..**﴾ تعني أن فؤاد الإنسان – إلى جانب سمعه وبصره – جعله تعالى منذ النشأة الأولى **مسؤولاً عن هدايته إلى الالتزام بقواعد الصراط المستقيم**، ومحاسبته على مدى التزامه بها. وتؤكد على هذا الحقيقة الموضوعية في العالم، حيث يؤمن أغلب سكان الأرض بالله، وبضرورة الالتزام بقواعد الصراط المستقيم **بالفطرة**، ويعتبرون تلك القواعد المبادىء الأخلاقية والقيم العليا للإنسانية، التي لا تخضع لتغير الأزمان والأمكنة.

ويطلق على حاسة الفؤاد الخلقية المعرفية تلك، حسب التعبير المعاصر للكلمة، اسم **الضمير**. " ويعني لغة **السر داخل الخاطر**، وهو موجود في الإنسان **بالقوة**، على معنى الاستعداد لمزاولة سلطاتها كلما كبر الطفل وتقدم في سني حياته. فالإنسان هو الكائن الوحيد من بين الكائنات المخلوقة الذي زوّد – بجانب الغرائز الذي يشاركه فيها غيره من الحيوانات – بتلك الحاسة الباطنية الفطرية، التي **تحكم على تصرفاته بالخيرية أو الشرية**، بل لا تقف عند هذا الحد، وإنما تتجاوزه إلى **حمله على فعل الخيرات، وتجنب الشرور والآثام**. فإن ترك الأولى وفعل الثانية، انبعث من داخله صوتها يؤنبه، ويحمل عليه بالملامة والعتاب. وإن فعل الأولى وترك الثانية، أشعرته بالطمأنينة والراحة النفسية.

ووظيفة الحاسة الخلقية إدراك خيرية الأفعال وشريتها، وإصدار أحكام لتقويم هذه الأفعال، وهي تشبه إلى حد كبير حاسة الجمال أو قوة التفكير، من حيث أنها **متأصلة في طبائع البشر، ولكنها تضعف بالإهمال، وتقوى بالمران. فالضمير في ذلك – شأنه شأن البدن والعقل – يقوى بالتربية، ويضعف بالإهمال**. وتتمثل تقويته في صورة اتباع أوامره والخضوع لها،

وباستخدام الإرادة الخيرة، واتباع أوامر الدين الصحيح. **أما ضعف الضمير فيتمثل في صورة عصيانه والتمرد عليه**، وقد يشعر المرء في أول الأمر عندما يعصي ضميره بنوع من التأنيب، والإحساس بالذنب، ولكن ذلك يقلّ كلما تكرر منه ذلك، حتى يصل إلى درجة لا يحس معها أي لون من ألوان التأنيب، أو المؤاخذة على الذنب، وهذا يعني أن ضميره قد فقد قيمته. **وعندما يخفت صوت الضمير، يرتفع صوت الشهوات والغرائز.**

إن هذا الصوت الداخلي هو صمام الأمن، الذي يقي الإنسان الوقوع في الآثام والمهالك، ويظهر دائما في كل وقت. ومراقبته لجميع تصرفات الإنسان أعم، **وأشمل من المؤثرات الأخرى، كالقانون الوضعي، والعرف، والعادة**، لأنه مصاحب للإنسان، غير مفارق له، في غيبة القانون الوضعي، والعرف، والعادة. إن هذه القوة توجد في الإنسان منذ نعومة أظفاره، ولكن بدرجة أقل من وجودها في الإنسان البالغ.. على أن هذا **الشعور ينمو مع نمو الطفل**، فكلما تقدم نحو كماله الإنساني، كلما صاحب ذلك نمو هذه القوة، حتى تبلغ درجة معينة، تكوّن مع العقل وحرية الإرادة **أركان المسؤولية الخلقية** " *.

وقصة قتل قابيل لأخيه هابيل المذكورة في الكتاب خير مثال على ما قلناه. لقد عرف هابيل أن القتل فعل قبيح، وشر يعاقبه الله على ارتكابه، فامتنع عن قتل أخيه، رغم أنه لم تكن وجدت وقتذاك رسالة سماوية تنهى عن القتل (وهو أحد قواعد الصراط المستقيم)، وإنما عرف هابيل ذلك بوحي من الوازع الديني الأخلاقي الفطري لديه ﴿**لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ماأنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين**﴾ المائدة ٢٨. كما عرف قابيل – ولكن متأخرا وبمساعدة حاستي السمع والبصر – أن قتله لأخيه كان فعلا قبيحا، وإثما يعاقبه الله عليه، فندم على مافعل إذ رأى بعينه كراهة فعل

---

* اقتبست هذه الأفكار من كتاب دراسات **في الأخلاق**، للدكتور محمد عبد الستار نصار، جامعة الأزهر، جامعة قطر، مكتبه لطباعة الأوفست، ١٩٨١، ص: ١٨٥-٢٠٣.

القتل، الذي تركه فاقدا لإنسانيته، وعاجزا أن يكون حتى كالغراب **﴿فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾** المائدة ٣١.

وتلعب حاسة الفؤاد الفطرية المعرفية الخلقية تلك دور الإيمان بالغيب نفسه في المجتمعات التي تعرضت فيها قيمها الثقافية والدينية السائدة إلى التشوية، كما هو حال بعض المجتمعات الإنسانية في عصرنا الراهن، التي تنكر في مجموعها وجود الله ويوم الحساب *. فبما أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وبما أنه ليس في وسع الإنسان العادي أن يتصدى لتغيير قيم ثقافية ودينية سائدة في مجتمع بأكمله - وهي التي صاغت قيمه ومبادئه ابتداء قبل أن يكون قادرا على الاختيار الحر - لذلك فإن المؤمن لا يستطيع الخروج من تلك المعضلة إلاّ بالاحتكام إلى فؤاده، الذي **يعكس إيمانه الفطري بالغيب، وبدين الله القيم على الدين كله**، حتى لو لم يدرك الإنسان نفسه ذلك، ولم يصرّح عنه بالتالي علنا.

ب- ومع أن الفؤاد مسؤول بالفطرة عن التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، أي عن الالتزام بقواعد الصراط المستقيم، وعن محاسبة الإنسان على مدى التزامه بها، إلاّ أن **الفؤاد ليس فاعلا قويا في كل الأحوال.** فعندما يخبو صوته ويضعف عند الإنسان، نتيجة للإهمال، وضعف المران، والتدريب، ترتفع أصوات أخرى من باطنه، تسوّل له فعل الشرور والآثام، وتبررها باعتبارها أفعالا مشروعة. وهذا ما حصل مع قابيل إذ سوّلت له نفسه فعل القتل، انتقاماً لنفسه، حيث لم يتقبل الله قربانه، وتقبل قربان أخيه **﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾** المائدة ٢٧ . عندما خبا صوت الفؤاد وضعف عند قابيل نتيجة للإهمال وضعف المران، أي

---

* وهو حال الدول الشيوعية سابقا على سبيل المثال.

نتيجة **لعدم وقاية** نفسه من فعل الذنوب والسيئات (معنى الفعل وقى) *، ارتفع إذ ذاك صوت نفسه، التي سوّلت له قتل أخيه، فأصبح من الخاسرين ﴿**فطوّعت** ** **له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾ المائدة ٣٠ .

ولهذا فإن أفئدة الناس ستُعذب في اليوم الآخر، إن هي لم تحضّهم على اجتناب الشرور والآثام.

يقول تعالى:

﴿**ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ○ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء**﴾ ابراهيم ٤٢-٤٣.

﴿**وماأدراك ماالحطمة ○ نار الله الموقدة ○ التي تطلع على الأفئدة**﴾ الهمزة ٥-٧.

وهكذا ثبت لنا من خلال التجربة أن **الفطرة الإنسانية الخيرة لا تستطيع منفردة أن تمنح الإنسانية مثلها، وقيمها، ومبادئها العامة**، وأن الإنسانية تحتاج إلى من يضع الحدود الواضحة الصريحة لها بين الخير والشر، وبين الحق والباطل. وبذلك بدأ تعالى بالوحي بقواعد الصراط المستقيم بالتدرج مع الأنبياء والرسل.

---

* يأتي شرح معنى التقوى في الفصل الثالث، بحث العمل الصالح وتقوى الله.

** جاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم " طوّعت له نفسه، نحو: أسمحت له قرينته، وانقادت له، وسولت ".

١- **الأمم والرسل:**

أ- وبما أن الناس اختلفوا عندما كانوا أمة واحدة شرعتها الفطرة، لذلك بعث الله **النبيين محددين لأسس المعرفة اليقينية الأخلاقية للإنسانية في كل زمان ومكان**، مبشرين من يلتزم بالثواب، ومنذرين من لا يلتزم بالعقاب، وذلك كله من خلال الكتاب الحق/أم الكتاب الذي أنزل إليهم جميعاً كتاباً واحداً ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه..**﴾. نلاحظ ذكر النبيين في الآية الكريمة، وليس الرسل.

ورغم أنه كتاب واحد، حق، نزل إلى الأنبياء جميعاً، إلا أن الآيات المبيّنة المفصّلة له لم تكن واحدة في الرسالات المتتابعة، لذلك اختلف الذين أوتوا الكتاب فيما بينهم كذلك ﴿**..وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات..**﴾. أي أن **خلاف الذين أوتوا الكتاب** كان بعد نزول الآيات المبيّنة المفصّلة للكتاب الحق/أم الكتاب، أي بعد نزول آيات الأحكام، موضوع الشرائع.

يقول تعالى:

﴿**إن الدين عند الله الإسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾ آل عمران ١٩. العلم هنا هو علم الشرائع.

ومن الجدير بالذكر أن الذكر الحكيم لم يذكر وجود خلاف بين المؤمنين أنفسهم في عهد ابراهيم عليه السلام، وفي عهد الأنبياء والرسل من قبله، حيث لم تكن تفاصيل الشرائع قد بدأت توحى إلى الإنسانية بعد. وإنما تركز الخلاف بين المؤمنين وغير المؤمنين. ذلك أن الكتاب الحق/أم الكتاب لايمكن أن يكون مصدر خلاف بين الأمم، كونه واحداً في النبوات والرسالات كلها، كما أن ضرورة الالتزام به فطرة أخلاقية لدى الناس جميعاً. لقد بدأ الخلاف بين المؤمنين أنفسهم بالظهور بعد نزول آيات

الأحكام، المبيّنة، المفصّلة للكتاب الحق/أم الكتاب، موضوع الشرائع، وذلك ابتداء برسالة موسى عليه السلام، وانتهاء برسالة محمد ﷺ.

ب- وانطلاقا من اختلاف المؤمنين فيما بينهم نتيجة لتعدد الشرائع، **ظهر الاختلاف بين الأمم**، كل أمة تعرف بالشرعة التي تتخذها أسلوبا في الحياة ﴿**..لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة..**﴾. ولا يقتصر هذا الاختلاف على الشرائع السماوية، بل يتعداه إلى الشرائع التي يمكن أن يكون الإنسان قد وضعها بنفسه، حيث يقول تعالى ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ○ وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ الزخرف ٢٢-٢٣.

وعليه، فإن **أمة موسى عليه السلام** هي مجموع الناس الذين ولدوا على مبادىء وقيم شرعة التوراة في كل زمان ومكان، بالإضافة إلى من دخلها بناء على اختيار حر. **وأمة عيسى عليه السلام** هي مجموع الناس الذين ولدوا على مبادىء وقيم شرعة الإنجيل في كل زمان ومكان، بالإضافة إلى من دخلها بناء على اختيار حر. وهكذا الأمر بالنسبة **لأمة محمد** ﷺ، فهي كل من ولد على مبادىء وقيم شرعة القرآن الكريم في كل زمان ومكان، بالإضافة إلى من دخلها بناء على اختيار حر.

يقول تعالى عن أمة عيسى عليه السلام:

﴿**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ○ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾ الأنبياء ٩١-٩٢.

وعن أمة محمد ﷺ:

﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول**

**ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾** البقرة ١٤٣.

ويقول تعالى أيضا:

**﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾** الرعد ٣٠.

والأمة هي مجموع الناس الذين **ولدوا** على شرعة بعينها، أي أنهم **ليسوا بالضرورة المؤمنين** بها باعتبارها شرعة سماوية، لأن الإنسان **يرث شرعته إرثا** عن أبويه، وأسرته، ومجتمعه، ولا يعتنقها بنفسه بناء على اختيار حر. وهو **قانون اجتماعي عام**، لا تنقصه بعض الحالات الاستثنائية. لذلك هناك من الناس من يُحتسب على أمة بعينها من الأمم، بالرغم من كونه لا يؤمن بفكرها، ومنهاجها في الحياة. يقول تعالى: **﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾** النمل ٨٣.

ت- وتتفرع **الأمة الأصل** بعد ذلك إلى **أمم فرعية**، كل أمة تعرف بنوعية **عملها** الذي تمارسه، خصوصا من حيث **الصلاح والفساد**.

يقول الأصفهاني في **مفردات ألفاظ القرآن الكريم** ".. وقوله تعالى **﴿ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم..﴾** أي: **كل نوع منها على طريقة** قد سخرها الله عليها بالطبع "، أي على طريقة فطرية في السلوك والحياة.

يقول تعالى:

**﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾** الأعراف ١٥٩.

تعني كلمة (قوم) " جماعة ناس " *يجمعهم نهج فكري بعينه، كما في قوله تعالى **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ومـاأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾** البقرة ١٦٤ **.

ولا تعني كلمة (قوم) تخصيص تلك الفئة من الناس في زمان بعينه، ومكان بعينه، إلا عندما توجد **قرينة تدل** على ذلك، وهي في الآية الكريمة اقترانها بموسى عليه السلام. أي أن من قوم موسى عليه السلام الذين عاصروه، مازالت هناك أمة منهم يهدون بالحق، وبه يعدلون. وهذا لا يعني أن كل أمة موسى عليه السلام كذلك.

وعن أمة موسى أيضا **﴿وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾** الأعراف ١٦٨. يتضح من خلال الآية الكريمة الربط بين مفهوم الأمة الفرع، والصلاح أو الفساد في العمل.

**﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ○ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾** آل عمران ١١٣-١١٤.

من أهل الكتاب أمة قائمة على دينها، تؤمن بالله واليوم الآخر، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتسارع في الخيرات، وهذا لا يعني أن أهل الكتاب كلهم كذلك.

**﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم**

---

* كما جاء في معجم مقاييس اللغة.

** أنظر أيضا الآيات ١١٨ و ٢٣٠ من سورة البقرة، و ٥٠ و ٥١ من سورة المائدة، و ٣ و ٤ من سورة الرعد، وغيرها.

**الفاسقون﴾** آل عمران ١١٠. إن خير الأمم المؤمنة بالله واليوم الآخر هي الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ومنها أمة* من أمة محمد ﷺ.

**﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾** آل عمران ١٠٤.

**﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾** القصص ٢٣.

**﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾** الأنعام ١٠٨.

**﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾** النحل ٦٣.

- وعليه، فإن **الشرعة التي تتبعها مجموعة من الناس من جهة، ونوعية العمل الذي تمارسه، خصوصا من حيث الصلاح والفساد من جهة أخرى، هما العاملان الأساسيان في تحديد هوية الأمة.** وبتعبير آخر: إن الأمة هي مبادىء، وقيم، وثقافة، ونهج، وسلوك. أما القول: إن الزمان، أو المكان، أو العرق، أو اللون، يمكن أن تصنع من الناس أمة، فهو مالا تقرّه الرؤية القرآنية لمفهوم الأمة.

## الشرائع والكتاب الحق /أم الكتاب:

والسؤال الآن، كيف يكون كتاب الله الموحى إلى النبيين والرسل جميعاً واحداً، حقاً، متطابقاً، وتختلف في الوقت نفسه الشرائع التي أوحيت إلى الرسل منهم؟.

يقول ابن فارس في معجمه: " شرع: الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه. من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء. واشتق من ذلك الشرعة في الدين والشريعة ". فإذا كانت شريعة الماء تستقي مياهها من منبعها، ثم تسير في امتداد يكون مورد الشاربة الماء (وربما يفيض من النبع أكثر من شريعة واحدة)، فإن **الشرعة في الدين تستقي مضامينها ومبادئها الفكرية من الكتاب الحق/أم الكتاب**، الدين القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام، ثم تسير في امتداد يكون مورد أصحابها للاهتداء بها، والانتفاع منها، وهو حال الشرائع السماوية جميعا.

وعليه، **فإن الاختلاف الظاهر فيما بين الشرائع هو بالضرورة اختلاف في شكل الشرائع فقط، أي في ظاهر أحكامها، لا في مضامينها، ومبادئها الفكرية، طالما أنها تستقيها جميعا من مصدر واحد، هو الكتاب الحق/أم الكتاب.**

١- جاء في الفصل الأول أن موضوع الشرائع هو الأحكام ﴿..**فاحكم بينهم بما أنزل الله.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**..﴾، وموضوع الأحكام هو مجموع التوجيهات والقوانين التشريعية التي تبيّن الصراط المستقيم، وتفصّله في الرسالات السماوية جميعا ﴿..**ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. وعليه فإن موضوع الشرعة هو الأحكام التشريعية التي أنزلت إلى أمة بعينها من الأمم، دون غيرها.

وهكذا نستطيع أن نفرق بين الشرعة والأحكام كمصطلحين. **فالأحكام - بصيغتها المطلقة - هي مجموع آيات الأحكام، المبيّنة، المفصّلة للكتاب الحق/أم الكتاب في الرسالات السماوية جميعا، أما الشرعة فهي ما أنزل إلى أمة بعينها من أحكام شرعية، دون غيرها.**

٢- جاء في بحث **النسخ** كذلك أن الأحكام تختلف من حيث الشكل من شرعة لأخرى، بينما يبقى مضمونها واحداً فيها جميعاً، وضربنا على ذلك أمثلة من خلال أحكام القتل، والزنى، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين * . وينطبق الأمر نفسه - على سبيل المثال لا الحصر- على أحكام اللواط، والسحاق، والغش، ونقض العهود. فعلى الرغم من اختلاف الشكل الذي تعالج به كل أمة أحكامها، إلا أنها تتفق جميعا على معانى تلك الأحكام ومضامينها الفكرية، أي أنها تتفق جميعا على ضرورة اجتناب مثل تلك الأفعال، ومحاربة من يمارسها، بهدف إحقاق الحق والعدل في المجتمعات الإنسانية، وإبعاد شبح الظلم عنها، وحفظ الأسرة كأساس لها وخليتها الأولى. وهكذا الأمر بالنسبة لأحكام الفرائض، حيث تختلف فيما بين الشرائع من حيث الشكل، أي من حيث الهيئة ومناهج التنفيذ، بينما تبقى مضامينها الفكرية ومعانيها واحدة فيها جميعا.

والأمر نفسه ينطبق على أحكام **الحدود**. فعلى الرغم من كونها الإضافة التفصيلية عظيمة الأهمية، التي أضيفت إلى الشرائع السابقة، إلا أنها تستقي معانيها، ومضامينها، ومبادئها الفكرية من الكتاب الحق/أم الكتاب، حالها حال الأحكام الأخرى المذكورة في شرعة القرآن الكريم، وفي ما قبله من الشرائع **.

وعليه، بما أن **الكتاب الحق/أم الكتاب** هو مصدر الشرائع جميعا ومنبعها، وبما أن موضوع الشرائع هو الأحكام - التي تختلف من شرعة

---

* راجع الفصل الأول، بحث أم الكتاب/الآيات المحكمات.

** يأتي تفصيل ذلك في بحث الشرائع والحساب.

لأخرى من حيث الشكل فقط دون المضمون - لذلك فإن اختلاف الشرائع فيما بينها يكمن بالضرورة في شكلها، أي في ظاهرها، وليس في معانيها، ومضامينها، ومبادئها الفكرية.

٣- وانطلاقا من اختلاف الأحكام في الشكل مع احتفاظها بالمضمون نفسه، يؤكد تعالى على **مشروعية اختلاف الأحكام** فيما بين الشرائع بقوله:

**﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾** الجاثية ١٨. لقد أوحي إلى محمد ﷺ شريعة من الأمر، أي شريعة من شرائع الإسلام، وهي الخاتمة.

**﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾** المائدة ٤٧. الآية مطلقة، لا يحدها الزمان، ولا المكان، لعدم وجود قرينة تثبت ذلك، وموضوعها دعوة أهل الإنجيل في كل زمان ومكان للحكم بما أنزل الله لهم فيه، إن كانوا راغبين عن شرعة القرآن الكريم.

**﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وماأولئك بالمؤمنين﴾** المائدة ٤٣. الآية الكريمة استفهام استنكاري عن لجوء اليهود إلى محمد ﷺ، ليحكم بينهم بما أنزل إليه في القرآن الكريم، وعدم لجوئهم إلى التوراة ليحتكموا إليه، وفيها حكم الله أيضا.

**﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين﴾** المائدة ٦٨. تطلب الآية الكريمة من أهل الكتاب إقام التوراة والإنجيل، أي الحكم بما جاء إليهم فيهما، إن كانوا راغبين عن اتباع شرعة القرآن الكريم، التي أنزلت إلى محمد ﷺ.

ويتفق مع هذا ما روي في **صحيح البخاري** " عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: { **ما تجدون في التوراة في شأن**

**الرجم؟**} فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: إرفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة "، كتاب المناقب، الحديث رقم (٣٤٣٦).

٤- وعليه، فإن الاختلاف بين أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد عليهم السلام، وحتى الأمم الصابئة، هو **اختلاف ظاهري شكلي، بعيد عن مضامين شرائعهم ومعانيها، ومبادئها الفكرية الكلية، التي تتركز فيها أساسا أهمية الشرائع.**

**فالمنطلقات الأساسية للشرائع كلها هي قواعد الصراط المستقيم،** موضوع الكتاب الحق/أم الكتاب، التي كان تعالى أوصى اليهود والنصارى من قبل باتباعها. لهذا يوجه تعالى المؤمنين من الأمم جميعا (الذين اختلفوا بعد نزول علم الشرائع) للعودة إلى قواعد الصراط المستقيم، والتمسك به، حيث يختتم تعالى آية سورة البقرة بقوله ﴿..**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. أما **الهدف النهائي** الذي تسعى **الشرائع جميعا** الى تحقيقه، فهو توجيه الإنسان نحو **ممارسة العمل الصالح**، بما في ذلك اجتناب العمل الفاسد، لذلك يختتم تعالى آية سورة المائدة بقوله ﴿..**فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾.

ولهذا فإن **الأمم التي تتبع الرسل ليست في حقيقة الأمر سوى أمة واحدة على دين الصراط المستقيم، دين الله القيم على الدين كله.**

ولذلك يقول تعالى موجها خطابه إلى الرسل جميعا:

﴿**يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ○ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ المؤمنون ٥١-٥٢.

أي إنه على الرغم من اختلاف ظاهر الشرائع السماوية، إلا أن **الأمم جميعا**، التي تتبعها، ليست في حقيقة الأمر **سوى أمة واحدة، ذات دستور واحد**، يحدد لهم جميعا أسس معرفتهم اليقينية في كل زمان، وفي كل مكان، ويوجههم نحو تحقيق الأهداف الإنسانية الخيرة، من خلال تكريس مفهوم العمل الصالح.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه **أعلام الموقعين**: " إن الشريعة مبناها وأساسها على **الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد**. وهي عدل كلها ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، **فليست من الشريعة وإن أدخلت إليها بالتأويل**." إن رأي الإمام هذا لا ينطبق على شرعة القرآن الكريم فحسب، وإنما على الشرائع السماوية جميعا.

وبهذا نعلم أن **تعدد الشرائع، واختلافها من حيث الشكل، هو قانون اجتماعي موضوعي**، وأنه لا يجوز لأمة أن تبغي على الناس من الأمم الأخرى، أي أن تفرض عليهم ممارسة أحكامها بشكل مباشر، أو غير مباشر، أو أن تمنعهم من ممارسة أحكامهم الخاصة، خصوصا أولئك الذين يعيشون بين ظهرانيها.

يقول تعالى:

**﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾** هود ١١٨.

**فالشرعة إذن هي مجموع الأحكام التي تتخذها أمة بعينها من الأمم وسيلة لتطبيق قواعد الصراط المستقيم. وعلاقة الشرعة بالصراط المستقيم كعلاقة القوانين التشريعية بالدستور، حيث تعتبر تفصيلاً وبياناً لما ورد في الدستور، لا الدستور نفسه.**

## الشرائع والمناهج:

عرّفنا فيما سبق ماذا نفهم من تعدد الشرائع في الآيات الكريمة. والسؤال الآن: ماذا نفهم من تعدد المناهج في قوله تعالى ﴿.. **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة..**﴾ ؟..

١- المنهاج كلمة مشتقة من الفعل (نهج) و " النهج، **الطريق**. ونهج لي الأمر: **أوضحه**. " (٤). وتعدد المناهج بين الأمم هو نتيجة طبيعية لتعدد شرائعها ابتداء.

**فالمنهاج إذن هو الطريقة، أو الآلية، التي تنقل بموجبها أحكام شرعة ما إلى الوجود الموضوعي، ووظيفته بيان المعطيات الزمانية، والمكانية، والملابسات الإنسانية، التي تطبق فيها تلك الأحكام.** ولم يحدد القرآن الكريم على وجه العموم آليات، أو مناهج لتنفيذ الأحكام المذكورة فيه، باستثناء ما جاء في تنفيذ بعض الأحكام، وخاصة أحكام العقوبات، حيث يتوجب على المناهج الإنسانية الأخذ بها. لقد ترك تعالى لكل أمة مهمة وضع وتحديث المناهج التي تنفذ بموجبها أحكام شرعتها، بما يتناسب ومعطياتها التاريخية المتغيرة، الثقافية منها، والعلمية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها.

لقد حكم القرآن الكريم مثلا على السارق بقطع اليد، من خلال الآية الكريمة ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم**﴾ المائدة ٣٨، أما منهاج تطبيق الحكم، فلم يذكر الكثير من تفاصيله، رغم أهميتها. فما هي قيمة السرقة التي تستوجب تنفيذ الحكم * ؟..

---

* يمكن في هذا المقام طرح السؤال التالي: هل يمكن قطع اليد في زماننا المعاصر حسب النسب التي ذكرها الفقهاء في القرون الماضية؟. يقول محمد علي الصابوني في كتابه **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن** " وأما المقدار الذي تقطع فيه اليد فقد اختلف الفقهاء فيه، فقال أبو حنيفة والثوري: لا قطع إلا في عشرة دراهم فصاعدا، أو قيمتها من غيرها. وقال مالك والشافعي: لا قطع إلا في ربع دينار، أو ثلاثة دراهم " دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، الجزء الأول، ص: ٥٢١.

وهل تقطع يد من سرق رغيف خبز ليأكله وهو جائع، ويطبق الحكم نفسه فيمن سرق قوت شعب ظلما وطمعا؟.. وهل هي العقوبة القصوى للسرقة، أم أنها عقوبة كل من سرق؟.. تلك بعض التساؤلات الحرجة، التي يثيرها تنفيذ الأحكام الشرعية دون النظر في المعطيات الزمانية، والمكانية، والملابسات الإنسانية، التي ترافقها عادة * .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا الصدد: " إن كثيرا من النصوص التي جاءت في القرآن وردت بطريقة كلية إجمالية، لا بطريقة تفصيلية. من ذلك قوله تعالى ﴿.. **وشاورهم في الأمر..**﴾ وقوله ﴿..**وأمرهم شورى بينهم..**﴾، فالآيات لم توضح كيفية الشورى، ومن الذي يُستشار، وفيم يُستشار، ولو حدد القرآن صورة مفصلة للشورى لألزمتنا طوال العصور، والله تعالى لا يريد أن يلزمنا ويجمدنا في كيفية، أو آلية، أو صورة محددة، وترك ذلك لعقولنا رحمة من الله بنا.. والمواضيع والمسائل الذي يجوز الاجتهاد فيها هي **منطقة الظنيات، وهي تمثل ٩٩٪** من النصوص والأحكام.. أما **منطقة القطعيات**، وهي التي تثبت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة، فهي **لا تمثل إلا واحدا بالمائة من جملة نصوص القرآن والسنة** " (٥) .

ومن هذه النقطة بالذات، نقطة التمييز بين أحكام الشرعة من جهة، ومنهاج تنفيذها من جهة أخرى، نفهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يعطل حكماً شرعياً إذ منع عن الأعراب سهم المؤلفة قلوبهم، الذي أعطاه لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه من قبل، ولكنه فهم أن هؤلاء الأعراب ما عادوا ممن يحتاج المسلمون أن يؤلفوا قلوبهم، بعد أن **تغيرت الظروف المحيطة** بمجتمع المسلمين. كما إن عمرا لم يعطل حكماً شرعياً من أحكام العقوبات، إذ لم يقطع يد عبدٍ سرق رغيفا من الخبز في عام الرمادة، ولكنه فهم أن حكم القرآن في قطع يد السارق لا يعني تنفيذه في

---

* أذكر هنا أن ماورد في الكتاب والقرآن للدكتور محمد شحرور من شرح للحدود الدنيا والعليا لأحكام العقوبات، يمكن إدراجه في باب منهاج تطبيقها في زماننا المعاصر.

كل من سرق في كل زمان وفي كل مكان، وأنه **لا بد أن تتوفر في الواقعة الإنسانية شروط وملابسات بعينها، حتى يتم بموجبها تطبيق الحكم، منعا للظلم، وتحقيقا للصالح العام.**

٢- لم يكن خاتم النبيين والرسل محمد ﷺ ليخرج على أحكام القرآن الكريم في أقواله، أو في أفعاله، أو في تقريره للأمور. لذلك فإن **كل قول، أو فعل، أو تقرير روي عن الرسول الكريم ﷺ يجب أن يتفق بالضرورة** مع آيات الذكر الحكيم، الذي **لم يفرّط تعالى فيه من شيء، وأنزله تفصيلاً، وبياناً لكل شيء.**

**﴿ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾** الأنعام ٣٨.

**﴿أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾** الأنعام ١١٤.

**﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾** النحل ٨٩.

ويتفق مع الآيات الكريمة ما روي عن الرسول ﷺ قوله في **صحيح مسلم** "{ الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، **والقرآن حجة لك أو عليك.** كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها} "، كتاب الطهارة، الحديث رقم (٢٢٣).

كما يتفق مع الآيات الكريمة ما روي عن الرسول ﷺ قوله " { **ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو،**

**فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا** } ثم تلا ﴿..**وما كان ربك نسيا**﴾ " * .

لقد استجاب منهاج الرسول الكريم ﷺ في تطبيق أحكام الكتاب لمعطيات عصره الزمانية، والمكانية، ولاحتياجات مجتمعه في شبه الجزيرة العربية، الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعلمية، والثقافية، والصحية، وغيرها، في القرن السابع للميلاد. وهكذا كان منهاج صحابته الكرام رضوان الله عليهم من بعده.

**لذلك على أئمة الأمة في زماننا المعاصر الاجتهاد في فهم مضامين الأحكام وأهدافها، وفي إيجاد آليات ومناهج لتطبيقها** بالشكل الصحيح – كما اجتهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من قبل – **منطلقين بالضرورة** من المعطيات الزمانية والمكانية المستجدة للمجتمعات المسلمة. كما عليهم **الاجتهاد في تحديث** تلك المناهج باستمرار، كي تستجيب للظروف التاريخية المتغيرة.

إن هذا هو ما يجعل **المناهج الإنسانية تتصف بالنسبية الشديدة، وبعدم الثبات، على الرغم من ثبات الأحكام الشرعية في القرآن الكريم.** لذلك فإن التزام تلك المناهج بالكتاب الحق/أم الكتاب، باعتباره أسلسا، **وأصلا، ومرجعا**، والتطلع نحو تحقيق الخير والصلاح للإنسانية، باعتباره **هدفا نهائيا**، هما العاملان الأساسيان، اللذان يحفظان المناهج الإنسانية من الانحراف عن الطريق الصحيح.

٣- على الاجتهاد الإنساني أيضاً ألا يتجاوز أحكام الكتاب، ويفرض أحكاماً من عنده، واصفا إياها بكونها أحكاماً تشريعيةً، وخصوصا في مجال أحكام العقوبات. فلو كان تعالى يرى ضرورة فرض عقوبة على مقترفي الربا، أو

---

* رواه الحاكم في المستدرك، المجلد الثاني، ص: ٣٧٥ .

على شاربي الخمر مثلا، لكان أثبت ذلك في القرآن الكريم – الذي **أنزله تفصيلا وبيانا لكل شيء** – ولم يكن ليتركه للاجتهاد الإنساني.

ولكن هذا لا يعني في الوقت نفسه الحدّ من فرض أي عقوبة غير مذكورة في القرآن الكريم، بل بيان أن مايفرض منها يلبي **حاجات اجتماعية مرحلية**، تحتاج إلى مراجعة وتحديث مستمرين، وأنها ليست أحكاما تشريعية ملزمة للمسلمين جميعا في كل زمان ومكان.

## تطبيقات على شرعة القرآن الكريم - حدود الله:

لا أدري كيف لم يتم التمييز طوال القرون الماضية بين حدود الله من جهة *، وأحكام العقوبات من جهة أخرى، فقرئت الحدود وفقا لذلك على أنها أحكام العقوبات نفسها، رغم الفارق الجليّ بينهما في كتاب الله. فالأحكام عنوان كبير في شرعة القرآن الكريم، تندرج تحته عناوين فرعية متعددة، منها الحدود، وأحكام العقوبات.

**وحدود الله هي في كتاب الله الحدود الموجبة والسالبة للعلاقة التي تربط الإنسان بالخالق من جهة، وتربطه بأفراد أسرته من جهة أخرى. وقد وجدت من أجل تنظيم العلاقات المادية والمعنوية بين أفراد الأسرة الواحدة، أي من أجل تحديد أهم الحقوق والواجبات بالنسبة لكل منهم، تحكمها وتؤطرها علاقة الإنسان بالخالق.**

أما **أحكام العقوبات** فهي العقوبات الجسدية التي تطبق على من يخالف بعض قواعد الصراط المستقيم، كأحكام القتل، والسرقة، والزنى، والقذف، **ولم توصف في أي من آيات الكتاب بحدود الله.**

وعلى الرغم من أن حدود الله تستمد معانيها ومضامينها الفكرية من الكتاب الحق/أم الكتاب، حالها حال الأحكام في الشرائع جميعا، إلا أنها التفاصيل ذات الأهمية العظيمة، التي أضافتها شرعة القرآن الكريم إلى الشرائع السابقة. وقد ذكرت حدود الله في شرعة نبي الله ورسوله محمد ﷺ، ولم تذكر تفاصيلها في الشرائع من قبله، لأن المجتمعات الإنسانية كانت قد وصلت مع بعثة محمد ﷺ إلى درجة من التطور الفكري

---

* " عرّف الفقهاء الحد بأنه عقوبة مقدّرة حقاً لله تعالى .. والجرائم التي تستوجب الحد هي : أولاً: الزنا، ومثله اللواط .. ثانياً: السرقة، ثالثا: القذف، رابعا: شرب الخمر .. "، الجزيري، عبدالرحمن، **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، الجزء الخامس، ص: ١٢.

والحضاري، تؤهلها لفهم شبكة العلاقات الأسرية المقترحة، وتطبيقها، لم تكن قد وصلت إليها من قبل بعثته عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد وردت عبارة (حدود الله) في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، مرتان منها في تنظيم علاقة الإنسان بالخالق، واثنتا عشرة مرة في تنظيم العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة: عشر في تنظيم العلاقة بين الزوجين (ثمان منها في تنظيم شؤون الطلاق ومرتان في تنظيم شؤون الزواج)، ومرتان في تنظيم العلاقة بين الوالدين وأولادهم، في مجال الإرث على وجه الخصوص.

**ففي آيات حدود الله توضيح وبيان للحدود الإيجابية اللامتناهية** لعلاقة المؤمن مع الله من جهة، ومع أفراد أسرته من جهة أخرى – التي يجب على المؤمن أن يبذل مافي وسعه من أجل الوصول إليها، فينال بذلك رضوان الله وجنته – وفيها **تحذير للمؤمن من تجاوز حدود** تلك العلاقة، تحت طائلة غضب الله وعقابه. وتخضع الحدود بنوعيها لحكم حاسة **الفؤاد** لدى الإنسان (الضمير)، **وهدفها النهائي تكريس نظام الأسرة، باعتباره أساسا للمجتمعات الإنسانية، وخليتها الأولى.** حيث تعالج أهم المشاكل المعنوية، والمادية، والاجتماعية، التي يمكن أن تواجه نظام الأسرة، التي تؤدي إلى تدميرها في كثير من الأحيان.

وقد اصطلحتُ على تسمية النوع الأول من الحدود **بالحدود الموجبة،** وعلى النوع الثاني **بالحدود السالبة.** وبين الحدود الموجبة والحدود السالبة – للعلاقة التي تربط الإنسان بالله من جهة، وتربطه بأفراد أسرته من جهة أخرى – توجد ملايين الاحتمالات من العلاقات النوعية، التي يمكن أن تنشأ بين كلا الطرفين، منها ماعالجها القرآن الكريم، ومنها ماترك للإنسان حرية تنظيمها، ومعالجتها، حسب المجال التاريخي الذي يعيش فيه.

يقول تعالى في آيات الحدود:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ○ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾ التوبة ١١١-١١٢.

﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ○ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله والله عليم حكيم﴾ التوبة ٩٦-٩٧.

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ البقرة ١٨٧.

﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ○ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ○ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ المجادلة ٢-٤.

﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ○ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو

تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ○ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ البقرة ٢٢٨ - ٢٣٠.

﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ الطلاق ١.

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ○ ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ○ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ○ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾ النساء ١١-١٤.

يحدد القرآن الكريم آيات الحدود في ختام الآيات الكريمة بقوله: ﴿..تلك حدود الله فلا تقربوها..﴾ و﴿..تلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ و﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا..﴾ و﴿..والحافظون

**لحدود الله وبشر المؤمنين﴾** و ﴿**..وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه..﴾** و﴿**..تلك حدود الله فلا تعتدوها..﴾** و ﴿**..تلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾**، ولا نعلم أن هناك عبارة أخرى غير "**حدود الله**" تبين حدود الله في القرآن الكريم.

وللحدود، جمع (حدّ)، " أصلان صحيحان، يدل الأول على المنع، والثاني على طرف الشيء " [٦] أي نهايته. ويجمع مفهوم الحدود في القرآن الكريم المعنيين كلاهما. فالحدّ – من المنع – هو **حد العلاقة** الذي يمنع المؤمن من تجاوزه، وهو في الوقت نفسه **نهايتها** – من طرف الشيء – الذي يشجعه على العمل من أجل الوصول إليه.

وحدّ العلاقة – من المنع – هو حدها السالب، وقد صيغ لغويا في الذكر الحكيم بشكل واضح وقاطع، أي أنه **خال من المجاز.** أما حدّ العلاقة الموجب – وهو من طرف الشيء ونهايته – فقد صيغ **بأسلوب المجاز**، مما يعطيه مدى لا متناه، أي وسائل وآليات غير محدودة للتطبيق.

**١- حدّا العلاقة بين الإنسان والله:**

**حد العلاقة الموجب:**

يتمثل الحد اللانهائي الموجب للعلاقة بين الإنسان والله في قوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. ○ ..والحافظون لحدود الله..﴾**، وهو تعبير مجازي، يحض المؤمنين على تحقيق الخير والصلاح على المستويين الخاص والعام، وكأنما هم بذلك يبيعون أنفسهم وأموالهم بيعاً لله سبحانه. إن التعبير المجازي هذا يفتح آفاقا لا متناهية للعلاقة الإيجابية بين الإنسان والخالق، يمكن التعبير عنها من خلال آلاف الاحتمالات، للإنسان حرية الاختيار منها، وتنظيمها، بما يتوافق وقدراته من جهة، والمجال التاريخي الذي يعيش فيه من جهة أخرى.

**حد العلاقة السالب:**

يتمثل حدّ العلاقة السالب بين الإنسان والله في الكفر والنفاق ﴿**الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله..**﴾. يحذّر الله الإنسان من الكفر والنفاق، تحت طائلة غضبه وعقابه، وهو تحذير له من ظلمه لنفسه أولاً. نلاحظ واقعية التعبير، ووضوحه، وخلوه من المجاز.

٢- **حدود العلاقة بين الإنسان وأفراد أسرته:**

أ- **حدّا العلاقة بين الزوجين:**

**حدّ العلاقة الموجب:**

يوضح القرآن الكريم حدّ العلاقة الموجب بين الزوجين في قوله: ﴿**..هن لباس لكم وأنتم لباس لهن..**﴾، وهو تعبير مجازي يصف حالة من الإنسجام والتوافق التام بين الزوج وزوجه، يحضّ الله المؤمن والمؤمنة على العمل من أجل الوصول إليها، ليصبح أحدهما وكأنه لباس للآخر. نلاحظ أن التعبير المجازي يعطي المعنى مدى لا متناه، وإمكانيات للتطبيق لا تحصى، للزوجان الحرية في الاختيار منها، وتنظيمها، بما يتوافق والظروف العامة التي يعيشانها.

**حدّ العلاقة السالب:**

توضح آيات الحدود حدّ العلاقة السالب بين الزوجين، الذي يمنع المؤمن من تجاوزه تحت طائلة عقوبة الله له في اليوم الآخر، وذلك على مستويين اثنين:

- **على مستوى الزواج:**

> **المظاهرة:** أي أن الزوجة هي الزوجة، لذلك لا يجوز للزوج اعتبارها بمثابة أمه، أي الانقطاع التام عن مباشرتها تحت أي من الظروف. يقول تعالى ﴿**الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم.. ○ ..وتلك حدود الله..**﴾.

- للزوج أن يباشر زوجته في كل الأوقات، وحتى في ليلة الصيام، ولكنه يمنع من ذلك أثناء الصيام، وأثناء الاعتكاف في المساجد. يقول تعالى ﴿..أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم.. ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها..﴾

- **على مستوى الطلاق:**

- الطلاق مرتان فقط، فإمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان. فإن وقع الطلاق للمرة الثالثة، فلا يجوز للمرأة أن تنكح زوجها حتى تنكح زوجا غيره ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان..إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله..○ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون**﴾.

- يجب أن تلتزم المرأة المطلقة – بالإضافة إلى التزام طليقها – بإحصاء عدّتها، وألاّ تخفي أثناءها حملها – إن وجد – بأي حال من الأحوال. يقول تعالى ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله في أرحامهن..○ تلك حدود الله فلا تعتدوها..**﴾، ويقول أيضا: ﴿**ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة.. وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه..**﴾

- لا يجوز للرجل إخراج طليقته من بيتها قبل انتهاء عدّتها، إلا إن أتت بفاحشة مبينة ﴿**لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه..**﴾، كما لا يجوز إكراه المطلقة على ردّ ما أعطيت كزوجة من مال ومتاع، ما لم يتعارض ذلك مع الحدود الأخرى ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله.. تلك حدود الله فلا تعتدوها..**﴾.

ب- حدّا العلاقة بين الوالدين وأولادهم:

وهي على مستوى واحد فقط، وهو **الإرث**. يقول تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.. من بعد وصية يوصي بها أو دين.. ○ من بعد وصية يوصين بها أو دين.. من بعد وصية توصون بها أو دين.. من بعد وصية يوصى بها أو دين.. ○ تلك حدود الله.. ○ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا..**﴾.

ونلاحظ أن **الإحسان للوالدين** لم يدخل ضمن حدود العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة، حيث جعله تعالى قاعدة من قواعد الصراط المستقيم، موضوع الكتاب الحق/أم الكتاب. ويدل هذا على الأهمية الاستثنائية التي يخص بها تعالى الإحسان للوالدين، حيث يمنع به أقبح أنواع الظلم الإنساني (عقوق الوالدين)، كما يساعد على تماسك نسيج الأسرة الداخلي، الذي يزودها بقوتها الدينامية في تطوير المجتمعات الإنسانية.

وقانون الإرث واحد في كتاب الله: حدّه السالب تطبيق حيثيات قانون الإرث وعدم تجاوزه سلباً، أما حدّه الموجب، فهو منح المؤمن حق الوصية، دون تخصيص فى الكم، أو في الكيف، كي يتمكن من الاستجابة للمعطيات الزمانية والمكانية المتغيرة للمجتمعات الإنسانية.

**الحدّ السالب لعلاقة الإرث:**

إن تطبيق حيثيات قانون الإرث هو الحد السالب لعلاقة الإرث بين أفراد الأسرة الواحدة. وهذا لا يعني وصفا للقانون نفسه بالسلبية، بل للحالة التي تطبق فيه.

لقد بني **الحدّ السالب** لقانون الإرث في القرآن الكريم على أساس أن للذكر مثل حظ الأنثيين، في حال تساوت درجة القربى من المتوفى. وأرى فى هذا العدل الإلهي المطلق، المبني على افتراض القرآن الكريم لقانون اجتماعي يسود المجتمعات الإنسانية، وهو أن الذكر مسؤول من الناحية

المادية مسؤولية كاملة تجاه الأنثى والأسرة كلها، لقوله تعالى ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم..**﴾ النساء ٣٤ *. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه لا يجوز تجاوز الحد سلبا بإعطاء الأنثى أقل من نصف مايعطى الذكر بأي حال من الأحوال. أما إن لم يكن قانون اجتماعي كهذا سائدا في مجتمع ما (ونعلم أن القرآن الكريم يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان)، كأن تكون الأنثى مسؤولة كالذكر عن الانفاق على نفسها وأسرتها، أو أنها تشاركه في ذلك في ظل قانون اجتماعي عام، كما هو الحال والمجتمعات الغربية في زماننا المعاصر، والكثير من المجتمعات الإسلامية التي تعاني من تردّ متزايد في الأوضاع الإقتصادية، اضطُرت الأنثى من خلالها للخروج للعمل ومشاركة الذكر في تحمل مسؤولية الإنفاق، نقول إن لم يكن قانون اجتماعي كهذا هو السائد في مجتمع ما، فإن معالجة هذا الموضوع وأي موضوعات أخرى مستجدة تكون من خلال العمل بمبدأ الوصية، الذي أقرّه القرآن الكريم، والأحاديث المروية على لسان الرسول الكريم، دون قيد، أو شرط، للورثة ولغيرهم.

**الحدّ الموجب لعلاقة الإرث:**

- لقد فتح الله في كتابه العزيز الحد الموجب لعلاقة الإرث بين أفراد الأسرة الواحدة، من خلال إقرار مبدأ **الوصية بالعدل، دونما تخصيص في الكم، أو في الكيف** **. فاعتبرت الوصية بذلك **حدّا من حدود الله، لا يجوز إلغاؤه، أو تخصيصه كمّا أو كيفا** تحت أي من الظروف، وإلاّ باء الإنسان بغضب الله وعقابه. ووضع الوصية في هذا كوضع الدَّين تماما، على الورثة أن يؤدوها لأصحابها، كما يوفّى صاحب الدَّين دَينه.

إن مال المسلم ذكرا كان أو أنثى – بما في ذلك حريته الكاملة في التصرف فيه – أمر مصان في شرعة القرآن الكريم، حتى أن الفقه الإسلامي يعتبره أصلاً من أصول الدين، لا يجوز المساس به، أو الحد منه، طالما أن

---

* تذكر الآية الكريمة كاملة مع الشرح في الفصل الثالث، بحث العمل الصالح والتفضيل الإلهي.

** نقصد بالكيف هنا الأشخاص الذين يمكن أن ينالوا حقهم في الوصية.

المسلم شخص بالغ، ويتمتع بقواه العقلية كاملة. وبما أن الوصية هي تصرف المسلم في ماله أثناء حياته، بشرط تنفيذها بعد وفاته، فإن له الحق أن يوصي بماله كله، أو بجزء منه، لمن يشاء. ولذلك يقول تعالى بإطلاق وبدون تخصيص:

**﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ○ ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ○ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ○ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾** النساء ١١-١٤.

أي أن كل ماذكر في آيات الإرث من حيثيات **تطبق بعد تنفيذ وصية المتوفى**، ووفاء دَينه. نلاحظ عدم تخصيص الوصية في الآيات الكريمة كمّا، أو كيفا، ولذلك فهي تعني الثلث، أو أقل، أو أكثر من جهة الكم، والورثة وغير الورثة من جهة الكيف.

- ويقول تعالى في الآيات ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ من سورة البقرة:

**﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ○ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه**

**على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ○ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾.**

تثبت الآيات الكريمة مايلي:

- الوصية هي فعلٌ خيّر، واجب على المتقين من المؤمنين القيام به ﴿..**إن ترك خيرا.. حقا على المتقين﴾**. فإن أراد المؤمن أن يكون تقيا، وأن يترك خيرا وراءه، فما عليه سوى الوصية بتوزيع أمواله وممتلكاته، بما تستكين له نفسه، وتطمئن له فطرته الخيرة، آخذا بعين الاعتبار الظروف والقوانين الاجتماعية السائدة في مجتمعه ﴿..**بالمعروف حقا على المتقين﴾** *.

- حقت الوصية للورثة في الآية الكريمة لقوله تعالى ﴿..**الوصية للوالدين والأقربين..﴾**، وهم من **الورثة**. فالوالدان هم ورثة بالضرورة، والأقربون يشملون الأبناء كذلك، وهم من الورثة، " لأنه حين أنزلت الآية الكريمة **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** شمل النبي الكريم ابنته فاطمة رضي الله عنها بخطابه أهل مكة، فقال :{ .. ويافاطمة بنت محمد، سليني ماشئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا } " (٧). كما نلاحظ أن الأقربين يذكرون في الكثير من الآيات الكريمة بعد الوالدين مباشرة، أي أنهم كل من له صلة قربى بالإنسان من بعد والديه **.

- لم تخصص الآيات الكريمة الوصية بالثلث، أو بأكثر من ذلك، أو بأقل، أي أنها **لم تخصص الوصية من جهة الكم كذلك.**

---

* يأتي شرح كلمة **المعروف** في الفصل الرابع، بحث العدل وعلاقته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

** يقول تعالى أيضا **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في مافعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾** البقرة ٢٤٠. والآية مخصوصة في حالة بعينها، أي في الزوجة التي يتوفى عنها زوجها. حيث يوصي تعالى بعدم إخراجها من بيتها لمدة عام كامل، مع تمتعها بحقوقها كلها خلال تلك المدة. وللزوجة الحرية في قبول ذلك، أو الخروج عنه.

- على من شهد الوصية، الإدلاء بشهادته بصدق وأمانة. فإن رأى من الموصي جنوحاً إلى الظلم، فلا إثم عليه إن هو أصلح بالحسنى بينه وبين ورثته ﴿**فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ○ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**﴾. ونلاحظ هنا أن الآية ترجح معنىً ضمنياً يقضي بأفضلية تكتم حاضر الوصية على رأيه الشخصي في توزيعها، إلاّ في حال جنوح الموصي للظلم وارتكاب الإثم، فلا إثم عليه في هذه الحالة إن هو نصحه بالعدل بين ورثته، وسيغفر الله له تدخله هذا، طالما أن هدفه هو الإصلاح لا غير.

> ويقول تعالى أيضا:

﴿**يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلوة فيقسمان بالله إن ارتبتم لانشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين**﴾ المائدة ١٠٦.

لم تخصص الآية الكريمة الوصية كمّا، أو كيفا، مع تأكيدها على أهمية الوصيّة من خلال ذكر الكثير من التفاصيل: كضرورة أن يقسم الشاهدان على عدم كتمان شهادتهما كما سمعاها، وإلاّ كانا آثمين، وأن تؤخذ شهادتهما من بعد الصلاة مثلاً، لا قبلها، وأن يكونا من ذوي العدل من أقرباء المتوفى في حال وجوده بين أهله، أو من غيرهم إن كان بعيدا عنهم، بالإضافة إلى ذكر الكثير من التفاصيل في الآيتين ١٠٧ و ١٠٨ من السورة نفسها.

ونسأل: إذا كان تعالى يريد تخصيص الوصية في الثلث من جهة الكم، وفي غير الورثة من جهة الكيف - كما يقرر الفقه الإسلامي بشكل عام - فلماذا **لم يذكر هذه التفاصيل في آيات الكتاب**، مع الأخذ بعين الاعتبار ذكره للكثير من التفاصيل الأخرى في الموضوع نفسه؟.. أليس الأمر على درجة

من الأهمية توازي أهمية التفاصيل المذكورة، وهو القائل ﴿..**مافرّطنا في الكتاب من شيء** ..﴾ و﴿..**وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ..﴾ و ﴿..**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**..﴾ ؟..

< ويتفق مع ما جاء في الذكر الحكيم ما روي في **صحيح البخاري** " حدثنا خلاد بن يحي: حدثنا مالك، هو ابن مغول، حدثنا طلحة بن مصرف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: هل كان النبي ﷺ أوصى؟ فقال: لا، فقلت: **كيف كتب على الناس الوصية**، أو أمروا بالوصية؟ قال: **أوصى بكتاب الله** "، كتاب الوصايا، الحديث (٢٥٨٩). أخرجه مسلم في صحيحه بقوله " عن طلحة بن مصرف، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى رسول الله ﷺ ؟ فقال لا، قلت: فلم كتب على المسلمين الوصية، أو فلم **أمروا بالوصية** ؟ قال: أوصى بكتاب الله عز وجل "، كتاب الوصية، الحديث رقم (١٦٣٤).

كما روي في **صحيح البخاري** " حدثنا عبدالله بن يوسف: أخبرنا مالك عن اسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة: أنه سمع أنسا رضي الله عنه قال: قال النبي لأبي طلحة: أرى أن تجعلها (أي الوصية) في **الأقربين**. قال أبو طلحة: أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في **أقاربه وبني عمه** "، كتاب الوصايا، الحديث (٢٦٠١).

نلاحظ أن الرسول الكريم ﷺ أوصى بالالتزام بكتاب الله – أي بالتمسك به والعمل بمقتضاه ومنه ما جاء في موضوع الوصية – في ما روي عنه في الحديث الأول، ووجه أبا طلحة في ما روي عنه في الحديث الثاني أن يجعل وصيته – **كلها لا ثلثها فقط** – بين **أقاربه** وبني عمه، وهم من الورثة.

< أما ابن كثير فيقول في تفسيره للآية ١٨٠ من سورة البقرة:

" إن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين **منسوخ بالإجماع**، بل **منهي عنه للحديث** المتقدم { إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه **فلا وصية لوارث** } ".

ويقول أيضا في تفسير الآية ١٢ من سورة النساء:

" لهذا **اختلف الأئمة** في الإقرار للوارث، هل هو صحيح أم لا؟ على قولين (أحدهما) لا يصح لأنه مظنة التهمة، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال { إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث }، وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة **والقول القديم للشافعي** رحمهم الله. وذهب **في الجديد إلى أنه يصح الإقرار، وهو مذهب طاوس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه**.. قال الله تعالى ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**..﴾ **فلم يخص وارثا ولا غيره** ". نلاحظ كيف **رجع الشافعي في القول الجديد** عن تخصيص الوصية بغير الورثة، وكيف **تعامل البخاري** في صحيحه معها كونها **أمانة**، لا يجوز لأحد المساس بها مهما كانت تفاصيلها.

ويؤكد محمد علي الصابوني في كتابه **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن** على جواز نسخ آيات الكتاب بالأحاديث المروية عن الرسول الكريم، بقوله:

" احتج الجمهور على **جواز نسخ الكتاب بالسنة** بعدة أدلة نوجزها فيما يلي: (أ) نسخ آية الوصية وهي قوله تعالى ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين**..﴾ فقد نسخت هذه الآية بالحديث المستفيض وهي قوله ﷺ { ألا لا وصية لوارث } **فالناسخ هنا هو السنة**.. " (٨).

والسؤال هو: هل يجوز للسنة أن تنسخ آيات القرآن الكريم، علما بأن توافق معاني ومضمون الحديث المروي (متنه) مع آيات القرآن الكريم هو من أساسيات علم الحديث والرواية؟.. ثم هل يجوز للاجتهاد البشري (وهو

هنا تحقيق الأحاديث من حيث الرواية والمتن) أن ينسخ آيات الكتاب، ويبطل حكمها، ويلغيه ؟.. *.

فيما يخص موضوعنا نرى أنه لا يجوز اعتبار الحديث " لا وصية لوارث " ناسخا لآيات القرآن الكريم، أو مبطلاً حكمها، أو مخصصاً له بأي حال من الأحوال، كما هو **معمول به في التشريع الإسلامي حاليا**. حيث يتناقض الحديث المذكور مع آيات القرآن الكريم، التي اعتبرت الحكم مطلقاً، غير مخصص، لا كمّا، ولا كيفا، كما يتناقض مع الحديثين المرويين عن الرسول الكريم ﷺ.

لقد أدّى حرمان المسلم من حقه في الوصية لورثته إلى عدد من المشاكل الاجتماعية، التي مازالت تعاني منها المجتمعات الإسلامية، وأولها هلع الآباء من إنجاب الإناث دون الذكور، وتحايل الكثير منهم على عدم إنجاب الذكور، بإجراء عقود بيع وهمية لبناتهم أثناء حياتهم، يمنحوهن فيها كل ميراثهم، حيث لا تحجب الابنة الميراثَ عن الأخوة والأعمام مثلا في مذهب أهل السنة **. كما أدى حرمان المسلم من حقه في الوصية إلى إحجام الكثير من الناس عن الدخول في شرعة القرآن الكريم، ليقينهم بأن هنالك ظلما يقع على الأنثى نتيجة لإعطائها نصف ما يعطى الذكر من الميراث **في كل الأحوال، ودون اعتبار لإمكانية الوصية لها بغير ذلك**، أي دون اعتبار للظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيّرة للمجتمعات الإنسانية.

---

* ورد تفصيل ذلك في بحث النسخ.

** أذكر هنا أن وزيرا في دولة مسلمة خرج مؤخرا من مذهب أهل السنة ودخل في مذهب أهل الشيعة، منعاً لميراثه من الذهاب لغير بناته، كونه لم يرزق بمولود ذكر، حيث **تحجب الإبنة الميراث** في المذهب الشيعي، كما يحجبه الذكر. يقول السيد أبو القاسم الموسوي الخوني في **المسائل المنتخبة** " إذا لم يكن للميت قريب من الطبقة الأولى إلا أبناؤه ورثوا المال كله، فإن كان له ولد واحد – **ذكرا كان أو أنثى – كان له كل المال**، وإذا تعدد أولاده وكانوا جميعا **ذكورا أو إناثا تقاسموا المال بينهم بالسوية**.." الطبعة الثانية عشرة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ص: ٣٥٩. ويستند علماء الشيعة في إقرارهم مسألة **حجب الإبنة للميراث** على تفسير كلمة (الولد) الواردة في الآيتين الكريمتين ١١ و ١٢ من سورة النساء، التي يفهمونها على أنها **تعني الذكر والأنثى** على السواء، أي أنها لا تعني الذكر فحسب.

ونتساءل: لماذا لا يستبعد الفقه الإسلامي الأحاديث التي تتناقض مع القرآن الكريم، وتنسخه، وتبطل حكمه، فيبقي بذلك على التشريع القرآني، ويقويّه؟.. أليس القرآن الكريم أحقّ أن يتبع؟..

- اشترط القرآن الكريم شرطا واحدا في الوصية، وهو **العدل** في توزيع الإرث بين الورثة، على الموصي الالتزام به وحفظه، وإلاّ باء بغضب الله وعقابه في اليوم الآخر، حكمه حكم كل متجاوز لحدود الله. وهذا واضح من خلال قوله تعالى ﴿.. **غير مضار وصية من الله والله عليم حليم**﴾.

أما القول إن العدل هو في حجب الوصية عن الورثة، خوفا من إجحاف الموصي، وبهدف حفظ الألفة بين الأبناء، فهو قول يتناقض مع الحقيقة الموضوعية، ومع الفطرة الإنسانية. لقد أوكل الله – فطريا – إلى الآباء مهمة تربية أبنائهم، وتنشئتهم، والعدل فيما بينهم، **معنويا قبل أن يكون ذلك ماديا**، لذلك نراهم يعدلون فيما بينهم على وجه العموم. أما الآباء الظالمون لأبنائهم، فليسوا إلاّ شذوذا عن القاعدة العامة، وسيعاقبهم الله في اليوم الآخر على ظلمهم، كما يعاقب كل متجاوز لحدود الله *.

ومادام الحديث عن العدل، فإن **العدل هو فيما شرّعه الله** في القرآن الكريم، وهو صاحب العدل المطلق. وهل من العدل مثلا أن ترث امرأة نصف مايرثه أخوها الذكر، وهي تعمل وتشارك زوجها مسؤولية الإنفاق على نفسها وأسرتها، باعتبار ذلك ضرورة يفرضها عليها واقع اقتصادي واجتماعي، بشكل مباشر، أو غير مباشر؟.. وهل من العدل أن ترث أرملة تربي أيتامها، وتنفق عليهم نصف مايرثه أخوها الذكر؟.. لقد فتح الله باب العدل مع الكثير من الحالات المماثلة من خلال إقراره لمبدأ الوصية في القرآن الكريم، دونما تخصيص.

---

* اضرب على ذلك مثالا: هناك من المسلمين من يشهد بالزور، فهل نمنع الشهادة عن المسلمين خوفا من شهادة البعض بالزور؟.. وهكذا الأمر بالنسبة للوصية، فهل يجوز أن نمنعها عن الورثة، خوفا من إجحاف البعض فيها؟..

- نعود إلى حدود الإرث، لنثير السؤال التالي: متى يُطبق الحد السالب لقانون الإرث، ومتى يُطبق حده الموجب؟..

يطبق الحد السالب لقانون الإرث **في حال غياب الوصية**، أي في حال وجود أسباب حالت دون ترك المتوفى لوصيته. ومن أهم تلك الأسباب موت صاحب المال المفاجيء، أو وفاته طفلاً، أو فقدانه الأهلية من الناحية العقلية. إن غياب الوصية في مثل تلك الحالات وفي حالات أخرى غيرها، يترك فراغاً كبيراً، يتسبب غالباً في وقوع الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، لم يكن الإنسان ليستطيع مواجهتها في غياب تشريع قرآني، يساعده على سد ذلك الفراغ.

أما إن كان صاحب المال بالغاً، وكامل الأهلية من الناحية العقلية، فقد حقّت عليه الوصية بالعدل إن كان من المتقين، أي حقّ عليه تطبيق الحد الموجب لعلاقة الإرث.

## الشرائع والحساب:

إذا كان القرآن الكريم يؤكد مشروعية اختلاف الشرائع بين الأمم، فعلى أي أساس إذن يحاسب الناس جميعا يوم الحساب؟.. وهل تحاسب كل أمة بالقياس إلى الشرعة التي تتبعها؟.. أم أن الأمم جميعا تحاسب بالقياس إلى شرعة القرآن الكريم، باعتبارها الشرعة الخاتمة؟.. وبتعبير آخر: على أي أساس يحاسب اليهود والنصارى الذين عاشوا من بعد بعثة محمد ﷺ مثلا؟.. هل يحاسبون بالقياس إلى شرعتي التوراة والإنجيل، أم يحاسبون – كما تحاسب أمة محمد ﷺ – بالقياس إلى شرعة القرآن الكريم؟..

١- تثير تلك التساؤلات مسألة غاية في الأهمية في عصرنا الراهن بكل ماتحمله معها من إشكاليات، وقد آن الأوان لأن تصل أمة محمد ﷺ إلى حل نهائي لها، بعد أن طوت أربعة عشر قرنا ونيفا من عمرها.

والمسألة هي: هل يحاسب الإنسان يوم الحساب على ماكان ضمن دائرة قدرته على الاختيار الحر، وعلى أفعاله تبعا لذلك، أم أنه يحاسب أيضا على مالم يختره وفق إرادة حرة، بل أُجبر عليه جبراً، سواء أكان ذلك بشكل مباشر، أم غير مباشر؟..

والمسألة تقودنا إلى تساؤلات أخرى مثل: هل اختار زيد من الناس شرعته التي ولد عليها بناء على إرادة حرة؟.. أم أنه ورثها إرثاً عن أبويه ومجتمعه، باعتباره قانونا اجتماعيا عاما؟..

للجواب على ماسبق نقول: يولد الإنسان على فطرة دين الله الواحد، التي فطر الناس جميعا عليها ﴿..**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم..**﴾، وأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه فيما بعد، كما يروى على لسان الرسول الكريم *. إن هذا يعني أن الإنسان

---

* " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ { ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء }. ثم

يتشرب في مرحلة الطفولة أفكار الشرعة التي نشأ وتربى على مبادئها وقيمها، فتصيغ فكره وأسلوبه في الحياة قبل أن يكون قادرا على الاختيار الحر، باعتبار ذلك كله **قانونا اجتماعيا عاما** *. وما أكثر ما يرثه الإنسان عن أبويه، وأسرته، ومجتمعه، دون أن تتاح له فرصة اختياره!!. فهو أيضا لا يختار الزمان أو المكان اللذين يولد فيهما، ولا لونه، ولا شكله، ولا جنسه، ولا لغته الأم، ولا صفاته الفيزيولوجية كلها.

وبما أن الله سبحانه صاحب العدل المطلق، لا يكلف نفسا إلا وسعها، لذلك يحشر الإنسان يوم القيامة مع الأمة التي ولد على شرعتها في الحياة، مما أدى إلى رسوخ مبادئها، وقيمها، ومثلها في نفسه، وقناعته بها، قبل أن يكون قادرا على رفضها. **فكما ولد مع أمة لم يختر أن يكون منها، فإنه يحشر يوم الحساب معها، ويحاسب بالقياس إلى شرعتها، التي فرضت عليه كرها**، لا بالقياس إلى أي شرعة أخرى.

ولذلك يقول تعالى:

**﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾** يونس ٤٧.

**﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون﴾** الجاثية ٢٨.

**﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا﴾** الإسراء ٧١.

---

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم..﴾** "، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، الحديث رقم (١٢٩٣). أخرجه مسلم في القدر.

* إن كسر القانون الاجتماعي الموضوعي هذا يحتاج إلى قوة فكرية ونفسية جبارة من الإنسان، لا تتوفر إلا في قلة قليلة من الناس غير العاديين، وهم في الغالب من المفكرين والعلماء وكبار المثقفين، ولذلك يعالج القرآن الكريم حالتهم كونها استثناء للقاعدة العامة. يأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث، بحث الإيمان بالغيب وضده الكفر.

ولذلك فإنه لا ذنب لأحد من **المؤمنين بالتوحيد** - كما أنه لا فضل له - في كونه على هذه الشرعة أو تلك، أي في كونه على شرعة التوراة، أو على شرعة الإنجيل، أو على شرعة القرآن الكريم، أو على أي شرعة أخرى، وإنما هو انتماء تسخيري بحت، لا يختاره الإنسان بنفسه اختيارا، بل يرثه إرثا. لهذا فإن أحدا من الناس لا يجزى عليه في اليوم الآخر، ثوابا كان أم عقابا.

ولا يعني ما تقدم تكريس مبدأ الإجبار ونفي الاختيار عن الإنسان، وإنما يعني إلقاء بعض الضوء على ما يمكن أن يكتسبه الإنسان من أبويه وأسرته ومجتمعه، دون أن تتاح له فرصة اختياره، وذلك كله **خارج دائرة العقيدة والعمل**، حيث يتمتع الإنسان داخلها بحريته كاملة.

٢- وإذا كان الإنسان يحشر يوم القيامة مع أمته التي ينتمي إليها، ويحاسب **بالقياس إلى شرعتها ومنهاجها في العمل**، فهل هذا يعني اختلافاً في الأسس التي يحاسب الناس جميعا عليها يوم الحساب؟..

يؤكد الذكر الحكيم أن الناس جميعا يحاسبون يوم الحساب على أساس **ميزان واحد هو الكتاب الحق/أم الكتاب**، أي على أساس قواعد الصراط المستقيم، وأولها **توحيد الله، وعدم الشرك به.**

يقول تعالى:

**﴿و<u>نفخ في الصور</u> فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ○ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع <u>الكتاب</u> وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم <u>بالحق</u> وهم لايظلمون ○ ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون﴾** الزمر ٦٨-٧٠.

**﴿الله الذي أنزل <u>الكتاب</u> <u>بالحق</u> و<u>الميزان</u> ومايدريك لعل <u>الساعة</u> قريب﴾** الشورى ١٧.

**﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾** الرحمن ٧.

**﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾** الأعراف ٨.

**﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ٥ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾** المؤمنون ٧٣-٧٤.

**﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾** الزخرف ٦١.

إن مدى التزام الإنسان بقواعد الصراط المستقيم هو الميزان الذي سيحاسب على أساسه في اليوم الآخر، مهما كانت شرعته التي انتهجها أسلوبا في الحياة. فهل استطاع المؤمن مثلا قول العدل، والوفاء بالعهد؟.. وهل أحسن لوالديه، واجتنب القتل، والفاحشة، والغش، والتزوير؟.. هل استطاع من خلال أي شرعة كانت أن يفعل ذلك؟.. فإن كان ميزان الحق في صالحه، دخل في جنات الله، وإن لم يكن كذلك، نال العذاب الذي يستحقه، إن لم يغفر الله له.

**فالناس جميعا – كما نفهم من آيات الذكر الحكيم – سيحاسبون يوم الحساب على أساس ميزان واحد حق هو الكتاب الحق/أم الكتاب**، بالرغم من تعدد الرسل الذين يتبعونهم، والشرائع التي يطبقونها. لأن الشرائع هي وسائل تطبق بها الأمم ماجاء من تعليمات محكمة منيعة في الكتاب الحق/أم الكتاب، بهدف الوصول بالمجتمعات الإنسانية إلى تحقيق الخير والصلاح.

٣- وإذا كان حساب الله للناس جميعا سيكون على أساس الكتاب الحق/أم الكتاب من جهة، وبالقياس إلى شرعة كل أمة على حدة من جهة أخرى، فهل ثمة تناقض بين المعيارين؟..

لا يوجد بالطبع تناقض بين المعيارين، طالما أن الشرائع جميعا، كما رأينا آنفا، تنبع من الكتاب الحق/أم الكتاب، ومنه تستقي مضامينها، ومعانيها، ومبادئها الفكرية، وأهدافها النهائية. ونورد فيما يلي أمثلة على ذلك:

**حدود الله** هي في شرعة القرآن الكريم حدود علاقة عادلة سامية بين الإنسان والله من جهة، وبينه وبين أفراد أسرته من جهة أخرى، لم تذكر تفاصيلها في الشرائع من قبله، حيث أن الإنسانية لم تكن قد وصلت آنذاك إلى المستويين الفكري والحضاري لتدركها، وتعيها، وبالتالي لتطبقها.

ومن خلال حدود الله يطلب تعالى من المطلقة ألا تخفي حملها خلال الشهور الثلاثة الأولى بعد الطلاق، على أساس أنه الحد السالب للعلاقة بين الزوجين، على المطلقة ألا تتجاوزه، فإن فعلت فستنال العقوبة الأخروية إن لم يغفر الله لها. إن هذا ماهو مطلوب الالتزام به ممن هي على شرعة القرآن الكريم، وهذا ما ستحاسب أيضا عليه في اليوم الآخر. والسؤال هو: هل مطلوب الالتزام بالحد نفسه ممن هي على شرعة التوراة، أو على شرعة الإنجيل، أو على أي شرعة أخرى؟..

الجواب: نعم، مطلوب أيضا ممن هي على شرعة التوراة، أو على شرعة الإنجيل، أو على أي شرعة أخرى، ألا تخفي حملها خلال الشهور الثلاثة الأولى بعد الطلاق، فإن فعلت فستنال العقوبة الأخروية إن لم يغفر الله لها، **حتى ولو لم تكن حدود العلاقة تلك مذكورة بالتفصيل في شرعتها التي تتبعها**. بيد أنه من المهم التأكيد على أن **عقابها لا يكون من باب عدم اتباعها لشرعة القرآن الكريم بالذات، واتباعها لشرعة أخرى غيرها**، لأنها ليست مكلفة بذلك أصلا حسب مشيئة الله ﴿**..لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا..**﴾، ولكن **من باب ضرورة الالتزام بالقول العدل ولو كان ذا قربى**، وهو القاعدة الثامنة من قواعد الصراط المستقيم (الموجودة في جميع الكتب المقدسة)، حيث أن عدم تصريحها بحملها، هو مجانبة للقول العدل، وتزوير للحقائق.

والمثال نفسه ينطبق على الحدود الأخرى. فتوزيع الإرث بالعدل، ومنع هجر الزوج لزوجه هجرا تاما على سبيل المثال، حدود مطلوب تنفيذها من الناس في ظل الشرائع الأخرى، وسيحاسبون في اليوم الآخر على تجاوزها إن لم يغفر الله لهم، وذلك من باب ضرورة التزامهم بقواعد الصراط المستقيم، حيث أنها تفصيلات وبيان له، وليس من باب عدم اتباعهم لشرعة القرآن الكريم بالذات. فتوزيع الإرث بالعدل هو من تفصيلات القاعدة السابعة من قواعد الصراط المستقيم ﴿**..وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها..**﴾، ومنع هجر الزوج لزوجه هجرا تاما هو من تفصيلات القاعدة التاسعة من قواعد الصراط المستقيم ﴿**..وبعهد الله أوفوا..**﴾، حيث يعاهد الزوج زوجه قبل الزواج على المعاشرة الزوجية.

وهكذا الحال بالنسبة للأحكام الأخرى: فحتى لو اختلفت أحكام القتل، والزنى، وشهادة الزور مثلا فيما بين الشرائع السماوية، إلا أن القاتل يسأل يوم الحساب عن ارتكابه فعل القتل، كما يسأل الزاني عن ارتكاب فعل الزنى، وشاهد الزور عن شهادته، سواء أكانوا على شرعة التوراة، أم على شرعة الإنجيل، أم على شرعة القرآن الكريم، وذلك لمخالفتهم ما جاء في الصراط المستقيم من نهي عن القتل بقوله تعالى ﴿**..ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق..**﴾ *، ومن نهي عن الزنى بقوله تعالى ﴿**..ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن..**﴾، ومن نهي عن شهادة الزور بقوله تعالى ﴿**..وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى..**﴾.

والحال نفسه ينطبق أيضا على أحكام الفرائض الأربع: فلأمة موسى، ولأمة عيسى، وللأمم الصابئة الحرية في أن تصلي وتصوم كل كما جاء في شرعتها، وعلى أمة محمد ﷺ أن تصلي وتصوم كما جاء في شرعة القرآن الكريم. أما ما سيُسألون عنه جميعا يوم الحساب، فهو: هل نهتهم صلاتهم عن فعل الفحشاء والمنكر، أم لا؟.. وهل أثمرت عن ذكر الله، وعن تحري تعاليمه من خلال عملهم وسلوكهم، أم لا؟.. وهل وقاهم صومهم فعل الذنوب

---

* أذكر هنا على سبيل المثال أن أصحاب الشرائع السماوية جميعا يحاربون فكرة الإجهاض.

والسيئات، أم لا؟.. وهل أثمر عن الإحسان قولا وعملا، أم لا؟ *. أي أن ما سيُحاسب الناس عليه يوم الحساب سيكون، والله أعلم، تأسيسا على مدى فهمهم وتنفيذهم **لمضمون الفرائض الأربع ومعناها.**

ولذلك يقول تعالى:

**﴿<u>ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله</u> على مارزقهم من بهيمة الأنعام <u>فإلهكم إله واحد</u> فله أسلموا وبشر المخبتين﴾** الحج ٣٤.

**﴿<u>لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه</u> فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى <u>هدى مستقيم</u>﴾** الحج ٦٧.

**ومن هنا يدعو القرآن الكريم الناس جميعا – متبعي الشرائع المتعددة على وجه الأرض – إلى اتباع شرعة القرآن الكريم، باعتبارها تشمل التفصيلات الأهم، والتطبيقات المثلى للكتاب الحق/أم الكتاب، حيث تصل البعد الروحي للدين بالواقع المادي المعاش للإنسانية في كل زمان، وفي كل مكان. كما تولي أهمية متساوية لكل من الروح والجسد، وللحياة الدنيا وللحياة الآخرة على حد سواء **.**

**بيد أنه من المهم التأكيد على أن الناس لا يُتهمون بالكفر لعدم اتباعهم شرعة القرآن الكريم، وكل يحاسب يوم الحساب بالقياس إلى شرعة أمته التي ينتمي إليها. أما الأساس الذي يحاسب الناس جميعا عليه فهو الكتاب الحق/أم الكتاب، الواحد، الأصل، الذي يحدد لبني البشر أسس معرفتهم اليقينية وأهدافهم النهائية، التي تتركز جميعا في ممارسة العمل الصالح واجتناب العمل الفاسد، انطلاقا من توحيد الله عقيدة.**

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

** ربما يكون هو المجال الوحيد في زماننا المعاصر الذي تتفوق به مجتمعات القرآن الكريم على المجتمعات الأخرى، حيث مازالت القيم الإنسانية والروحية فيها أعلى وتيرة وأكثر قبضا على زمام الأمور، ومثال ذلك تماسك نظام الأسرة فيها، وشيوع صلة الرحم وخاصة بر الوالدين .. إلخ.

٤- إن من يقول من المسلمين إن أمم الرسل السابقين لمحمد ﷺ لم يعد لها وجود على وجه الأرض، وإنه لم يبق عليها سوى أمة محمد ﷺ، وصولا إلى الحكم بأن الناس جميعا - من بعد بعثة محمد ﷺ - سيحاسبون على أساس شرعة القرآن الكريم، إن هؤلاء قد غفلوا عن قوله تعالى في وصف أمة ابراهيم، واسماعيل، واسحاق، ويعقوب عليهم السلام:

**﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ○ تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** البقرة ١٣٣-١٣٤. أي أنها أمة قد خلت من الوجود، فلم يعد لها وجود.

وهذا ما لم يصف به تعالى أمتي موسى وعيسى عليهما السلام، بل وصفهما في مجمل الكتاب بأنهما أمّتان من أهل الكتاب حيّتان على وجه الأرض، وأن على أمة محمد ﷺ الاعتراف بوجودهما، والتعامل معهما بالقسط، والعدل.

وبناء عليه، أطرح أهم مفهوم في الكتاب على بساط البحث، ألا وهو مفهوم **الإيمان**، الذي طلب الذكر الحكيم من الإنسانية كلها تمثله فكرا، وعملا.

# مصادر ومراجع الفصل الثاني


(١) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٢) المصدر السابق.

(٣) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(٤) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٥) " القرضاوي في لقاء مفتوح بمعرض الكتاب "، **جريدة الوطن القطرية**، العدد (٤٧٦)، الدوحة، قطر، ١٩٩٦/١٢/٢٢م.

(٦) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٧) مصدر سابق، **صحيح البخاري**، المجلد الثالث، كتاب الوصايا وقول النبي ﷺ (وصية الرجل مكتوبة عنده)، الحديث رقم (٢٦٠٢).

(٨) الصابوني، محمد علي، **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن**، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، الجزء الأول، ص: ٩٨.



# الفصل الثالث

## الإيمان بالغيب والعمل الصالح

أنطلق في كل بحث من مسلمة أساسية مفادها أن الله هو الرحمن الرحيم، صاحب **العدل المطلق**، الذي يشمل عدله الناس جميعا، **فلا يكلف نفسا إنسانية بما ليس في وسعها اختياره وفق إرادة حرة**، وبالتالي بما ليس في وسعها تحقيقه.

وعليه، لو أن زيدا من الناس يعيش في الأسكيمو، أو في مجاهل إفريقية، أو في أي مكان آخر من العالم، يؤمن بالله الواحد وباليوم الآخر، وبالكتاب الحق/أم الكتاب، على ملة إبراهيم عليه السلام، من خلال أي شرعة من الشرائع، بيد أنه لم يسمع عن القرآن الكريم، ولا عن محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله ونبيه، أي أنه لم يعلم بوجودهما، ولم يصدّق بهما، فكيف يمكن أن يكون حساب الله له على أعماله في اليوم الآخر؟.. وهل سيعتبره مؤمناً أم كافراً؟.. وعلى أي أساس؟...

أو لنفترض أن زيدا سمع عن المسلمين والإسلام (بالمعنى الشائع للكلمتين)، أمة تخلف فكري واجتماعي، ودين إرهاب سياسي – كما تقدمه اليوم وسائل الإعلام العالمية، التي تسيطر على أدمغة العالم في كل مكان – فمن المنطقي والحال عليه ألاّ يصدّق بالقرآن الكريم، ولا بمحمد ﷺ رسول الله ونبيه، وعليه فكيف يمكن أن يكون حساب الله له على أعماله في اليوم الآخر؟.. وهل سيعتبره مؤمناً أم كافراً؟..وعلى أي أساس؟..

أو لنفترض أن زيدا يتكلم لغة لم يترجم الذكر الحكيم إليها بعد، أو أنه ترجم إليها ترجمة حرفية، لا تظهر حقيقة معانيه ومبادئه الفكرية الكلية، كما هو الحال وأغلب الترجمات المتداولة، لذلك فإن زيداً لم يعلم المضمون الحقيقي للذكر الحكيم رغم أنه يعلم بوجوده، ولم يصدّق به ولا بمحمد ﷺ

رسول الله ونبيه، فكيف سيكون حساب الله له على أعماله في اليوم الآخر؟.. وهل سيعتبره مؤمناً أم كافراً؟..وعلى أي أساس؟..

أجيب على تلك التساؤلات الهامة بالقول:

طالما أن الكتاب الحق/أم الكتاب هو دستور الكتاب، أي أصله ومرجعه وأمه، الذي أوحي إلى الإنسانية مع بعثة إبراهيم عليه السلام، ثم أعيد الوحي به كما هو إلى موسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام أجمعين..

وطالما أن الشرائع الإسلامية الثلاث الموجودة في التوراة، والإنجيل، والقرآن، تستمد من الكتاب الحق/أم الكتاب أحكامها ومبادئها الفكرية، ولا تخرج عنه أبداً..

وطالما أنه تعالى لم يكلف نفساً إنسانية بما ليس في وسعها، وأن الإنسان يرث شرعته إرثاً عن أبويه، ولا يختارها بنفسه بناء على إرادة حرة على وجه العموم، وقد شرّع الله الاختلاف بين الأمم باعتباره قانوناً اجتماعياً عاماً ﴿..**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة..**﴾ *..

لذلك فإن **كل من يؤمن بالكتاب الحق/أم الكتاب، على ملة إبراهيم عليه السلام، مسلم مؤمن أمام الله، سواء أكان على شرعة التوراة، أم على شرعة الإنجيل، أم على شرعة القرآن الكريم، أم على أي من شرائع الصابئة، أم كان من الأميين.** إن هذا يعني أن الذكر الحكيم لم يشترط التصديق بشرعة محمد ﷺ بالنسبة لأهل التوراة، والإنجيل، والصابئة، والأميين، كي يكونوا مسلمين مؤمنين. ذلك أن **إيمانهم بالكتاب الحق/أم الكتاب هو في حقيقة الأمر إيمان بدستور القرآن الكريم، أي دينه الحق،**

---

* مرّ تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

**القيم على الدين كله، وأمه، سواء أعلموا بذلك أم لم يعلموا، وسواء أصدقوا به بلسانهم أم لم يصدقوا** *.

فلو آمن زيد بالله الواحد وباليوم الآخر وهو على شرعة التوراة، أو على شرعة الإنجيل، أو على أي من شرائع الصابئة، أو كان من الأميين، واتخذ قواعد الصراط المستقيم العشر دستورا له في الحياة، فأحسن لوالديه، واجتنب القتل والفاحشة، وأوفى الكيل والميزان بالقسط، وقال العدل، وأوفى بعهد الله إلخ.. إنما يكون بإيمانه وعمله هذا مسلما، مؤمنا بدستور القرآن الكريم، سواء أعلم بهذا أم لم يعلم، وسواء أصدق به بلسانه أم لم يفعل.

إن المعطيات الكلية للذكر الحكيم تؤكد أن الأهمية تعطى دائما لمضمون العقيدة، لا لشكلها، لهذا نجده يخاطب الإنسانية باستمرار بـ ﴿**ياأيها الذين آمنوا..**﴾ وليس بـ (ياأيها الذين أسلموا..)، مما يعطي خطابه البعد الإنساني المطلوب، الموجه على وجه العموم إلى كل من آمن بالله واليوم الآخر بقلبه، أي صدّق عمله إسلامه من خلال أي شرعة كانت، لا لمن أسلم باللسان.

ويأتي تفصيل ذلك من خلال الفقرات التالية.

---

* مرّ تفصيل ذلك في الفصل الأول، بحث أم الكتاب.

## الإيمان بالغيب وضده الكفر:

عندما أُرسل نوح إلى قومه دعاهم إلى الإيمان بالله الواحد واليوم الآخر، وهكذا فعل إبراهيم، وداوود، وسليمان، واسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وعيسى، وزكريا، ويحى، والياس، واليسع، ويونس، والأنبياء، والرسل جميعا. والسؤال هو: هل تغير مفهوم الإيمان مع بعثة محمد ﷺ، أم أن الإيمان بالغيب بقي في الذكر الحكيم أساساً لعقيدة المسلم؟..

اشتقت كلمة (الإيمان) من الفعل (أمن)، وله " أصلان صحيحان: الأول من الأمان وهو **سكون القلب**، والثاني من **التصديق بالشيء** " (١). ويجمع الإيمان بالغيب معنى الأصلين كليهما، فهو **التصديق** بوجود الله الواحد واليوم الآخر، مما يؤدي بالضرورة إلى **سكون القلب**، وإحساس الإنسان بالأمان والطمأنينة. يقول تعالى:

﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ الرعد ٢٨.

إن تصديق الإنسان بوجود القوّة الإلهية الكبرى خارج النظام المادي للكون، التي ترقب أعمال الناس جميعا وتحاسبهم عليها يوم الحساب (الله)، يمنح وجوده معنى متسامياً مفتوحاً على المطلق، خصوصا في مواجهة ظواهر الكون العامة، كالموت، والحياة، كما يجيب على أسئلة الإنسان الحائرة في كل زمان، حول نزوعه الفطري الدائم نحو الخلود.

أما (الغيب) فهو مصدر الفعل (غيب)، " وهو أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون.. والغيب: ماغاب مما لا يعلمه إلا الله " (٢). **وغيب الله** هو كل ما أراده الله أن يغيب عن مدارك الإنسان الحسية وعن قدراته المعرفية بشكل مطلق، وهو كنه **الله نفسه، الذي ليس كمثله شيء، واليوم الآخر**. ويعبر عنه الفلاسفة بقولهم **ماوراء المادة**.

والإيمان في الذكر الحكيم يعني بشكل أساسي **الإيمان بالغيب**، وهو **الإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر**.

يقول تعالى:

**﴿ألم ○ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ○ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوٰة ومما رزقناهم ينفقون﴾** البقرة ١-٣.

**﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾** البقرة ١٢٦.

**﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكوٰة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ○ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** التوبة ١٨-١٩.

**﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابؤون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** المائدة ٦٩.

**﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** البقرة ٦٢.

**﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾** آل عمران ١٩٣.

**﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ○ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ○ والذين يقولون ربنا**

اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما o إنها ساءت مستقرا ومقاما o والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما o والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما o يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا o إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾ الفرقان ٦٣-٧٠.

﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما﴾ النساء ٣٩.

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون o يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ آل عمران ١١٣-١١٤.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العنكبوت ٣٦.

﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ الممتحنة ٦.

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين﴾ البقرة ٨ .

﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ الحجر ٢.

﴿ولله مافي السماوات ومافي الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله مافي السماوات ومافي الأرض وكان الله غنيا حميدا﴾ النساء ١٣١.

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند اللـه وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾ التوبة ٩٩.

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ البقرة ٢٥٦.

﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين﴾ التوبة ٤٤.

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ الأحزاب ٢١.

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ النور ٢.

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ البقرة ٢٣٢.

﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ الطلاق ٢.

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ○ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ البقرة ١١١-١١٢.

**﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾** النساء ١٢٥.

ومن خلال دراسة الآيات الكريمة ومجمل الذكر الحكيم، نستنتج مايلي:

١- لم يتغير مفهوم **الإيمان بالغيب - باعتباره العقيدة الأساسية للمسلم -** مع تتالي ابتعاث الأنبياء، والرسل، والمبشرين، والمنذرين على مر العصور *.
إن المفهوم الأساسي **للإيمان في الذكر الحكيم هو الإيمان بالغيب، أي الإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر على ملة إبراهيم عليه السلام**، أي **التوحيد**. إنها العقيدة الأساسية التي طلب تعالى من الإنسانية تمثلها منذ أن أوحى إلى نوح عليه السلام، مرورا بالأنبياء، والرسل، والمبشرين، والمنذرين جميعاً، ومن بينهم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وحتى محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل. أي أنها العقيدة الأساسية التي يطلب الذكر الحكيم من المسلم تمثلها، سواء أكان على شرعة التوراة، أم على شرعة الإنجيل، أم على شرعة القرآن الكريم، أم على أي من شرائع الصابئة، أم كان من الأميين.

إن الخطاب في الآيات المذكورة عام في المؤمنين جميعا على اختلاف شرائعهم **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ..○ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس..﴾** الذين هم على ملة إبراهيم عليه السلام **﴿وإذ قال إبراهيم .. من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ..﴾**، ومن بينهم أمتا موسى وعيسى عليهما السلام **﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة.. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف..﴾**، وأمة محمد ﷺ **﴿الزانية والزاني.. إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر..﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء.. من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر..﴾ ﴿فإذا بلغن أجلهن.. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..﴾**، وأمم الصابئة **﴿إن الذين**

---

* ركزت دعوة إبراهيم - ومن بعده موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام - على مفهوم اجتناب الشرك بالله، بينما ركزت دعوة الأنبياء والرسل السابقين على مفهوم الإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر (أنظر الآيات من ١٠٦ - ١٨٠ من سورة الشعراء، ومن ٢١ إلى ٢٣ من سورة نوح، ومن ٢٣ إلى ٢٦ من سورة المؤمنون)، والمفهومان يعنيان التوحيد.

**آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا..﴾.**

**والكفر هو عكس الإيمان بالغيب**، أي **تغطية الحق وستره في النفس الإنسانية**، التي تمتلك المعرفة المسبقة به، أي التي تؤمن بالله وباليوم الآخر بالفطرة *. يقول معجم مقاييس اللغة " الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية.. والكفر: ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق ".

ولذلك يؤكد تعالى لرسوله الكريم أنه لن يؤمن برسالته إلا من كان مؤمنا بالغيب ابتداء.

يقول تعالى:

**﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ** ○ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ○ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ○ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾** البقرة ٦-٩.

وكما أن تغطية الحق وستره في النفس الإنسانية كفر، فإن الشرك بالله كفر أيضا. **والشرك هو إضفاء صفات الألوهية، كالخلق، والحساب، وماشابه على غير الله من الأشياء أو الكائنات**، وبالتالي **إشراك مثل أعلى آخر مع الله الواحد في عبادته**، حتى ولو كان ذلك هو الملائكة والنبيين ***.

---

* راجع الفصل الثاني، بحث أمة الفطرة.

** يقول الطبري في جامع البيان في تفسير القرآن في تفسير الآية " كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله جل ثناؤه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول ".

*** يأتي تفصيل ذلك في بحث العمل الصالح وعبادة الله.

يقول تعالى:

﴿**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**﴾ آل عمران ٨٠.

﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ومالظالمين من أنصار ○ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب إليم**﴾ المائدة ٧٢-٧٣.

وبما أن الإيمان بالغيب هو العقيدة الأساسية للمسلم في ظل الشرائع السماوية جميعا، وعكسها الكفر، لذلك يقول تعالى:

أ- ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ○ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ○ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**﴾ آل عمران ١٨-٢٠.

دين الله الواحد هو دين الإسلام، والشهادة أنه لا إله إلا الله واحدا لا شريك له هي العقيدة الأساسية للمسلم، والقاعدة الأولى من قواعد الصراط المستقيم. وبما أن الخلاف بين المؤمنين لم يكن إلاّ من بعد ما جاءهم علم الشرائع ﴿**.. وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم..**﴾ لذلك ينصح تعالى رسوله الكريم ألا يحاجّ أهل الكتاب بشرعة القرآن الكريم في حال اختلافه معهم، وإنما يحيلهم إلى أصل الدين الاسلامي، ودستوره، وأول قواعده، وهو الإيمان بالغيب ﴿**..فقل أسلمت وجهي لله..**﴾.

فإن أعلنوا إيمانهم به فقد اهتدوا إلــى الديـن الحـق، وإلا فاللـه بصـير بـأحوال العباد، وما على الرسول سوى البلاغ.

ولهذا يدعـو تعـالى الذيـن أوتـوا الكتـاب إلـى الإيمـان بالكتـاب الحـق/أم الكتاب، الذي نزل على محمد ﷺ مصدّقـا، أي مقويّـا ومثبّتـا، للكتـاب الحـق الذي نزل إليهم من قبل، ومايزال موجودا بين أيديهم.

يقول تعالى:

**﴿ياأيها الذين أوتوا الكتــاب آمنـوا بمـا نزلنــا مصدقـا لمـا معكـم مـن قبـل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكـان أمر الله مفعولا ○ إن اللـــه لا يغفـر أن يشـرك بـه ويغفـر مـادون ذلـك لمـن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾** النساء ٤٧-٤٨.

الشرك بالله هو فقط ما لا يغفره تعالى لعبـاده، بالإضافـة إلـى الكفـر بـه بالضرورة. أما ماعدا ذلك، بمــا فيـه التصديـق ببعـض الشـرائع دون البعـض الآخر، فإنما يقع ضمن دائرة رحمة و**مغفرة الله** *، الذي لم يكلـف نفسـا بمـا ليس في وسعها تمثله فكرا وعملا **﴿لايكلف اللــه نفسـا إلا وسـعها..﴾ ﴿ولـو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفيـن﴾** هود ١١٨. ولـو أنـه تعالى يطلب من أهل الكتاب الإيمان بمجمل الذكـر الحكيـم، أي بمـا فـي ذلـك شرعة محمد ﷺ - وأكثرهم لـم يفعـل ذلـك حتـى الآن - لطمـس فعـلا علـى وجوههم، وردها على أدبارهم، أو للعنهم كما لعن أصحاب السبت، وهذا هـو بالتحديد ماهددهم تعالى بفعله **﴿..وكان أمر الله مفعولا﴾**.

ويتفق مع هذا ما روي عن أنس رضـي اللــه عنـه، عـن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: { قال الله تعالى: يا ابـن آدم إنـك مـا

---

* الغفار اسم من أسماء الله الحسنى، وهو كذلك من قبل أن يكلف الإنسان أيمـا تكليـف، بـل مـن قبـل أن يوجد الإنسان أصلا. لذلك فإنه انطلاقا مـن مغفرتـه تعـالى التـي وسـعت كـل شـيء، لـم يكلـف مؤمنـا بالغيب على وجه العموم الإيمان بما ليس في وسعه الإيمان به.

دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو **بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك**، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني **لا تشرك بي شيئا** لأتيتك بقرابها مغفرة } "، رواه **الترمذي** وقال: حديث حسن صحيح.

أما الذين لعنهم الله من أهل الكتاب فهم الذين آمنوا بالجبت والطاغوت. يقول تعالى:

**﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ○ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾** النساء ٥١-٥٢.

وعليه، يخصص تعالى - في الآية ٤٨ من سورة النساء - ما أهل الكتاب مكلفون بالإيمان به من مجمل الذكر الحكيم، وهو الكتاب الحق/أم الكتاب، الذي أنزله تعالى إلى محمد ﷺ مصدّقا لما معهم. أما الكفار منهم فهم الذين يكفرون بذلك، ويشركون بالله، حيث لا يغفر الله أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء من العباد.

ب- ويقول تعالى أيضا:

**﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتي موسى وعيسى وماأوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ○ فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ○ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ○ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾** البقرة ١٣٥ - ١٣٩.

الخطاب في الآيات الكريمة أمر موجه إلى محمد ﷺ في قوله ﴿..**قل** ..﴾، وإلى المسلمين على شرعة القرآن الكريم في قوله ﴿..**قولوا**..﴾، وبصيغة المتكلم عن أمة محمد ﷺ في قوله ﴿..**ماأنزل إلينا**..﴾ ردا على دعوة اليهود والنصارى. حيث يأمرهم تعالى جميعاً أن يكونوا على ملة إبراهيم، وأن يؤمنوا بما أنزل إليهم، وبما أنزل إلى الرسل والأنبياء جميعا **من قبلهم**، أي بما في ذلك شرعتا التوراة والإنجيل. أما إن آمن اليهود والنصارى بمثل ما آمن به المسلمون من أمة محمد ﷺ، أي بما في ذلك شرعة القرآن الكريم، فقد اهتدوا إلى الشرعة التي ستنظم شؤون دنياهم المستجدة، التي أنزلها تعالى لتتناسب والتطور الفكري والحضاري للمجتمعات الإنسانية، وإن تولوا عن ذلك فإنما هم في شقاق، أي في خلاف مع أمة محمد ﷺ *. نلاحظ من الآيات الكريمة أن الله لم يعتبر الذين أوتوا الكتاب كفارا، حيث لم يؤمنوا بمجمل ما أنزل إلى محمد ﷺ، أي بما في ذلك شرعة القرآن الكريم، وإنما اعتبرهم في شقاق ﴿..**وإن تولوا فإنما هم في شقاق**..﴾ أي في خلاف دنيوي مع أمة محمد ، يتعلق بالشرائع، وهي الأنظمة والقوانين التشريعية التي تنظم الأمور الدنيوية للمجتمعات الإنسانية ﴿..**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾. لذلك يؤكد تعالى أن المقياس الفاصل فيما بين المسلمين، متبعي الشرائع السماوية جميعا، هو الإيمان بالغيب من جهة، والالتزام بالعمل الصالح من جهة أخرى ﴿**قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**..﴾.

ت- ويقول تعالى أيضا:

**﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ○ أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ○ والذين آمنوا بالله**

---

* يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة " الشين والقاف أصل واحد صحيح يدل على انصداع في الشيء.. ومن الباب: الشقاق، وهو الخلاف، وذلك إذا انصدعت الجماعة وتفرقت. يقال: انشقت عصا القوم بعد التئامها، إذا تفرق أمرهم " .

**ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾** النساء ١٥٠-١٥٢.

تصف الآيات الكريمة فريقا بعينه من الكفار بأنهم كفار حقيقيون. وهم كفار لأنهم يكفرون بالله أولا ﴿..**يكفرون بالله**..﴾ وبرسله ثانيا ﴿..**وبرسله**..﴾. وكفار حقيقيون أي مغالون في الكفر ﴿..**الكافرون حقا**..﴾ لأنهم لا يتركون المؤمنين أصحاب الشرائع السماوية وشأنهم، بل يريدون أن يفرّقوا شملهم، بقولهم نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم الآخر، أي نؤمن ببعض الشرائع ونكفر بالبعض الآخر. وعليه فالكلام في الآيتين ١٥٠ و ١٥١ لا يخص فريق المؤمنين بالغيب، بل الكافرين به وبالرسل جميعاً. أما الآية ١٥٢، فالخطاب فيها يخص المؤمنين بالغيب أولا ﴿**والذين آمنوا بالله**..﴾، وبالرسل ثانيا دون تفريق بين رسول وآخر ﴿..**ورسله ولم يفرقوا بين أحد من رسله**..﴾. وتحمل الآية معنى ضمنيا يقضي بوجود فريق آخر يؤمن بالغيب وببعض الرسل دون البعض الآخر، أي يفرّق بين رسول وآخر. فأما الفريق الأول، الذي يؤمن بالله وبرسله جميعا، ولا يفرّق بين أحد من رسله، فيعدهم الله بأنه سيؤتيهم أجورهم التي يستحقوها، ولم يتهم تعالى الفريق الثاني بالكفر، بل أنهى الآية بقوله ﴿..**وكان الله غفورا رحيما**﴾. ذلك أن الله صاحب العدل المطلق لايكلف نفسا إلا وسعها، وإن عدم التصديق ببعض الرسل والكتب السماوية من قبل بعض المؤمنين بالغيب وبما نزل إلى رسلهم يرجع في الغالب – كما مرّ بنا – إلى أسباب تربوية، أو لعدم العلم بالشيء، أو لوصول الفكر الديني عادة بصورة خاطئة إلى الأمم الأخرى، أو لأي سبب آخر مما لا يستطيع الإنسان من العامة دفعه. لذلك فإنه انطلاقا من رحمته تعالى ومغفرته اللتين وسعتا كل شيء، لم يكلف الفريق الثاني التصديق بما ليس في وسعه التصديق به.

ويتفق مع ذلك كله ما روي في **صحيح البخاري** على لسان الرسول الكريم من تأكيد على الإيمان بالغيب، باعتباره العقيدة الأساسية للمسلم:

" قال النبي ﷺ: { يخرج من النار من قال **لا إله إلا الله** وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ويخرج من النار من قال **لا إله إلا الله** وكان في قلبه

من الخير ما يزن برّة، ويخرج من النار من قال **لا إله إلا الله** وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرّة } "، كتاب التوحيد، الحديث رقم (٦٩٧٥). أخرجه مسلم في الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " { أمرت أن أقاتل الناس حتى **يقولوا لا إله إلا الله**، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله } "، كتاب الزكاة، الحديث رقم (١٣٣٥). أخرجه مسلم في الإيمان.

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: " { أتاني جبريل عليه السلام، فقال: من مات من أمتك **لا يشرك بالله شيئا** دخل الجنة }، قلت: وإن فعل كذا وكذا.. قال: { نعم } "، كتاب الاستقراض، الحديث رقم (٢٢٥٨).

" حدثنا مسدد قال: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي قال: سمعت أنسا قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: { **من لقي الله لا يشرك به شيئا** دخل الجنة }. قال: ألا أبشر الناس ؟ قال: { لا، إني أخاف أن يتكلوا } "، كتاب العلم، الحديث رقم (١٢٩).

" عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: { يامعاذ، هل تدري ما حقّ الله على عباده، وما حقّ العباد على الله ؟ }، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: { فإن حقّ الله على العباد أن **يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**، وحقّ العباد على الله أن لا يعذب من **لا يشرك به شيئا** }، فقلت يارسول الله: ألا أبشر به الناس ؟ قال: { لا تبشرهم، فيتكلوا } "، كتاب الجهاد، الحديث رقم (٢٧٠١). أخرجه مسلم في الإيمان *.

---

* والسؤال: هل بشّر معاذ بالحديث أم لا ؟.. فإن لم يفعل - كما أمره رسول الله ﷺ - فكيف انتقلت الرواية إلينا ؟..

"-عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فقال: { **قل لا إله إلا الله**، كلمة أحاجّ لك بها عند الله } "، كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم (٦٣٠٣).

" عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ كلمة وقلت أخرى: { من مات **يجعل لله ندّا** أُدخل النار }. وقلت أخرى: من مات **لا يجعل لله ندّا** أُدخل الجنة "، كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم (٦٣٠٥).

" حدثنا أبو ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما يحدث قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال: فلما غشيناه **قال: لا إله إلا الله**، قال: فكفّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، قال: فقال لي: { يأسامة، أقتلته بعدما **قال لا إله إلا الله** }، قال: قلت يارسول الله: إنما كان متعوّذا، قال: { أقتلته بعدما **قال لا إله إلا الله** }. قال: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم "، كتاب الديات، الحديث رقم (٦٤٧٨).

" عن زيد بن خالد قال: مطر النبي ﷺ فقال: { قال الله: أصبح من عبادي كافر بى **ومؤمن بي** } "، كتاب التوحيد، الحديث رقم (٧٠٦٤).

" عن أبي هريرة أنه قال: قيل: يارسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ.. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من **قال لا إله إلا الله**، خالصا من قلبه، أو نفسه "، كتاب العلم، الحديث رقم (٩٩).

ويروى في **صحيح مسلم** "حدثنا موسى الجهني عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: علمني كلاما أقوله. قال: { **قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم** } "، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، الحديث رقم (٢٦٩٦).

كما يروى في **رياض الصالحين** عن الرسول الكريم ﷺ قوله : " { إن الله قد حرم على النار من **قال لا إله إلا الله** يبتغي بذلك وجه الله } " متفق عليه، الحديث رقم (٤٢٢).

٢- ما جاء من شرح لمفهوم الإيمان بالغيب في الفقرات السابقة **يخص عامة المؤمنين من أهل الكتاب**. أما **الراسخون في العلم منهم، والمفلحون المهتدون، والأبرار، والصديقون، والشهداء**، فهم يؤمنون فعلا بمجمل ما نزل على محمد ﷺ، بما في ذلك شرعة القرآن الكريم، وذلك لرسوخهم في علم الشرائع، ولعلمهم أن الكتاب الحق/أم الكتاب هو مصدرها جميعا، وأنه موجود في الذكر الحكيم، كما هو موجود في كتبهم المقدسة.

أ- يقول تعالى في معرض الحديث عن اليهود:

**﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلوٰة والمؤتون الزكوٰة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾** النساء ١٦٢.

العلم في الآية الكريمة هو علم الشرائع * . والراسخون في علم الشرائع من اليهود، أي الذين يعلمون مصادرها ومبادئها الفكرية وأهدافها العامة، يؤمنون بمجمل ما أنزل إلى محمد ﷺ، بما في ذلك شرعة القرآن الكريم، **تماما كما** يؤمن المؤمنون برسالة محمد ﷺ بما أنزل **من قبلها** من شرائع، بما في ذلك شرعتا التوراة والإنجيل، حيث أن العطف في قوله تعالى **﴿..لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون..﴾** هو من باب عطف المتشابهات. ولا يمكن أن يكون المؤمنون المعنيون هم المؤمنون بالغيب من

---

* يقول تعالى ﴿.. وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم..﴾، أي لم يختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد نزول علم الشرائع.

أهل الكتاب، لأن المؤمنين بالغيب ذكروا بشكل منفصل في آخر الآية في قوله تعالى ﴿..**والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما**﴾.

أما لماذا يؤتي تعالى الراسخين في العلم من أهل الكتاب أجرا عظيما، فلأنهم سيرشدون أهل الكتاب إلى الشرعة التي ستدلهم على القوانين التشريعية الهامة، والتوجيهات العامة، التي تتناسب والظروف التي استجدت على المجتمعات الإنسانية من بعد بعثتي موسى وعيسى عليهما السلام.

ب- ويقول تعالى أيضا:

**﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون ○ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ○ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون○ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾** الأعراف ١٥٦-١٥٩.

يدعو الله **الناس جميعا - وخصوصا الذين هادوا منهم - للدخول في شرعة القرآن الكريم،** لأنها تتضمن القوانين التشريعية والتوجيهات العامة الجديدة، التي تتناسب والمعطيات الزمانية والمكانية للمجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان على وجه العموم. ولأنها تحلّ للذين هادوا الطيبات، وتحرّم عليهم الخبائث، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وهي جميعا أمور متعلقة بالحياة الدنيا. فأما الذين يدخلون فيها، فهم من المفلحين المهتدين إلى القوانين التشريعية المثلى، التي تنظم شؤونهم الدنيوية، مما يقودهم إلى الفلاح في الحياة الأخرى كذلك. **ولم تتهم الآيات الكريمة**

الفريق الثاني الذي يعرض عن ذلك بالكفر، بل قالت ﴿**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾. إن فلاح وهداية المؤمنين الذين يتبعون شرعة القرآن الكريم من أهل الكتاب ﴿**..أولئك هم المفلحون**﴾ لا ينفي ذلك عن عامة المؤمنين منهم، بدليل قوله تعالى:

﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون**﴾ التوبة ٨٨. سيفلح الرسول الكريم والذين آمنوا معه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ويدخلون جميعا جنات الله. ولكن هذا لا يعني نفي صفة الفلاح عن غيرهم من المؤمنين.

﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ آل عمران ١٠٤. لو أن الآية تعني أن الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، هم فقط المفلحون في الحياة الأخرى، لأمر تعالى الأمة كلها أن تكون كذلك، لا أمة منهم فقط، أي بعضهم. أي إن قوله تعالى ﴿**..وأولئك هم المفلحون**﴾ لا يعني نفي صفة الفلاح عن غيرهم من المؤمنين.

ت- ويقول تعالى أيضا:

﴿**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾ الحديد١٩.

**الصديقون والشهداء** من أهل الكتاب هم الذين يؤمنون بالله وبرسله جميعا، ومن بينهم محمد ﷺ. أما الذين كفروا منهم، فهم الذين كفروا بالله وباليوم الآخر، **وكذبوا بآيات الله جميعا**، أي بكل ما أنزله تعالى على أنبيائه ورسله. وأمة محمد ﷺ غير معنية بالخطاب في الآية الكريمة، لأن الإيمان

بالرسل جميعا هو ركن مضاف إلى أركان عقيدتهم * ، لا صفة تجعل المؤمنين منهم صديقين أو شهداء.

ث- أما الأبرار، الصادقون، المتقون من المؤمنين في ظل الشرائع السماوية جميعا، فيصفهم تعالى بقوله:

**﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوٰة وآتى الزكوٰة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾** البقرة ١٧٧.

الخطاب في الآية الكريمة يعني فريقا بعينه من المؤمنين، وهم الأبرار، الصادقون، المتقون منهم، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، والملائكة، و**الكتاب الحق/أم الكتاب**، ويؤتون المال على حبه، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوفون بالعهود، والصابرون في البأساء والضراء.. إلخ. ونلاحظ أن الرسول الكريم محمد ﷺ معني في الآية الكريمة على مستوى النبوة **﴿..والنبيين..﴾** لا على مستوى الرسالة، ولذلك ذكر تعالى الكتاب الحق **﴿..والكتاب..﴾** الذي أنزل إلى الأنبياء والرسل جميعا كتابا واحدا، متطابقا، ولم يذكر القرآن موضوع شرعة محمد ﷺ.

وهؤلاء، بالإضافة إلى الراسخين في العلم من أهل الكتاب، والصديقين، والشهداء، هم الذين وعدهم الله بالأجر على إيمانهم الشامل هذا وعملهم، بقوله تعالى:

**﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار ○ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن**

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفقرة (٣).

**بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾** آل عمران ١٩٨-١٩٩.

حيث يؤتون **أجرهم مرتين**، أي ضعف أجر المؤمنين بالغيب، وبما نزل إلى رسلهم فقط، كما وعدهم تعالى بقوله:

**﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ○ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ○ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾** الحديد ٢٧-٢٩.

وبقوله تعالى أيضا:

**﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ○ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ○ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون﴾** القصص ٥٢-٥٤.

ويتفق مع معنى الآيات الكريمة ما روي عن رسول الله ﷺ في **صحيح البخاري** " قال رسول الله ﷺ: { ثلاثة **لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد** ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، **فله أجران** } "، كتاب العلم، الحديث رقم (٩٧). أخرجه مسلم في الإيمان.

والسؤال هو: إذا كان الرجل من أهل الكتاب، **يؤمن بنبيه ويؤمن بمحمد** ﷺ، يؤتى أجره مرتين، فمن هو الذي يؤتى أجره مرة واحدة فقط؟.. إنه بلا شك من يؤمن بالله الواحد وباليوم الآخر، وبرسوله، وبما أنزل إليه، دون محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل.

٣- الخطاب الثاني الفرعي من خطاب الإيمان في الذكر الحكيم **مخصوص في** فريق من المؤمنين بالغيب بعينه، وهم **المؤمنون بمحمد بن عبدالله نبي الله ورسوله** ﷺ **وبالذكر الحكيم**، وليس عاما في المؤمنين بالغيب في ظل الشرائع السماوية السابقة. ويتميز الخطاب المذكور بأنه موجه إلى محمد بن عبد الله ﷺ بالذات، وإلى المؤمنين من أمته، وهو يترافق في أغلب الأحيان مع عبارة ﴿**..من قبل..**﴾، لإخراج أصحاب الشرائع السابقة من الخطاب.

يقول تعالى:

أ - ﴿**ألم ٥ <u>ذلك الكتاب</u>[*] لا ريب فيه هدى للمتقين ٥ <u>الذين يؤمنون بالغيب</u> ويقيمون الصلوٰة ومما رزقناهم ينفقون ٥ <u>والذين يؤمنون بما أنزل إليك</u> <u>وماأنزل من قبلك</u> وبالآخرة هم يوقنون ٥ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ البقرة ١-٥.

يقول الطبري في تفسيره للآيات الكريمة مايلي: " فلما قصّ الله عز وجل نبأ **الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله، بعد اقتصاصه نبأ المؤمنين بالغيب**، علمنا أن **كل صنف منهم غير الصنف الآخر**، وأن **المؤمنين بالغيب نوع غير النوع المصدق بالكتابين** اللذين أحدهما منزل على محمد ﷺ والآخر منهما على من قبله من رسل الله تعالى ذكره.. وأولى التأويلات عندي بقوله ﴿**..أولئك على هدى من ربهم..**﴾ ما ذكرت من قول ابن مسعود وابن عباس أن تكون **أولئك إشارة إلى الفريقين**.. وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية، لأن الله جل ثناؤه نعت

---

[*] الكتاب هنا هو الكتاب الحق/أم الكتاب، الذي انزل إلى الأنبياء والرسل جميعا.

الفريقين بنعتهم المحمود، ثم أثنى عليهم، فلم يكن عز وجل ليخص أحد الفريقين بالثناء مع تساويهما فيما استحقا به الثناء من الصفات.. وأما معنى قوله ﴿..**أولئك على هدى من ربهم..**﴾ فإن معنى ذلك أنهم على نور من ربهم وبرهان وسداد بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم.. " (٣) .

فالخطاب يعني في الآيات الكريمة **فريقين من المؤمنين المتقين**. **الفريق الأول** هم **المؤمنون المتقون، الذين يؤمنون بالغيب عامة**، وبالكتاب الحق/أم الكتاب في ظل الشرائع السماوية السابقة، الذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوٰة ومما رزقناهم ينفقون**﴾. أما **الفريق الثاني فهم المؤمنون بما أنزل إلى محمد** ﷺ، **وبما أنزل من قبله** من رسالات سماوية، وتتضمن بالضرورة الإيمان بالغيب وبالكتاب الحق/أم الكتاب، وإقام الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، كونها مما أنزل إلى محمد ﷺ كذلك ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك ومآأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾. ويقرر تعالى أن الفريقين المذكورين هما بعملهما وإيمانهما على هدى من ربهم، ومفلحون في الدنيا والآخرة ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ .

إن استعمال شبه الجملة ﴿..**من قبلك..**﴾ في قوله تعالى ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك ومآأنزل من قبلك..**﴾ يؤكد على أن المؤمنين المغنيين هم المؤمنون من أمة محمد ﷺ بالذات، لا المؤمنين أصحاب الشرائع السابقة. وهذا ما تؤكد عليه الآيات الكريمة التالية، باستعمال شبه الجملة نفسها، إذ تخصّص الخطاب بمحمد ﷺ، وأمته، ولا تطلقه في أهل الكتاب.

يقول تعالى:

﴿**قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلاّ أن آمنا بالله ومآأنزل إلينا ومآأنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون**﴾ المائدة ٥٩.

﴿**فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير**﴾ آل عمران ١٨٤.

**﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ○ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾** الأنعام ١٥٥-١٥٦.

**﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾** البقرة ١٠٨.

ب- ويقول تعالى أيضا:

**﴿ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾** النساء ١٣٦.

يقول ابن عطية في تفسيره للآية " **اختلف الناس فيمن خوطب بقوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله..﴾**، فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أهل الكتابين، أي يامن قد آمن بنبي من الأنبياء آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام.. وقيل: **الخطاب للمؤمنين** (أي المؤمنين بمحمد ﷺ بالضرورة طالما أنه تم استبعاد المؤمنين أصحاب الشرائع السابقة مع الرأي الأول) على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على **الكمال والتوفية** بالله تعالى، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة " [٤]. ويقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة نفسها " يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في **جميع شرائع الإيمان، وشعبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل**، وتقريره، وتثبيته، والاستمرار عليه "، أي إنه على أمة محمد ﷺ تكميل إيمانها بالإيمان بما أنزل من قبلها من كتاب سماوي، تماما كما تؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ في الذكر الحكيم.

يخاطب تعالى في الآية الكريمة المؤمنين برسالة محمد ﷺ وبما جاء به **﴿ياأيها الذين آمنوا..﴾**، محدداً لهم أركان عقيدتهم وهي: الإيمان بالله

﴿..**آمنوا بالله**..﴾، وبرسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿..**ورسوله**..﴾، وبالذكر الحكيم ﴿..**والكتاب الذي نزل على رسوله**..﴾، وبالكتاب الحق الذي أنزل على الأنبياء والرسل جميعا **من قبل** ﴿..**والكتاب الذي أنزل من قبل**..﴾. مؤكداً أن من يكفر منهم بذلك، بالإضافة إلى كفره بالملائكة، وباليوم الآخر، وبالكتب السماوية جميعا فقد ضلّ ضلالاً بعيداً * . إن الخطاب الذي خصص به أمة محمد ﷺ بالذات بقوله تعالى ﴿**ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله**..﴾، والزمان السابق الذي خصص بقوله تعالى ﴿..**والكتاب الذي أنزل من قبل**..﴾ يؤكدان أن الأركان المذكورة هي أركان العقيدة التي كُلف المؤمنون من أمة محمد ﷺ بالذات الإيمان بها، وليس المؤمنين أصحاب الشرائع السابقة. وهذا ما تقرره أيضا مجمل الآيات الكريمة في موضوع الإيمان بالغيب، بالإضافة إلى الأحاديث التي رويت عن الرسول الكريم ﷺ.

ت- يقول تعالى أيضا:

﴿**قل آمنا بالله وماأنزل علينا وماأنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾ آل عمران ٨٤.

الخطاب في الآية الكريمة موجه إلى محمد ﷺ بالتحديد في قوله تعالى ﴿**قل**..﴾، وإلى المؤمنين برسالته وبالذكر الحكيم على وجه التخصيص في قوله ﴿..**وماأنزل علينا.. لا نفرق.. ونحن له**..﴾، وهي صيغة المتكلم عن أمة محمد ﷺ. حيث يأمر تعالى محمدا ﷺ والمؤمنين برسالته أن يؤمنوا بما أنزل على الأنبياء والرسل جميعا **من قبل** محمد ﷺ، تماما كما يؤمنوا بما أنزل على محمدﷺ ، والخطاب ليس موجها إلى المؤمنين بالغيب في ظل الشرائع الأخرى.

---

* نلاحظ ذكره تعالى للكتاب بصيغة الجمع ﴿..ومن يكفر بالله وملائكته **وكتبه** ورسله..﴾ بينما ذكر الكتاب بصيغة المفرد في بداية الآية ﴿.. **والكتاب** الذي نزل على رسول **والكتاب** الذي أنزل من قبل..﴾.

ث- ويقول تعالى أيضا:

**﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ○ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ماكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** البقرة ٢٨٥-٢٨٦.

الرسول المعني بالخطاب في الآية الكريمة هو محمد بن عبدالله نبيّ الله ورسوله، والمؤمنون المعنيون هم المؤمنون برسالته على وجه الخصوص. أي أن ماهو مطلوب من أمة محمد ﷺ بالذات هو الإيمان بالرسل كلها التي بعثت **من قبل** رسولهم، وبالكتب كلها التي نزلت من قبل كتابهم، بالإضافة إلى الإيمان بالله، وبملائكته، وباليوم الآخر. ويؤكد تعالى أن المؤمنين من أمة محمد ﷺ هم فقط المعنيون بالخطاب دون المؤمنين من الأمم الأخرى، وذلك في قوله على لسانهم **﴿.. لا نفرق.. وقالوا سمعنا وأطعنا..﴾ ﴿.. ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا..﴾** ومعروف أن الذي حمل عليهم الإصر من قبلهم هم اليهود والنصارى.

لقد كلف تعالى المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالإيمان بالشرائع التي أوحيت إلى الإنسانية **من قبل القرآن الكريم**، لدخول ذلك ضمن دائرة استطاعتهم* ، انطلاقا من كون القرآن الكريم ركز في ما يقارب ثلثيه على قصص الأنبياء والرسل السابقين، خصوصا قصص إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، والكتاب الحق الذي نزل إليهم، والتوراة، والإنجيل.

---

* على الرغم من ذلك، إلاّ أن عدم الإيمان بالشرائع السابقة يخضع لمغفرة الله كذلك، الذي لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

أما المؤمنون أصحاب الشرائع السابقة على شرعة محمد ﷺ، فمن المنطقي ألاّ **يكلفهم** تعالى الإيمان بما نزل إلى الإنسانية من شرعة **من بعد شرعتهم**، أي بشرعة القرآن الكريم. حيث يكمن ذلك خارج دائرة استطاعتهم على وجه العموم، انطلاقا من كون قصص القرآن الكريم كلها، وأحكامه، لم تذكر في كتبهم المقدسة، وما ذكر فيها سوى بشارة ببعثة الرسول الكريم أحمد ﷺ *، وانطلاقا كذلك من الأسباب التي ذكرت في مطلع الفصل.

وانطلاقا من إيماننا **بضرورة نقد الذات قبل نقد الآخرين**، نقول: إن كثيرا من المسلمين والفقهاء في عصرنا الحالي يعتبرون من هم على شرعتي التوراة، والإنجيل، والأميين، والصابئة كفارا، لأنهم لا يصدّقون بشرعة القرآن الكريم وبمحمد ﷺ رسول الله ونبيه، وذلك دون النظر والتبصر في **حقيقة عقيدتهم** من جهة، وفي الظروف والأسباب التي منعتهم من الإيمان بشرعة القرآن الكريم من جهة أخرى، التي ربما يكون تقصير المسلمين من أمة محمد ﷺ سببها الرئيس **. والصحيح **وصفهم بالمؤمنين طالما أنهم يؤمنون بالله الواحد وباليوم الآخر على ملة إبراهيم عليه السلام**، كما يؤمنون بضرورة الالتزام بقواعد الصراط المستقيم، باعتبارها أساسا للعمل الصالح. وبتعبير آخر، إن الصحيح وصفهم بالمؤمنين طالما أنهم يؤمنون **بدستور القرآن الكريم، الموجود في كتبهم المقدسة.**

يقول تعالى:

---

* كما في قوله تعالى ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة و<u>مبشرا برسول من بعدي إسمه أحمد</u> فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ الصف ٦.

** لم يستطع المسلمون من أمة محمد ﷺ إلى اليوم تقديم شرعتهم إلى الإنسانية بالأسلوب الحضاري، الذي يتماشى مع معطيات العصر ومفاهيمه، وكيف لهم أن يفعلوا ذلك، ولم يتسنّ بعدُ لهم أنفسهم فهمها انطلاقا من معطيات الحضارة الحديثة؟.. جدير بالذكر أن بعض المسلمين اعتبر كلمة الأمير تشارلز – ولي عهد بريطانيا – خلال زيارة قام بها إلى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في أواخر عام ٩٣، نفاقاً ولعباً على الحبلين، عندما صرح **بكون النصارى يؤمنون بالتوحيد، كالمسلمين**. فلماذا يعتبرونه كذلك، ولا يعتبرونه توضيحا لأسس عقيدتهم التي ربما يجهلها المسلمون اليوم (حيث لا يوجد حوارات فكرية تذكر بين الطرفين)، أو نوعا من الرجوع إلى العقل ومحاسبة الذات من أجل تصحيح أخطائها؟..

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ○ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ○ ومايفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ آل عمران ١١٣-١١٥. الآيات الكريمة مطلقة، لا يحدها الزمان ولا المكان، لعدم وجود قرينة تثبت ذلك، لهذا فهي تنطبق على أهل الكتاب في كل زمان ومكان، قبل بعثة محمد ﷺ وبعدها.

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ○ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ الأحقاف ١٣-١٤.

﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ آل عمران ٦٤.

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ العنكبوت ٤٦.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابؤون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ المائدة ٦٩.

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ البقرة ٦٢ * .

---

* المقصود بالذين آمنوا في الآيتين الكريمتين الأخيرتين، الذين آمنوا بما نزل على محمد ﷺ، أي بالذكر الحكيم.

أما تعريف مفهوم **الإيمان بالغيب** وعلاقته بمفهوم **الإسلام**، فلا يمكن بيانه إلا من خلال دراسة مفهوم **العمل الواعي** للإنسان.

## العمل الصالح:

اشتقت كلمة (العمل ) من الفعل (عمل) و" لـه أصل واحد صحيح عام في كل فعل يفعل " (٥). والعمل الواعي هو كل فعل يفعله الإنسان عن وعي منه، أي مع استبعاد الأفعال اللاإرادية، وأفعال الأطفال، وذوي الأمراض العقلية، بالإضافة إلى الخطأ الإنساني غير المقصود. وبهذا يشمل العمل الإنساني الواعي **النشاط الإنساني الفكري، والعلمي، والعملي** على مر العصور، الذي ينتج عن تميز الإنسان عن بقية الكائنات بالعقل وبالتفكير من جهة، وبالفؤاد من جهة أخرى.

ويتصف العمل الإنساني الواعي في الذكر الحكيم إما بالصلاح، وإما بضده وهو الفساد. يقول تعالى:

**﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾** النمل ٤٨.

**﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾** الأعراف١٤٢.

**﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾** ص ٢٨.

**﴿فاتقوا الله وأطيعون ○ ولا تطيعوا أمر المسرفين ○ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾** الشعراء ١٥٠-١٥٢.

**﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومـاربك بظـلام للعبيـد﴾** فصلت ٤٦.

**﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسـيء قليلا ماتتذكرون﴾** غافر ٥٨.

**﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهمـا إثـم كبـير ومنـافع للنـاس وإثمهمـا أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيـات لعلكم تتفكرون ○ في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصـلاح لهـم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلـح ولـو شـاء اللـه لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾** البقرة ٢١٩-٢٢٠.

**﴿وياقوم أوفوا المكيـال والميزان بالقسـط ولا تبخسـوا النـاس أشيـاءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** هود ٨٥.

**﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ○ ألا إنـهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** البقرة ١١-١٢.

اشتقت الكلمـات المفسد، والمفسدون، ويفسدون مـن الفعـــل (فســد)، ولـــه " أصل واحد يدل علـى الضـرر وهـو ضـد الصـلاح " [٦]. والعمـل الفاسد هو كل فعل يقوم بــه الإنسـان بحيث يعـود عليـه، أو علـى أسـرته، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية، أو علـى الكـون، أو عليهـم جميعـا بـالضـرر والأذى، أي كل مامن شـأنه أن يعـود بـالضـرر والأذى علـى الفـرد، أو علـى الصالح العام. وأكثر الأعمال فسادا مخالفة قواعد الصـراط المسـتقيم، وأولـهـا الكفر بالله، أو الشرك به، ومن ثم عقوق الوالدين، والقتـل، والفاحشـة، وأكـل مال اليتيم، وعدم الوفاء بـالكيل والمـيزان وبـالعهود، ومجانبـة القـول العـدل، وهي **الكبائر نفسها التي نهى الذكر الحكيم عن ارتكابها**. وكلما كان الضـرر والأذى الـذي يلحقـه العمـل الفاسـد بمصـالح النـاس، أو بـالأرض، أو بـالكون أعمق تأثيرا، وأكثرا انتشارا، كلما كان أسوأ درجـة، وأحـطّ قيمـة فـي كتـاب الله.

أما الكلمات المصلح، والمصلحون، والصالحات، والصالح، فمشتقة من الفعل (صلح)، وله أصل واحد يدل على " كل فعل ذو خير ومنفعة وهو ضد الفساد "[٧]. والعمل الصالح هو كل فعل يقوم به الإنسان بحيث يعود بالخير والمنفعة عليه شخصيا، أو على أسرته، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية، أو على الكون، ولا يتسبب بضرر أو بأذى لأحدهم، أو إليهم جميعا. ويشمل العمل الصالح كل الأفعال التي تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان، وصالحه، والصالح العام، وأهمها تلك التي تساهم في بناء الإنسان والحضارات الإنسانية النافعة. والعمل الصالح أساس كل علم، ورقيّ إنساني، وتقدم حضاري .

ويحدد الإنسان هدفه من القيام بالفعل قبل القيام به، وهو مايطلق عليه اسم النيّة. لذلك فإن النيّة تلعب دورا أساسيا في تقويم الأفعال الإنسانية من حيث الصلاح والفساد. ويتفق مع هذا ما روى في **صحيح البخاري** عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سمع رسول اللـه ﷺ يقول " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى "، الحديث رقم (١).

وبما أن المعطيات الزمانية والمكانية للمجتمعات الإنسانية تختلف من مجتمع لآخر، ومن زمان لآخر، مما يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في ظروفها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية، والبيئية وغيرها، لذلك فقد ترك القرآن الكريم مفهوم العمل الصالح مفتوحا تماما. فالأعمال الصالحة التي تعود بالخير والمنفعة على المجتمع الأمريكي، أو الياباني، أو البريطاني مثلا ربما لا تعود بالخير نفسه على المجتمع السوري، أو المصري، أو القطري. والأعمال الصالحة المطلوب القيام بها أثناء الحروب والمجاعات، التي تعطى الأولوية فيها لإنقاذ الناس ومدّهم بالطعام مثلا، تختلف عن الأعمال الصالحة المطلوب القيام بها أثناء السلم، التي تعطى الأولوية فيها لإيجاد حلول للمشكلات الثقافية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية التي يمكن أن تعاني منها المجتمعات الإنسانية، بالإضافة إلى تنمية تلك المجتمعات وتطويرها. وليس العمل الصالح كله

سواء، فكلما كان تأثيره أكثر إيجابية، وأعمق أثرا، وأعم انتشارا، كلما كان أعلى شأنا، وأرفع درجة في كتاب الله.

## ١- العمل الصالح والإيمان بالغيب:

إن سؤال الإنسان الذي مافتىء يتجدد على مر العصور هو: كيف وجد الإنسان على هذه الأرض، وكل شيء عليها لا يبصر، ولا يفقه، ولا يعقل، ولا يفكر سواه؟.. لماذا وجد الإنسان على هذه الصورة المختلفة عن بقية الكائنات؟.. وماهو الهدف من وجوده؟..

يجيب تعالى في كتابه العزيز على تلك التساؤلات، مؤكدا أن الإنسان خلق من أجل هدف واحد فقط، هو **امتحانه في عمله الواعي**، الذي يميز وجوده عن وجود الكائنات الأخرى.

يقول تعالى:

**﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ○ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾** الملك ١-٢.

**﴿إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾** الكهف ٧.

**﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾** هود ٧.

فعلى الرغم من كون الإيمان بالغيب هو العقيدة الأساسية للمسلم، إلا أن الآيات الكريمة تقرر أن **الإنسان خلق بهدف امتحانه في عمله**، وليس في إيمانه بذاته. أي أنه خلق بهدف امتحانه في سلوكه اليومي، وفي إنجازاته العملية في الحياة الدنيا. وهذا يعني أن الذكر الحكيم لا يعترف بوجود

منفصل للإيمان بالغيب عن النشاط الإنساني، أي أن **امتحان مدى رسوخ عقيدة التوحيد في النفس الإنسانية، لا يكون إلا من خلال امتحان الإنسان في عمله وسلوكه.**

وإذا كانت الآيات الكريمة تؤكد أن العمل الحسن هو الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، فإنها تؤكد في الوقت نفسه أن ذلك ما كان إلاّ نتيجة لمنح الإنسان حريته الكاملة على المستويين الفكري والعملي، حريته في الاختيار بين الإيمان والكفر، وبين العمل الصالح والعمل الفاسد. إن حرية الاختيار تلك هي **الأمانة** التي كلف الله الإنسان بحملها، التي كان بها **خليفة** له على وجه الأرض.

يقول تعالى:

**﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ○ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ○ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾** الأحزاب ٧٠-٧٢.

**﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالاتعلمون﴾** البقرة ٣٠.

**﴿ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾** ص ٢٦.

**﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** الأنعام١٦٥.

إن إصرار الكتاب على ربط الإيمان بالعمل في جلّ آياته يؤكد على حقيقة هامة، مفادها أن الإيمان بالغيب هو **واقع عملي ملتصق بسلوك الإنسان اليومي، وليس مفهوماً مجرداً عن النشاط الإنساني**. حيث لا يكاد يذكر الإيمان بالله وباليوم الآخر (أو ضده وهو الكفر) في آية من آيات الكتاب، إلا ويتبعه، أو يسبقه وصف للعمل الإنساني، الذي يعتبر إفرازا طبيعيا له * . وبتعبير آخر، لابد أن تتجلى عقيدة التوحيد في صورة **أفعال إنسانية واعية**، وإلاّ فإن ذلك يدعونا إلى الشك بوجودها ابتداء.

يقول تعالى:

**﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾** هود ١٢١.

**﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** آل عمران ١١٠.

**﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾** آل عمران ١١٤.

**﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾** الفرقان ٢١.

**﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾** الفرقان ٧٠.

---

* وردت كلمة (العمل) مع اشتقاقاتها في الذكر الحكيم (٣٥٩) مرة، وفي أغلبها **مقترنة بالإيمان بالله، أو بالكفر به.**

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ المائدة ٥.

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ○ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ○ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ الكهف ١٠٣-١٠٥.

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ماكانوا يعملون﴾ الأعراف ١٤٧.

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ التوبة ٣٧.

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ النور ٣٩.

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ محمد ١.

﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ محمد ٣.

﴿والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ○ ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ محمد ٨-٩.

﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ محمد ١٤.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون﴾ سبأ ٣٣.

﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾ لقمان ٢٣.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ النحل ٩٣.

﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ○ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين﴾ الروم ٤٤-٤٥.

فكما أن سلوك مدعي الاشتراكية وممارساته اليومية مثلا تظهر مدى اقتناعه بالاشتراكية عقيدة، فإن سلوك مدعي الإيمان بالغيب وممارساته اليومية تظهر حقيقة إيمانه بالغيب عقيدة. وبتعبير معاصر، يجب أن تقترن النظرية بالتطبيق، وإلا فليس لاعتناق النظرية أي معنى، طالما أنها لم تسفر عن نتائج إيجابية، تصلح من حال الإنسان، والمجتمع، والكون.

ولذلك يقول تعالى في وصفه للأعراب:

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ○ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ الحجرات ١٤-١٥.

فإذا كان **الإسلام** هو الشهادة بالإيمان بالله الواحد وباليوم الآخر، وبالالتزام بقواعد الصراط المستقيم، فإن **الإيمان هو الالتزام بميثاق الإسلام على المستوى العملي**. ولذلك تنتقد الآية الكريمة الأعراب، حيث لم يتحول ميثاق الإسلام الذي قطعوه على أنفسهم إلى إيمان، أي إلى سلوك عملي،

وإلا لما كانوا تأخروا عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وهو من العمل الصالح الذي توجب على المسلمين في ذلك الوقت إيلاءه الأهمية القصوى. إن المسلم الذي لا يصدّق عمله الصالح عقيدته، هو ذلك الذي يدعونا إلى الشك في صدق عقيدته **﴿.. ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾.**

ولذلك يؤكد الذكر الحكيم أن عمل الإنسان بالذات هو الأساس الذي سيحاسب عليه في اليوم الآخر، لا الإيمان بالغيب بعينه.

يقول تعالى:

**﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون﴾** الأنعام ١٥٨. لن يدخل الجنة من آمن بالله لحظة الموت إن كان عمله فاسدا، لأن الإنسان لا يملك حينها فرصة ترجمة إيمانه إلى عمل صالح خير، يدخل به الجنة.. والله أعلم *.

ونلاحظ التركيز على العمل بالذات – لا الإيمان – كأساس للحساب في اليوم الآخر، في قوله تعالى في ما ذكر من الآيات الكريمة:

**﴿.. وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون﴾.**

**﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا..﴾.**

---

* هذا ما حصل مع فرعون، إذ اعترف بوجود الله لحظة الموت، وكان عمله غير صالح.

﴿.. **يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون**﴾ *

إن رؤية الذكر الحكيم الخاصة بالعمل الإنساني وعلاقته بالعقيدة، تسلط الضوء بوضوح على حقيقة اجتماعية هامة، وهي أن الإنسان يتصرف دائما انطلاقا من معتقداته الفكرية والعقائدية، وموقفه الخاص من الكون، سواء أكان ذلك عن وعي منه، أم عن غير وعي، وسواء أأعلن عقيدته تلك أمام الناس- إن كان واعيا لتلك العقيدة – أم لم يعلنها لأي سبب كان. ولذلك فإن ممارسة **عقيدة التوحيد** لا تكون إلا من خلال اتخاذ الإنسان موقفا **إيجابيا مصلحا** من العالم، ابتداء من نفسه هو. وهذا يعني أن سلوك الإنسان في عمله الذي يرتزق منه مثلا، وفي ممارساته اليومية في البيع والشراء، وفي علاقاته مع والديه، وأسرته، وأقربائه، وجيرانه، وفي سلوكه تجاه قضايا المجتمع العامة، كقضايا التطوير العلمي، والعدل الاجتماعي، والرشوة، وتلوث البيئة..إلخ، إن سلوكه في كل هذا يبين ما إذا كان يؤمن فعلا بالله الواحد وباليوم الآخر، أم أنه إسلام فقط، كإسلام الأعراب الذين ادعوا الإيمان، ولكنهم عجزوا عن تمثّله، أي عن ترجمة ميثاق الإسلام الذي قطعوه على أنفسهم إلى عمل صالح، مثمر، ومفيد.

---

* ويتفق مع الآيات الكريمة ما روى البخاري في **صحيحه** عن الرسول الكريم ﷺ قوله: " عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا: يارسول الله، أيّ الإسلام أفضل؟ قال: { **من سلم المسلمون من لسانه ويده** } "، كتاب الإيمان، الحديث رقم (١١). وقوله " { **لا يؤمن** أحدكم حتى **يحبّ لأخيه** ما يحبّ لنفسه } "، كتاب الإيمان، الحديث رقم (١٣). و " قال عدة من أهل العلم في قوله تعالى {**فوربك لنسألنهم أجمعين** O **عما كانوا يعملون**} الحجر ٩٢-٩٣، عن قول: **لا إله إلا الله**، وقال: { **لمثل هذا فليعمل العاملون** } الصافات ٦١ "، مقدمة باب من قال إن الإيمان هو العمل. و " قال عمار: **ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار** "، كتاب الإيمان، مقدمة باب إفشاء السلام من الإسلام. و " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن أولاد **المشركين**، فقال: { الله أعلم بما كانوا **عاملين** } "، كتاب القدر، الحديث رقم (٦٢٢٤). و قوله " { أكبر الكبائر **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور** – ثلاثا – أو قول الزور } "، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، الحديث رقم (٦٥٢١). كما روى مسلم في **صحيحه** " سال سفيان بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال: قل لي في الإسلام قولا لا أسال عنه أحدا غيرك. قال: { **قل آمنت بالله ثم استقم** } "، كتاب الإيمان، الحديث رقم (٣٨).

وروى الإمام النووي في **رياض الصالحين** " عن رسول الله ﷺ أنه قال: { **يتبع الميت ثلاث: أهله** وماله وعمله: فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، **ويبقى عمله** } " متفق عليه، الحديث رقم (٤٦٥).

والآيات الكريمة في كتاب الله التي توحد بين العمل الصالح والإيمان بالغيب أكثر من أن تحصى، وسأذكر بعضها في الفقرات القادمة.

## ٣- العمل الصالح وعبادة الله (الصراط المستقيم):

لقد تعرض مفهوم **عبادة الله** خلال القرون الأخيرة إلى الكثير من التشويه، فكان ذلك عاملا هاما من العوامل التي أدت إلى ما تعاني منه أمة محمد ﷺ اليوم من تخلف حضاري وفكري. لقد أصبح مفهوم **عبادة الله** غالبا ما يقتصر عند عامة الناس على أداء الفرائض الأربع، ففقد بذلك معناه الشمولي، الذي يعتبر العمل الصالح موضوعه، وغايته المنشودة *.

اشتقت كلمة (العبادة) من الفعل (عبد) وله " أصلان صحيحان كأنهما متضادان، الأول يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظة.. وفسر قوله تعالى ﴿**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾ أي أول من غضب عن هذا وأنف من قوله. وذكر عن علي كرم الله وجهه أنه قال: (عبدت فصمت) أي أنفت فسكت " (٨).

و**عبادة الله** تعني في الذكر الحكيم الأصلين معا، فهي الذل والليونة أي التوجه فكرا وعملا (عقيدة وسلوكا) إلى الله الواحد من جهة، والأنف من ذلك، وإنكاره لكل ماعداه من جهة أخرى.

والسؤال هو: لماذا فرض الله على الناس عبادته؟.. ولمصلحة من فُرضت على الناس عبادة الله ؟..

---

* لقد كان كذلك **لاصطلاح الفقهاء** على تسمية الفرائض الأربع **بالعبادات** نتائج سلبية على مفهوم **العبادة**، إذ أدّى ذلك إلى حصر المفهوم في تلك الفرائض، واستبعاد العمل الصالح منه.

للإجابة على السؤال نجد أنفسنا نسأل سؤالا آخر، وهو: لماذا أرسل الله الأنبياء، والرسل، والكتب للناس على مر العصور، هل بقصد تحقيق مصلحة لله سبحانه، أم بقصدِ تحقيق مصلحة للإنسان نفسه، وللكون الذي يعيش فيه؟.. بمعنى، هل فُرضت على الإنسان عبادة الله بقصد تقديم طقوس التقديس، والتبجيل، والاحترام له، أم لأن العبادة تحقق مصلحة مادية ومعنوية، مباشرة وغير مباشرة، للإنسان نفسه، وللمجتمعات الإنسانية، وللكون بشكل عام؟..

للإجابة على السؤالين نبدأ بالقول:

إن **(الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المغيث الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور)..**

إن الله بكل هذه الصفات غني غنىً مطلقا عن عمل الإنسان كله، بما في ذلك عبادته له. ونفهم من آيات الذكر الحكيم أن الله لم يفرض على الإنسان عبادته بقصد تقديم طقوس التقديس، والتبجيل، والاحترام لذاته، وإنما بقصد تحقيق مصلحة للإنسان نفسه، مادية وغير مادية، ومباشرة وغير مباشرة.

وعبادة الله هي اختيار حر، للإنسان أن يفعله، أو أن يمتنع عن فعله، ولن يؤثر ذلك على ذات الله. فسواء آمن الإنسان به وباليوم الآخر، أم لم

يفعل، فليس لإيمانه أي انعكاس إيجابي أو سلبي على ذات الله، وسواء أعبده، أم لم يعبده، فليس لعبادته أيضا أي انعكاس إيجابي أو سلبي على ذات الله. يقول تعالى:

**﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾** فاطر ١٥.

لقد فرض الله عبادته على الإنسان من أجل تحقيق مصلحة للإنسان نفسه، وللكون الذي يعيش فيه، لأنه **عندما يكون الإنسان عبدا لله، لا يكون كذلك لغيره**، سواء أكان هذا **الغير** شخصاً، أم سلطةً، أم حتى فكراً ما: فمن أجل صالح الإنسان نفسه فرض الله عليه الإيمان به وبيوم الحساب، الأمر الذي يعود عليه بالأمن، والأمان، والطمأنينة، ويخلع على وجوده المعنى، الذي يتميز به عن وجود غيره من الكائنات، كما يعزز مراقبته الذاتية لأفعاله، ويحثه على العمل باستمرار من أجل تحقيق صالحه، وصالح الإنسانية، وصالح الكون. إن هذا مالا يوفره أي قانون إنساني، مهما وصل مرحلة من الكمال.

وعندما نقول إن الله ليس في حاجة إلى عبادة الإنسان له، فنحن نقصد تماما العبادة بما في ذلك القيام بالفرائض الأربع، وهي الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، باعتبارها جزءً من العمل الإنساني الواعي. حيث يمتنع تعالى أن يكون في حاجة إلى تبجيل الإنسان له من خلالها، لأنه مالك الملك ذو الجلال والإكرام، سواء أصلى الإنسان له، وزكى، وصام، وحج، أم لم يفعل.

يقول تعالى:

**﴿وأمر أهلك <u>بالصلوٰة</u> واصطبر عليها <u>لا نسألك رزقا</u> نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾** طه١٣٢. لقد طلب الله من الإنسان القيام بالفرائض الأربع، ومن بينها الصلاة، لأنها تعود بالخير والمنفعة على الإنسان نفسه **﴿..نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾**، وليس لأن الله في حاجة لأن يقدم له الإنسان طقوس الطاعة، والتبجيل، والاحترام من خلالها **﴿..لا نسألك رزقا..﴾**.

ويقول تعالى أيضا:

﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور**﴾ الزمر ٧. إن الله غني غنىً مطلقا عن عبادة الإنسان له، كما هو غني عن كفره به، أي عن أفعاله كلها، بما في ذلك عبادته إياه، وشكره. ولكن الله يرضى لعباده عبادته، وشكره، لأن ذلك يصلح أعمالهم.

وهذا هو بالتحديد مايؤكد عليه تعالى في قوله:

﴿**وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ○ ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون ○ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ الذاريات ٥٦-٥٨.

لقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه، وهو المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء *. ولكن ذلك ليس من أجله هو، حيث إن عبادتهم له لن تعود عليه بالرزق، ماديا كان أو معنويا ﴿**ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون ○ إن الله هو الرزاق..**﴾. وما فرض الله عبادته على الإنسان إلاّ من أجل تحقيق مصلحة مادية ومعنوية للإنسان نفسه، أي من أجل أن يكون حرا داخل النظام المادي للكون فكرا، وعملا، فيمتنع بذلك أن يكون عبدا، أو تابعا لأحد، أو لكل ما هو مادي.

وعليه **فكلما ازداد الإنسان عبادة لله، المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء، كلما اتسعت دائرة حريته داخل النظام المادي للكون.**

---

* ولله المثل الأعلى، أي أن الله وحده هو المثل الأعلى بالنسبة للإنسان. أنظر الآيتين الكريمتين الستين من سورة النحل، والسابعة والعشرين من سورة الروم.

أ- **ونسأل: هل يمارس الإنسان العبادة بالفطرة؟..**

تؤكد النظرة العلمية الحديثة – التي بدأت تنتشر مؤخرا على المستوى الفلسفي – على الدور الاستثنائي الذي يلعبه الرأسمال الرمزي الروحي لدى الإنسان في تحديد **رؤيته من مسائل الكون الأساسية**، كالموت، والحياة، والخلق، والمادة، وماوراء المادة (٩)، مما ينعكس بالضرورة على مثله العليا وأهدافه الفكرية، وبالتالي على سلوكه وعمله بشكل عام.

ولنستعرض الآن ما يقدمه لنا الذكر الحكيم حول **أنواع تلك الرؤية**، التي **تنحصر في**: عبادة الله الواحد، والكفر، أو الشرك به، والنفاق. ونقترح المعاني التالية، التي استنبطناها من الذكر الحكيم نفسه:

**العبادة** : هي توجه الإنسان **عقيدة وسلوكا** إلى مثل أعلى بعينه، وإنكار ذلك لغيره. ومفهوم العبادة يشمل المفاهيم الأربعة الأخرى.

**عبادة الله الواحد** : هي توجه الإنسان **عقيدة وسلوكا** إلى الله، المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء – أي الذي جلّ سبحانه أن يشبهه شيء داخل النظام المادي للكون أو خارجه – والأنف من ذلك وإنكاره لغير الله. و**المؤمن بالله الواحد** هو الذي يفعل ذلك.

**الكفر** : هو تغطية وستر الحق، الذي تعرفه النفس الإنسانية بالفطرة * . مما يستدعي إنكار المثل الأعلى لله سبحانه، الذي لا يشبهه شيء داخل النظام المادي للكون أو خارجه. وبالتالي التوجه **عقيدة وسلوكا** نحو مَثل أعلى،

---

* راجع معنى الكفر في بداية الفصل، بحث الإيمان بالغيب وضده الكفر.

مستوحى من النظام المادي للكون بالضرورة. و**الكافر** هو الذي يفعل ذلك.

**الشـــــــرك** : هو خلق رابطة بين المادة وماوراء المادة، عن طريق إضفاء صفات الألوهية على كائن ما، أو شيء ما، منتمٍ إلى النظام الماديِ للكون. مما يعني توجه الإنسان **عقيدة وسلوكا** إلى مَثل أعلى مستوحى من النظام المادي للكون، مع الله، المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء. و**المشرك** هو الذي يفعل ذلك *.

**النفـــــــاق** : هو **ادعاء** توجه الإنسان إلى الله، المثـل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء، مع توجهه الفعلي إلى مَثل أعلى غيره، مستوحى من النظام المادي للكون بالضرورة. و**المنافق** هو الذي يفعل ذلك.

وبما أن الرؤية الكونية للإنسان لا تخرج عن كونها واحدة من تلك الرؤى، فإن هذا يعنى أن كل إنسان يمارس العبادة بالفطرة، ولكن يختلف الناس فيما يعبدون. فإن لم يكن المثل الأعلى للإنسان هو الله وحده، فسيكون معه أو غيره لا محالة، كما هو حال **المادة**، التي تجسد الإله المادي الوهمي في عصرنا الحالي.

ويتضح هذا المفهوم بشكل دقيق في سورة (**الكافرون**). يقول تعالى:

---

* **يواجه الفقه الإسلامي إشكالية حقيقية، حين يعتبر اليهود والنصارى مشركين بالله على وجه العموم، في الوقت الذي يبيح فيه زواج المسلم من نسائهم. إذ كيف يصح هذا مع تحريم القرآن الكريم زواج المسلمين من المشركين والمشركات في قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾** البقرة ٢٢١ ؟.. جدير بالذكر أن الورق النقدي الرسمي (الدولار) لبعض من يوصفون بالكفر، أو بالشرك، قد كُتب في أعلاه (**In God We Trust**)، أي أننا أمة تؤمن بالله، بينما لا نجد تلك العبارة على كثير من الورق النقدي للمسلمين من أمة محمد ﷺ.

**﴿قل يأأيها الكافرون ۝ لا أعبد ماتعبدون ۝ ولا أنتم عابدون مـاأعبد ۝ ولا أنـا عـابد مـاعبدتم ۝ ولا أنتـم عـابدون مـاأعبد ۝ لكـم دينكـم ولـي ديـن ﴾** الكافرون.

عندما يستر الإنسان ويغطي الحق الذي تعرفه النفس الإنسانية بـالفطرة، باعتباره المثل الأعلى، الذي جلّ أن يشبهه شيء داخل النظام المادي للكـون أو خارجه، والذي يتوجب عليه اتباعه وعبادته، لا بـدّ للإنسـان مـن أن يتخـذ مثـلا أعلـى ماديـا، يسـتوحيه من النظـام المـادي للكـون بـالضرورة، فيتبعـه، ويعبده. أي أن الإنسان يتوجـه بـالضرورة إلـى كـائن مـا، أو إلـى شـيء مـا، يستوحيه إما من داخل النظام المـادي للكـون، أو مـن خـارجـه، فيعتـبره هدفـا لوجوده، ويتخذه بالتالي مثلا أعلى لـه، ويعبـده. ممـا يعنـي أن **العبـادة فطـرة لدى الإنسان، لا انفكاك له منها.**

وعندما يتوجه الإنسان عقيدة وسـلوكا إلـى اللـه الواحـد، باعتبـاره المثـل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء، يمتنع عليـه بـالضرورة أن يتخـذ مثـلا أعلـى ماديا، مستوحى من النظام المادي للكون. أي أنه بعبادتـه للـه سـبحانه، الـذي ليس كمثله شيء، يمتنع عليه أن يعبد كائنا ما، أو شيئا ما ينتمـي إلـى النظـام المادي للكون **﴿قل يأأيها الكافرون ۝ لا أعبـد مـاتعبدون﴾**. وبذلـك لا يمكـن أن يكون المسـلم عبدا لغير اللـه **﴿ولا أنـا عـابد مـاعبدتم﴾**. أي أن الإنسـان بعبادته لله، لا يمكن أن يكون عابدا لغير الله، أو تابعا لغيره كائنا مـن كـان، وهنا **يكمن جوهر حرية الإنسان على وجه الأرض.**

وكما أن عابد اللـه يمـارس العبـادة، فـإن **الكـافر يمـارس العبـادة** أيضـا. فالإنسان الذي لا يتوجه إلى الله الواحد، باعتباره المثل الأعلـى، الـذي ليس كمثله شيء، لا بد أن يتوجه إلى مَثل أعلـى يسـتوحيه بـالضرورة مـن النظـام المادي للكون، طالما أنه ينكر ماوراء المادة **﴿قل يأأيها الكافرون ۝ لا أعبـد ماتعبدون﴾**، فيمتنع بذلك امتناعا كليا عن التوجه إلـى اللـه الواحـد، باعتبـاره المثل الأعلى، أي **يضلّ الطريق الصحيح ﴿ولا أنتـم عـابدون مـاأعبد﴾** الآيـة

٣. وبابتعاد الكافر عن عبادة الله الواحد، يكون بالضرورة **عبدا لغير الله** ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ الآية ٥.

وعليه.. فلكل إنسان دين، فكما أن للمؤمن دينا، فإن للكافر دينا كذلك ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ *. وهنا أذكّر بأن للمؤمنين جميعا دينا واحدا هو دين الإسلام، مهما كانت الشرعة التي يتبعها المؤمن، أما الدين الذي يختلف عن دين المؤمنين، فهو دين الكافرين ** .

وتؤكد الآيات الكريمة التالية على ما جاء آنفا. يقول تعالى:

﴿**أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا**﴾ الكهف ١٠٢. الكفر هو التوجه الفكري والعملي إلى مُثُل عليا مادية مستوحاة من النظام المادي للكون – وهو هنا اتخاذ الناس أولياء – وانكار ذلك لله، المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء. مما يؤدي إلى عبودية الإنسان الفكرية العقائدية لما هو مادي (فكر هؤلاء الناس وسلوكهم)، أي فقدانه لحريته، التي وهبه الله إياها.

﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾ التوبة ٣١. الشرك بالله هو إضفاء صفات الألوهية على كائن ما، أو شيء ما منتمٍ إلى النظام المادي للكون – وهو هنا الأحبار والرهبان والمسيح – مع الله المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء. وهذا يعني أن عبادة هؤلاء الناس، إنما تؤدي إلى عبودية الإنسان الفكرية العقائدية لما هو مادي كذلك، أي فقدانه جزءً من حريته، التي وهبه الله إياها.

---

* جاء في كتاب الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة البغدادي، أن قوله تعالى " ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ منسوخة (بمعنى باطل حكمها) نسختها آية السيف "، دراسة وتحقيق موسى العليلي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، ص: ١٩٩.

** جاء في صحيح البخاري في تفسير الآية ما يلي: "يقال: ﴿**لكم دينكم..**﴾ الكفر، ﴿**.. ولي دين**﴾: الإسلام ".

**﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** آل عمران ٦٤. يأمر تعالى نبيه الكريم محمداﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى عبادة الله الواحد، ويعتبر إشراك الأرباب مع الله نوعا من أنواع الشرك به، لأنه يعبر عن توجه الإنسان إلى مُثُل مادية، مع الله، المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء. وبذلك يكون الإنسان عبدا لما هو مادي أيضا، أي يفقد جزءً من حريته التي وهبه الله إياها.

**﴿ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد○ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ○ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾** المائدة ١١٧-١١٩. يؤكد تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السلام أن عبادة الله الواحد هي في صدق التوجه له فكرا وعملا، باعتباره المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء، دون غيره من الكائنات. وأن التوجه إلى ما يُنسب إلى الأنبياء والرسل من أقوال تتناقض مع القول الحق ﴿..**ماقلت لهم إلا ما أمرتني به..**﴾، إنما يقود إلى الشرك بالله.

**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾** الكهف ١١٠. يأمر تعالى الناس جميعا بالتوجه الكلي لله الواحد، باعتباره المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء، وتجنب الشرك به، بإضفاء صفات الألوهية على غيره من الكائنات. وذلك كي لا يكون الإنسان عبدا لغير الله.

تؤكد الآية الكريمة على حقيقة أن الأنبياء **من بني البشر**، ومن صفات البشر أنهم يصيبون، ويخطئون، وقد أثبت تعالى ذلك في الذكر الحكيم في عدة سور. ويتفق مع الآيات الكريمة ماروي في **صحيح البخاري** عن النبي ﷺ قوله: " { إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعلّ بعضكم أن

يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له من حق أخيه شيئا، فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار } "، كتاب الحيل، الحديث رقم (٦٥٦٥) *.

إن استغناء الكثير من الفلسفات المعاصرة عن الله، باعتباره المثل الأعلى، جعل **بعض الناس** – بوعي منهم أو بدون وعي – عبيدا للمادة، التي سيطرت على فكرهم، وتوجهاتهم، وأهدافهم العامة، فأصبح الإنسان معهم نصف إنسان، أي مادة دون روح.

ب- **أما مجال عبادة الله فهو العمل الإنساني الواعي**، ولذلك يقول تعالى:

**﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ○ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ○ وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ○ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون﴾** النمل ٩٠-٩٣.

**﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ○ تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** البقرة ١٣٣-١٣٤.

**﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون﴾** هود ١٢٣.

---

* يقول تعالى ﴿والنجم إذا هوى ○ ماضل صاحبكم وما غوى ○ ومابنطق عن الهوى ○ إن هو إلا وحي يوحى ○ علمه شديد القوى ○ ذو مرة فاستوى ○ وهو بالأفق الأعلى ○ ثم دنا فتدلى ○ فكان قاب قوسين أو أدنى ○ فأوحى إلى عبده ماأوحى ○ ماكذب الفؤاد مارأى ○ أفتمارونه على مايرى ○ ولقد رآه نزلة أخرى ○ عند سدرة المنتهى﴾ النجم ١-١٤. نفهم من الآيات الكريمة أن المقصود بالوحي الذي أوحي إلى محمد ﷺ، ما أوحاه إليه جبريل عليه السلام، وهو الذكر الحكيم.

ت- **عبادة الله والعمل الصالح:**

إذا كانت عبادة الله ممارسة عملية، سلوكية، واعية، فهل هذا يعني أن كل عمل إنساني عبادة لله، مهما كان نوعه؟..

يؤكد الذكر الحكيم في مجمله أن المؤمن يعبد ربه من خلال فعل كل ما يحقق الخير والصلاح للإنسان، وللإنسانية، وللكون، ويحسن لهم جميعا. أي **من خلال ممارسة المؤمن للعمل الصالح، يوجهه في ذلك إيمانه بالغيب عقيدة.**

يقول تعالى:

**﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾** النور ٥٥.

**﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ○ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾** يونس ٣-٤.

**﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ○ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ○ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾** الأنبياء ٩٢-٩٤.

**﴿ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ○ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ○ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من**

**الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾** العنكبوت ٥٦-٥٨.

**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾** الكهف ١١٠.

**﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ○ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ○ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾** الإسراء ٢٣-٢٥. عبادة الله في الآية الكريمة هي في الإحسان للوالدين (عطف خاص على عام)، وهو نوع من أنواع العمل الصالح، الذي يغفر الله به للأوابين ذنوبهم.

**﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾** النساء ٣٦.

**﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ○ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون○ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ○ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾** التوبة ٣١ - ٣٤. عبادة الله هي في اجتناب الأعمال الضارة بالنفس والمجتمع، وهي في الآيات الكريمة أكل أموال الناس بالباطل، وكنز الذهب والفضة.

﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ○ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ومأهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ البقرة ١٧٢-١٧٣. الاستمتاع بمباهج الحياة – ومنها الطيبات من الرزق –هو جزء من عبادة الله كذلك، طالما أنه يفيد النفس الإنسانية ويروّح عنها، بعيدا عما يضرها ويؤذيها من الخبائث.

﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوٰة لذكري ○ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ طه ١٤-١٥. الصلاة جزء من عبادة الله، إن نهت صاحبها عن الفحشاء والمنكر من الفعل *، أي إذا أفضت به إلى ممارسة العمل الصالح على وجه العموم. أما مجال عبادة الله فهو سعي الإنسان كله، أي عمله الواعي، الذي سيحاسبه الله على أساسه في اليوم الآخر.﴿..لتجزى كل نفس بما تسعى﴾.

﴿ومأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوٰة ويؤتوا الزكوٰة وذلك دين القيمة ○ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ○ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ○ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ البينة ٥-٨. نلاحظ عطف الصلاة والزكاة على عبادة الله عطف خاص على عام، وهما تدريبان إلهيان تقويميان، هدفهما تدريب المسلم على اجتناب الفحشاء والمنكر من الفعل بشكل أساسي. ولا يؤجر المسلم عليهما بالجنة، إلا عندما تقودانه إلى ممارسة العمل الصالح على وجه العموم.. والله أعلم.

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلوٰة وآتوا

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع، بحث التوحيد وعلاقته بالصلاة.

**الزكوة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ○ وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ○ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ومااللـه بغافل عما تعملون﴾** البقرة ٨٣-٨٥. عبادة الله هي في ممارسة المؤمن للعمل الصالح على وجه العموم، وهو في الآيات الكريمة الإحسان للوالدين، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، والقول الحسن ..إلخ. أما أداء الفرائض الأربع فهو جزء من العمل الصالح، إن أثمر عن اجتناب المسلم للفحشاء والمنكر من الأفعال، كقتل النفس، وإخراج فريق من الناس من ديارهم. ونلاحظ أن حساب الله لبني اسرائيل يوم القيامة مبني على أساس ما ارتكبوه من عمل فاسد، حتى وإن أدّوا الصلاة، وآتوا الزكاة.

**﴿ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾** الحج ٧٧. عبادة الله هي في فعل كل ما يحقق الخير والصلاح للإنسان وللإنسانية وللكون، ويحسن لهم جميعا. وهي ليست نفسها الركوع والسجود، وإلا لما عطفت عليها، حيث لا يعطف الشيء على نفسه في اللغة العربية *. ولهذا فإن العطف في الآية الكريمة عطف متشابهات. أي أن الركوع والسجود هما عبادة لله في حال أفضيا بالمسلم إلى الخير، والصلاح، والإحسان.

### ث- عبادة الله والصراط المستقيم:

بما أن عبادة الله لا تكون إلا من خلال ممارسة المسلم للعمل الصالح، انطلاقا من إيمانه بالغيب عقيدة، وبما أن **الصراط المستقيم هو القاعدة**

---

* راجع الفصل الأول، هامش الصفحة ٣١.

**الأساسية للعمل الصالح**، لذلك تؤكد الآيات الكريمة أن التزام المؤمن بقواعد الصراط المستقيم هو المنطلق الأساسي لهدايته إليه تعالى، وعبادته:

﴿**الرحمن الرحيم ٥ مالك يوم الدين ٥ إياك نعبد وإياك نستعين ٥ اهدنا الصراط المستقيم**﴾ الفاتحة ٣-٦. طلب العون من الله جزء من عبادته (عطف خاص على عام). وعبادة الله هي في الهداية إلى قواعد الصراط المستقيم، أي في الالتزام بما يأمر به، والامتناع عما ينهى عنه.

﴿**ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين٥ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾ يس ٦٠-٦١.

﴿**إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾ آل عمران ٥١.

ويتفق مع هذا ما روي في **صحيح البخاري**، في طلب رسول الله ﷺ مبايعته على أساسيات الدين: " أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله: أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شهد بدرا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: { **بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف**، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله له فهو إلى الله، إن شاء عفى عنه وإن شاء عاقبه } "، كتاب الإيمان، الحديث رقم (١٨). أخرجه مسلم في الحدود.

إن أفعال الإنسان، التي لا يُراعى فيها الالتزام بقواعد الصراط المستقيم، تجانب الخير والصلاح **في كل الأحوال**. فشاهد الزور، وناقض العهد، وآكل مال اليتيم، والمسيء لوالديه، تجانب أفعالهم جميعا الخير والصلاح، **حتى وإن كان هدفهم من وراء ذلك تحقيق الأفضل، والأصوب، حسب مايتصورون**. وبتعبير آخر، إن عمل الإنسان لايصلح إلاّ بموافقة قواعد الصراط المستقيم، ولا يفسد إلاّ بمخالفتها.

لقد أهمل الكثير من علماء المسلمين طيلة القرون الماضية دراسة مفهوم العمل الصالح في كتاب الله، ومازال الكثير منهم يركز – حتى يومنا هذا – في مؤلفاتهم على الأمور الفرعية من الدين، كمواصفات لباس المرأة، وخصوصيات الحيض، وفقه الطهارة والنجاسة. بينما يندر أن نجد مؤلفا يشرح أبعاد العمل الصالح، فيجعل من تأسيس معاهد البحث العلمي، والتطوير الثقافي، والاقتصادي، والسياسي، والتعليمي، ومن تحقيق العدل الاجتماعي، وقيادة الأمة إلى السيادة والحياة الحرة الكريمة، أعمالا صالحة. ويفسر هذا حالة التخلف والضعف، التي تعاني منهما أمة محمد ﷺ في عصرنا الحالي، تخلف وضعف ماكانا لولا استبعاد العمل الصالح إلى الصفوف الخلفية الباهتة من مفهوم عبادة الله.

## ٣- العمل الصالح وتقوى الله:

اشتقت كلمة (التقوى) من الفعل (وقى)، ولهذا الفعل أصل واحد يدل على " دفع شيء عن شيء بغيره "[١٠]، والوقاية هي " حفظ الشيء عما يؤذيه ويضره "[١١]. **فالتقوى إذن هي وقاية الإنسان نفسه من القيام بالعمل الفاسد، من خلال قيامه بالوجه الصالح للفعل،** كاجتناب فعل البخل من خلال فعل العطاء، واجتناب نقض العهود من خلال حفظها، واجتناب نساء النبي ﷺ الخضوع بالقول من خلال ممارستهن القول المعروف.

يقول تعالى:

**﴿إن سعيكم لشتى ○ فأما من أعطى واتقى ○ وصدق بالحسنى ○ فسنيسره لليسرى ○ وأما من بخل واستغنى ○ وكذب بالحسنى ○ فسنيسره للعسرى﴾** الليل ٤-١٠.

**﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾** الأنفال ٥٦.

**﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ○ يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلاتخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا﴾** الأحزاب ٣١ - ٣٢.

**﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ○ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾** آل عمران ١٤-١٥.

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ البقرة ٢٢٤.

﴿ونفس وما سواها ○ فألهمها فجورها وتقواها﴾ الشمس ٧-٨.

﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ص ٢٨.

﴿يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الأعراف ٣٥.

﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ البقرة ١٨٣. الصوم هو تدريب للنفس الإنسانية على وقاية نفسها من ارتكاب الأعمال الفاسدة، وذلك عن طريق مجاهدة النفس ضد بعض رغباتها الجسدية والنفسية *.

﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ○ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ غافر ٨-٩.

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ البقرة ١٨٩.

وتقوى الله تعبير نفهم منه المجاز، ويعني وقاية الإنسان نفسه من وعيد الله وغضبه، من خلال قيامه بالأفعال الخيرة النبيلة، بما في ذلك وقايته نفسه من ارتكاب الأفعال الضارة بالنفس، والأسرة، والمجتمع، والكون.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع، بحث الإحسان وعلاقته بالصوم.

يقول تعالى:

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ○ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ طه ١١٢-١١٣.

﴿يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما﴾ الأحزاب ١.

﴿فاتقوا الله وأطيعون ○ ولا تطيعوا أمر المسرفين ○ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ الشعراء ١٥٠-١٥٢.

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربوا إن كنتم مؤمنين﴾ البقرة ٢٧٨.

﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ البقرة ٢٨٣.

﴿يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ الطلاق ١.

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ المائدة ٢٧.

والالتزام بقواعد الصراط المستقيم هو القاعدة الأساسية لتقوى الله، ولذلك يقول تعالى في القاعدة العاشرة من قواعد الصراط المستقيم **﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه.. لعلكم تتقون﴾**. ويقول تعالى أيضا:

**﴿ولله مافي السماوات ومافي الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ○ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾** النجم ٣١-٣٢ *.

ويتفق مع هذا ما روي في **صحيح مسلم** " عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: { لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، **التقوى ههنا** }، ويشير إلى صدره ثلاث مرات { بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم: كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه } "، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم (٢٥٦٤).

وعليه، فإن تقوى الله هي في أن **يرى المؤمن الله في أقواله، وأفعاله، ومواقفه في الحياة.**

---

* يقول الطبري في تفسير الآية الثانية من سورة البقرة " حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: سألني الأعمش عن المتقين، قال: فأجبته، فقال لي: سل عنها الكلبي، فسألته، فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم، قال: فرجعت إلى الأعمش فقال: نرى أنه كذلك ".

## ٤- العمل الصالح والسيادة والتوبة والمغفرة:

إن دراسة أبعاد العمل الصالح في حياتنا المعاصرة، انطلاقا من الظروف الموضوعية التي تعيشها المجتمعات المسلمة، هو طريق تلك المجتمعات للتخلص مما تعاني منه من تخلف ثقافي وحضاري، ومن مشاكل اقتصادية، وسياسية، وبيئية، لا تنتهي. إنه طريقها للاستخلاف في الأرض.

يقول تعالى:

**﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾** النحل ٩٧.

**﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾** النور ٥٥.

**﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾** العنكبوت ٩.

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ○ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ آل عمران ١١٣-١١٤.

**﴿ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ○ وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾** المنافقون ٩-١٠.

وسيُبعث الصالحون يوم القيامة برفقة الأنبياء، والصديقين، والشهداء. يقول تعالى:

**﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾** النساء ٦٩.

فإذا ما قصّر المؤمن في واجبه تجاه نفسه، وأسرته، ومجتمعه، وتراكمت عليه الذنوب والسيئات، فكيف له أن يتوب إلى الله؟.. وعلى أي أساس يغفر الله له ذنوبه وسيئاته؟..

تؤكد الآيات الكريمة أن **التوبة** لا تكون إلاّ من خلال **إصلاح المسلم لما أفسده، وبناء ما هدمه**، حيث لا يوجد من يصلح ذلك عنه.

يقول تعالى:

**﴿فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾** يونس ٨١.

**﴿إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ○ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾** البقرة ١٥٩-١٦٠.

**﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ○ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ○ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ○ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾** آل عمران ٨٦-٨٩.

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ○ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾ النساء ١٤٥-١٤٦.

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون○ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ النحل ١١٨-١١٩.

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ الأنعام ٥٤.

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ○ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما﴾ النساء ١٥-١٦.

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ○ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ النور ٤-٥.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ○ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾ المائدة ٣٨-٣٩.

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوٰة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا○ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾ مريم ٥٩-٦٠.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ○ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ○ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين﴾ القصص٦٥-٦٧.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ○ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ○ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ○ إنها ساءت مستقرا ومقاما○ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ○ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما ○ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا ○ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ○ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا﴾ الفرقان ٦٣-٧١.

وبما أن توبة المفسد في الأرض لا تكون إلا من خلال إصلاح عمله، فإن مغفرة الله له تتركز على مدى إصلاحه لعمله الفاسد، واتجاهه نحو ممارسة العمل الصالح.

يقول تعالى:

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ المائدة ٩.

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ طه ٨٢.

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾ التغابن ٩.

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾ الإسراء ٢٥.

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ○ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ هود ١٠-١١.

﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾ التغابن ١٧.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ العنكبوت ٧.

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾ سبأ ٤.

﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ فاطر ٧.

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾ الحج ٥٠.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ الفتح ٢٩.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ○ أولئك الذين

**نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾** الأحقاف ١٥-١٦.

**﴿ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ○ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ○ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾** الصف ١٠-١٢.

**﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ○ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾** الأحزاب ٧٠-٧١.

**﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾** الفرقان ٧٠.

ولذلك فمن الخطأ القول إن من الذنوب والسيئات ما لا يغفرها الله لعباده، حيث لا يغفر الله أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ويتفق مع الآيات الكريمة ما روي في **صحيح مسلم** " عن أبي هريرة رضي الله، عن رسول الله ﷺ قال: { تعرض **أعمال الناس** في كل جمعة مرتين، **فيغفر** لكل عبد مؤمن، **إلا عبدا بينه وبين أخيه شحناء**، فيقال: اتركوا، أو اركوا، هذين حتى يفيئا } "، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم (٢٥٦٥).

## ٥- العمل الصالح والتفضيل الإلهي:

يؤكد الذكر الحكيم في جلّ آياته أن الناس جميعا سواء عند الله، ذكورا وإناثا، بيضا وحمرا وصفرا وسودا، أغنياء وفقراء، عربا وأعاجم. كما يؤكد أن الله لا يفضّل الناس بعضهم على بعض إلاّ على أساس العقيدة والعمل، أي على أساس مدى رسوخ التوحيد في النفس المؤمنة، الذي يتجلى بالضرورة من خلال التزامها بالعمل الصالح.

يقول تعالى:

**﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ○ ولكل درجات مما عملوا وماربك بغافل عما يعملون﴾** الأنعام ١٣١-١٣٢.

**﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾** الأحقاف ١٩.

**﴿ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما﴾** النساء ٣٢.

**﴿ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾** المجادلة ١١.

**﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ○ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما﴾** النساء ٩٥-٩٦.

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ التوبة ٢٠.

﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ۝ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ آل عمران ١٦٢-١٦٣.

﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ۝ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ۝ الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون ۝ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ الأنفال ١-٤.

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ۝ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ۝ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا ۝ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ۝ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾ الإسراء ١٨-٢٢.

﴿إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ۝ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلىٰ ۝ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ طه ٧٤-٧٦ * .

---

* أما قوله تعالى ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ الزخرف ٣٢، فلا علاقة له بالتفضيل الإلهي للناس بعضهم على بعض، وإنما تعني الآية الكريمة الاختلاف الفطري بين الناس في الطبائع، والكفاءات، والقدرات، مما يؤدي إلى تشكل الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الإنسانية.

وعلـى الرغـم مـن موافقـة التفاسـير القرآنيـة والفقـه الإسـلامي للقـرآن الكريم في ذلك على وجه العموم، إلاّ أنهم **لا يوافقونـه فيمـا يخـص تفضيـل الناس بعضهم على بعض، من حيث كونـهم ذكورا وإناثا.**

يقول **ابن كثير** في تفسيره للآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء:

" ﴿**الرجـال قوامـون علـى النسـاء..**﴾ أي الرجـل قيـم علـى المـرأة، أي هـو رئيسـها وكبيرهـا والحـاكم عليهـا ومؤدبهـا إذا اعوجـت،﴿**..بمـا فضـل اللـه بعضهم على بعض**﴾ أي لأن **الرجال أفضـل مـن النسـاء**، و**الرجـل خـير مـن المرأة**، ولـهذا كانت النبوة مختصـة بالرجال، وكذلك الملـك الأعظـم لقولـه ﷺ (لـن يفلـح قـوم ولـوا أمرهـم امـرأة..)، وكـذا منصـب القضـاء وغـير ذلـك. ﴿**..وبما أنفقوا من أموالـهم..**﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبهـا الله عليهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، **فالرجل أفضل من المرأة في نفسه**، ولـه **الفضل عليـها والإفضال**، فناسب أن يكون قيّما عليها.. وقد قال رسول اللـــه { لو كنت آمر أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت **المـرأة أن تسجد لزوجهـا** مـن عظم حقه عليهـــا } " *.

ويقول الزمخشري في **الكشاف** في تفسير الآية الكريمة نفسها:

" ﴿**..قوامون على النساء..**﴾ يقومون عليهنّ آمرين ناهين، كما يقوم الـولاة على الرعايا، وسموا قوماً لذلـك. و**الضمـير فـي (بعضهـم) للرجـال والنسـاء جميعا**، يفيد إنمـا كـانوا مسيطرين عليهـن بسـبب **تفضيـل اللـه بعضهـم وهـم الرجال، علـى بعـض وهـم النسـاء..** وقـد ذكـروا فـي فضـل الرجـال: **العقـل، والحـزم، والعزم، والقـوة، والكتابـة-فـي الغـالب، والفروسية، والرمـي**، وأن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان،

---

* تتساءل: لو كان يؤمر بالسجود لأحد، أليس الوالدان أعظم حقا وأحقّ بالسجود لهما من الزوج، كما يؤيده عموم الذكر الحكيم ؟..

والخطبة، والاعتكاف.. وهم **أصحاب اللحى والعمائم**، ﴿..**وبما أنفقوا**..﴾ وبسبب ما أخرجوا في نكاحهن من أموالهم من المهور والنفقات ".

وفي تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة، يقول **ابن كثير**:

" ﴿..**وللرجال عليهن درجة**..﴾ أي **في الفضيلة في الخَلْق، والخُلُق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة** ".

ويقول **الزمخشري** في تفسير الآية الكريمة نفسها:

" ﴿..**درجة**..﴾ **زيادة في الحق وفضيلة**.. وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها ".

ويقول الطبري في **جامع البيان في تفسير القرآن** في تفسير الآية الكريمة نفسها:

" اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى الدرجة التي جعل الله للرجال على النساء **الفضل الذي فضلهم الله عليهن في الميراث، والجهاد، وما أشبه ذلك**.. حدثنا الحسن عن يحى قال أخبرنا عبدالرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة ﴿..**وللرجال عليهن درجة**..﴾ قال **للرجال درجة في الفضل على النساء**. وقال آخرون بل تلك الدرجة التي له عليها أن **جعل له لحية، وحرمها ذلك** ".

أما في تفسير كلمة (السفهاء) الواردة في الآية الخامسة من سورة النساء ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا**﴾، فيقول **ابن كثير**:

" **السفهاء** وهم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر **للجنون**، وتارة **لسوء التصرف، لنقص العقل**،

أو **الدين**. وقال الضحاك عن ابن عباس.. هم (أي السفهاء) **بنوك والنساء**، وكذا قال ابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك: هم **النساء والصبيان**.. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم **النساء**.. قال رسول الله ﷺ { **إن النساء سفهاء إلاّ التي أطاعت قيمها** } " * .

تركز التفاسير القرآنية – كما رأينا في المقتطفات المذكورة – على كون الرجال أفضل من النساء حسب مشيئة الله، أي باعتبار ذلك حقيقة مطلقة. ويذهب ابن كثير إلى أبعد من ذلك بمقارنتهن بالصغار مسلوبي العبارة، وبالمجانين، كونهن ناقصات في العقل والدين. ويأتي تفضيل التفاسير المذكورة للرجال على النساء تأسيسا على أمرين اثنين:

أولاً: **على أساس الخَلْق والفطرة**: أي أن الله فضّل الرجال على النساء في الخَلْق من الناحيتين الجسدية والنفسية، حيث خلقهم بصورة أفضل منهن **جسديا**، كونهم يتفوقون عليهن **عقلا وقوة**، ولهم تنبت اللحى، ولا ينبت للإناث مثلها إلخ.. كما فضّلهم عليهن **نفسيا**، كونه خلقهم متفوقين عليهن في **الفضيلة**، و**الخُلُق**، و**الحزم**، و**العزم**، و**المنزلة**.. إلخ. وهذا يعني أن الله فضّل الرجال على النساء من **الناحية الإنسانية** بشكل عام. وقد كان لابن كثير بلاغة اختصار المفهوم بالقول: **إن الرجل أفضل من المرأة في نفسه، وعقله، وفي الخَلْق، والخُلُق، والمنزلة في الدنيا والآخرة.**

---

* مما روي من الحديث على لسان الرسول الكريم مما يتوافق مع التفاسير المذكورة ما جاء في **صحيح مسلم** " عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: { **لولا حواء، لم تخن أنثى زوجها الدهر** } ". وفي شرح الحديث " أي لولا أن حواء خانت آدم في إغرائه وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة، وسنت هذه السنة، لما سلكتها أنثى مع زوجها. وانتصاب الدهر على الظرفية، أي أبدا "، كتاب الرضاع، الحديث رقم (١٤٧٠). ويتناقض الحديث المذكور مع آيات القرآن الكريم، حيث يؤكد تعالى أن آدم وزوجه خالفا الأمر معا (أنظر الآيتين ٣٥ و ٣٦ من سورة البقرة). ومما جاء في **صحيح البخاري** " عن أبي عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: { قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن **أصحاب النار** قد أمر بهم إلى النار، فإذا **عامة من دخلها النساء** } " كتاب الرقاق، الحديث رقم (٦١٨١).

ثانياً: توفر شرط عارض، وهو الإنفاق، والقيام بالمصالح، إلى جانب الكتابة، والفروسية، والرمي، والأذان، والاعتكاف، ولبس العمائم.. إلخ.

أما ميزان الله في **تفضيل الناس بعضهم على بعض في الذكر الحكيم، فإنما يتأسس** على أمرين اثنين، انطلاقا من مسلمة أساسية، تقضي باتصافه تعالى بالعدل المطلق. وهما:

أولاً: إن ميزان التفضيل الإلهي للناس بعضهم على بعض – ذكورا وإناثا – مبني على أساس **قدرة الإنسان على الاختيار وفق إرادة حرة، لا على ما أُجبر عليه جبراً**. وبما أن جنس الإنسان هو من حيثيات الخلق التي لا يملك الإنسان اختيارها بنفسه، فإنه لا يمكن أن يكون – وما يتبعه من صفات جسدية أو نفسية فطرية – أساساً للتفضيل الإلهي. حيث لا يقع ضمن دائرة اختيار الأنثى أنها أنثى، بكل ماتحمله من صفات جسدية ونفسية، كما لا يقع ضمن دائرة اختيار الذكر أنه ذكر، بكل مايحمله من صفات جسدية ونفسية.

ثانياً: وبما أن الإنسان يتمتع **بالحرية الكاملة** في الاختيار بين الإيمان والكفر، وبين العمل الصالح والعمل الفاسد، لذلك فإن **تفضيل الله بعض الناس على بعضهم الآخر إنما ينحصر في هذه الدائرة فقط،** أي **في دائرة ما يملكون حرية الاختيار بين قبوله أو رفضه، وبين العمل به أو العمل بضده، ولا يتعدّاه أبداً إلى ما لا يملكون**. ويكون التفضيل الإلهي بذلك **نتيجة وليس سببا.**

يقول تعالى:

**﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾** النساء١٢٤.

**﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** الحجرات ١٣.

**﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾** النحل ٩٧.

**﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾** غافر ٤٠.

وإذا كنا لا نوافق أصحاب التفسير في تفسيرهم للآيتين الكريمتين الرابعة والثلاثين من سورة النساء، والثامنة والعشرين بعد المائتين من سورة البقرة، فلا بد من استعراضهما، حيث عانت بسبب سوء فهمهما نساء الإسلام كثيرا عبر القرون الماضية.

يقول تعالى في سورة النساء:

**﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ○ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾** النساء ٣٤-٣٥.

قلنا إنه ليس لأحد من بني البشر أن يختار جنسه بنفسه، أرجلا يرغب أن يكون، أم امرأة. ولهذا فإن كل مايتمتع به كلا الجنسين من مواصفات جسدية، أو نفسية فطرية، يقع خارج دائرة اختيارهما، وبالتالي خارج مجال التفضيل الإلهي، الذي يتصف بالعدل المطلق.

ونحن نناقض تلك المسلّمة عندما نقول إن الله يفضّل الرجال على النساء لأنهم أقوى منهن جسديا، أو لأنهم يتمتعون بتفوق عقلي فطري عليهن، أو لأنهم أفضل منهن في الفضيلة، والخُلُق، والمنزلة، تماما كما نناقضها إذا قلنا مثلا إن الله يفضل النساء على الرجال، لأنهن يحملن، ويلدن، ويرضعن أطفالهن، والرجل لا يفعل، حيث يقع ذلك كله خارج دائرة اختيار الرجال والنساء على السواء.

والتفضيل الإلهي للناس بعضهم على بعض - رجالا ونساء - مشروط في الآية الكريمة بشرطين:

أولاً: مدى أفضلية أحد الجنسين على الآخر في ميدان العمل الصالح، وهو **الشرط العام** في القوامة ﴿..**بما فضل الله بعضهم على بعض**..﴾: حيث أن قوله تعالى ﴿..**بعضهم**..﴾ يعود على مجموع الرجال والنساء على السواء، كما يقول الزمخشري في تفسيره، وهكذا الحال بالنسبة لـ ﴿..**بعض**..﴾، التي تعود بالضرورة على مجموع الرجال والنساء كذلك. وبهذا تعني الآية الكريمة أن بعض الرجال والنساء أفضل من بعضهم الآخر، انطلاقا من حقيقة أنه تعالى لا يفضل الناس بعضهم على بعض - رجالا ونساء - إلا على أساس العمل الصالح، كما تؤيده الآيات الكريمة المذكورة في مجال التفضيل الإلهي، وعموم الذكر الحكيم.

ثانياً: مدى ماينفق أحد الجنسين على الآخر من ماله الخاص ﴿..**وبما أنفقوا من أموالهم**..﴾: وهو **الشرط الخاص** في القوامة.

والخطاب في الآية الكريمة يعني الرجال والنساء ضمن أي صلة قرابة يمكن أن تجمع بينهم، لا الأزواج والزوجات بالتحديد، لأنه لو كان الأمر كذلك، لذكر الأزواج صراحة كما ورد في آيات أخرى مثل قوله تعالى

**﴿..وبعولتهن أحق بردهن..﴾** * و **﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾** النساء ١٢٨.

أما مايعنيه اسم الفاعل الذي يُقصد به المبالغة **﴿..قوّامون..﴾** مرتبطاً بحرف الجر **﴿..على..﴾**، فهو **التكفل بالأمر، والتصرف بالشأن.** ولا يتضمن معنى إصلاح الاعوجاج، أو التأديب، كما ورد في التفاسير المشهورة، للأسباب التالية:

إن كلمة (قوّامون) هي جمع اسم فاعل يُقصد به المبالغة، ومفردها (قوّام)، وأصل الكلمة (قام) من (قوَم)، وهو فعل ثلاثي له أصل واحد، يعني عند اقترانه بحرف الجر – كما ورد في الآية الكريمة – مايلي:

" قام بهذا الأمر، إذا اعتنقه.." (١٢). " ويقال: قام فلان على الشيء، إذا ثبت عليه وتمسك به.. وفي التنزيل العزيز: **﴿..الرجال قوّامون على النساء..﴾** إنما هو من قولهم قمت بأمرك، فكأنه والله أعلم الرجال **متكفلون بأمور النساء، معنيون بشؤونهن** " (١٣). والقائم على الشيء، **الثابت عليه**، وعليه قوله تعالى **﴿من أهل الكتاب أمة قائمة..﴾**، أي مواظبة على الدين، ثابتة عليه.

لقد كان الالتباس في تفسير تلك الكلمة نتيجةً لربط اسم الفاعل الذي يُقصد به المبالغة (قوّام) بالفعل (قوّم)، وعدم إرجاعه إلى أصله الحقيقي (قام أو قوَم) مع ربطه بحرف الجر (على)، كما ورد في الآية الكريمة. إن فعل (قوّم) يعني، كما جاء في معاجم اللغة العربية، إزالة الاعوجاج، وهو لا يحتاج إلى حرف جر بعده، فنقول: قوّم السيف، ولا نقول: قوّم على السيف. كما أن اسم الفاعل الذي يُقصد به المبالغة من الفعل (قوّم)، هو (قيّوم)،

---

* يأتي ذكر الآية الكريمة كاملة مع شرحها في الصفحة ٢٢٩ إلى ٢٣٢.

و(قيّام)، و (قيّم)، وليس (قوّام)، فنقول (قيّم القوم) أي سيدهم وسائس أمرهم (نلاحظ عدم وجود حرف الجر).

وقد وردت كلمة (قوّام) في الذكر الحكيم في آيتين كريمتين، بالإضافة إلى الآية موضوع بحثنا، وهما:

**﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾** النساء ١٣٥.

**﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** المائدة ٨.

نلاحظ اقتران اسم الفاعل (قوّام) بحرفي الجر الباء واللام، ويعني في الآيتين الكريمتين **التكفل بالأمر، وحفظه، وإعلاء شأنه.**

والآية **﴿الرجال قوامون على النساء..﴾** تعني أن الرجال يكثرون من التكفل بأمور النساء، وحفظهن، والتصرف في شؤونهن، ليس بدوام ذواتهم باعتبارهم رجالا، ولكن طالما أنهم أفضل منهن عملاً بشكل عام، وينفقون عليهن من أموالهم بشكل خاص.

وطالما أن القوامة للرجال مشروطة بشرطين، فمن يقوم إذن بالتكفل بالأمر والتصرف بالشأن، إن لم يتوفر في الرجال هذان الشرطان؟..

هنا نعلم لماذا ورد اسم الفاعل الذي يُقصد به المبالغة **﴿..قوّامون على..﴾**، ولم يرد اسم الفاعل خالياً من صيغة المبالغة (قائمون على)، أو الفعل الأصلي (يقومون على). ذلك أن المعنى المراد من الآية الكريمة – كما نفهمه – ليس فقط أن الرجال يتكفلون بأمور النساء، ولكن أنهم **كثيرو التكفل**

بأمور النساء. والسؤال: إذا كان الرجال كذلك، فهم كذلك أكثر مِمَّن؟.. أو بالمقارنة مع من؟.. يأتي الجواب في الجملة التي تليها مباشرة في قوله تعالى: ﴿..**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله..**﴾، أي أنه إن لم يتوفر في الرجال شرطا أفضلية العمل والإنفاق، فإن النساء الصالحات للقيام بالأمر، والتصرف بالشأن، هن:

- **القانتات الطائعات لله**، حيث لم يرد القنوت في القرآن الكريم إلا لله، وليس للزوج، أو لأي من الناس *. يقول تعالى:

﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين**﴾ النحل ١٢٠.

﴿**وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له مافي السماوات والأرض كل له قانتون**﴾ البقرة ١١٦.

﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**﴾ الأحزاب ٣٥.

﴿**ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**﴾ التحريم ١٢ **.

- **والحافظات للغيب بما حفظ الله: الغيب هو غيب الله** كما ورد في عموم القرآن الكريم، وليس غيبة الزوج، أو أي من الناس. يقول الطبري في تفسير

---

* ورد القنوت للرسول الكريم فقط من بني البشر بالنسبة لنسائه، في قوله تعالى ﴿**ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين..**﴾. تجد الآية الكريمة كاملة في ص: ٢٠٥.

** أنظر أيضا الآيات رقم ٥ من سورة التحريم، و ٢٦ من سورة الروم، و ٢٣٨ من سورة البقرة، و١٦ و ١٧ من سورة آل عمران.

الآية الكريمة " قال ابن جريج، سألت عطاء عن قوله ﴿..**بما حفظ الله..**﴾، قال: يقول حفظهن الله ". أما ما حفظ الله فهو الذكر، لقوله تعالى ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ الحجر ٩. والذكر هو كل ماذكر الله به عباده بوجوده عن طريق الرسالات السماوية جميعا، وخاتمها الذكر الحكيم. أي أن النساء **الحافظات للغيب هن اللاتي لا ينسين ذكر الله وتعاليمه.**

والصلاح في ﴿..**فالصالحات..**﴾ من الصلاح للقيام بعمل محدد، وهو في الآية الكريمة التكفل بالأمر والتصرف بالشأن (القوامة)، وليس الصلاح على وجه الإطلاق. لأن معنى الصلاح على وجه الإطلاق يتضمن معنى القنوت وطاعة الله وذكره بالضرورة. فإن كان كذلك، فأين الخبر الذي يتقصد تعالى أن يخبرنا به في كون الصالحات من النساء قانتات، طالما أن الصالحات تتضمن أصلاً معنى القنوت، وطاعة الله، وذكره؟.. هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد بين الكلمتين ﴿..**فالصالحات قانتات..**﴾ عطف، كي نرجع الأمر إلى كونه عطف خاص على عام. نقول ذلك تأسيسا على كون القرآن الكريم يمثل الحالة القصوى لعلم الدلالات اللغوية، والبلاغة في اللغة العربية.

أما معنى النشوز في ﴿..**واللاتي تخافون نشوزهن..**﴾ فهو **النشوز عن طاعة الله**، وعن ذكره، وليس النشوز عن طاعة الزوج أو أي من الناس، حيث أن الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿..**فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله..**﴾. والمعنى أن اللاتي تخافون نشوزهن عن طاعة الله، وعن ذكره، أثناء توليهنّ الأمر (القوامة)، لكم أن تختاروا حيالهن أحد **الأفعال** الثلاثة، بما يتناسب والعلاقة التي تربطكم بهن: العظة، أو الهجران في المضجع، أو الضرب (الهجران في المضجع مثلا للزوجات فقط، وجاء آنفا أن الخطاب في الآية يعني الرجال والنساء ضمن أي صلة قرابة يمكن أن تجمع بينهم). والمطلوب هو **الاختيار بين تلك الأفعال الثلاثة**، وليس فعلها على الترتيب للمرأة الواحدة، لأن واو العطف ﴿..**واهجروهن في المضاجع واضربوهن..**﴾ لا تفيد الترتيب في اللغة العربية كما نعلم، وإنما تفيد الإضافة، أما ما يفيد الترتيب فهما الحرفان (الفاء) و (ثم) (١٤). فعندما نقول جاء زيد وعمرو، فإن ذلك لا يعني أنه جاء عمرو بعد زيد، وإذا

أردنا الترتيب نقول: جاء زيد فعمرو، أو جاء زيد ثم عمرو *. وهذا واضح تماما في قوله تعالى ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..**﴾ حيث لا تعني واو العطف الترتيب، وإنما تعني (أو).

أما الفعل ضرب فهو أصل واحد يدل على " إيقاع شيء على شيء "(١٥)، ويكون ذلك مادياً، أو معنوياً. والضرب على المستوى المادي معروف وأمثلته كثيرة، ويقترن عادة بتحديد وسيلة الضرب **، أما الضرب على المستوى المعنوي، فقد ورد في قوله تعالى:

﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ الرعد ١٧.

﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾ النساء ٩٤.

﴿**فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا**﴾ الكهف ١١.

﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين**﴾ الزخرف ٥.

---

* أما (حتى) فالعطف بها قليل، وإذا أردنا الترتيب مع استعمال حرف العطف الواو، قلنا: جاء زيد وعمرو بعده.

** أنظر الآيات ٦٠ من سورة البقرة، و ٤٤ من سورة ص، و٩٣ من سورة الصافات.

**﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** البقرة ٦١.

نلاحظ من الآيات الكريمة أن الضرب على المستوى المعنوي يأتي أحياناً بمعنى إنزال العقوبة المعنوية على الناس، كعقاب الله لكفار اليهود بضربهم بالذل والمسكنة ﴿..**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله..**﴾، وعقابه للمسرفين بضرب الذكر عنهم ﴿**أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين**﴾.

وعلينا أن نحمل الضرب في الآية الكريمة موضوع البحث على **المستوى المعنوي للضرب بالضرورة**، أي إنزال **عقوبة معنوية** على النساء اللاتي ينشزن عن طاعة الله أثناء توليهن" الأمر (القوامة)، بما يتناسب والظروف الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية المتغيرة للمجتمعات الإنسانية، باعتبار ذلك اختيارا آخر إلى جانب العظة من جهة، والهجران في المضجع من جهة أخرى *. ولذلك يقول تعالى ﴿..**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا..**﴾، أي لا تسلكوا معهن سبيلا آخر، كاستعمال تفوقكم عليهن من حيث القوة البدنية (وهو الضرب على المستوى المادي)، لأن الله أعلى منكم جميعا، وأقوى ﴿..**إن الله كان عليا كبيرا**﴾. ولا يمكن أن يكون الطلاق هو المقصود بقوله تعالى ﴿..**فلا تبغوا عليهن سبيلا..**﴾، لأن الخطاب في الآية الكريمة كما قلنا يعني الرجال والنساء من خلال أي علاقة يمكن أن تجمع بينهم، وليس علاقة الزواج فحسب. أما إن خشيتم حدوث قطيعة بين الطرفين، فليجتمع حَكَم من أهل كل منهما لإصلاح الأمر فيما بينهما، إن أراد صاحبا الشأن حقا ذلك. أما الأهل فهم أخص الناس بالإنسان، وأهل

---

* بالنسبة للزوجات فقط.

الرجل " أخص الناس به، وأهل البيت سكانه، وأهل الإسلام من يدين به "[(١٦)].

إن في حمل معنى الفعل (واضربوهن) على الوجه المادي للضرب إهدار لكرامة المرأة، وإنسانيتها، اللتين حفظهما الله لها خاصة، وللإنسان عامة، خليفته في الأرض. وهو يتناقض مع عموم الذكر الحكيم، الذي ساوى بين الرجال والنساء، ومع سلوك الرسول الكريم مع نسائه ونساء المؤمنين، الذي اتصف بالاحترام، والعدل، والرحمة بهن، وحفظ كرامتهن، وعزتهن بأنفسهن، بعيدا عن القسوة، والشدة، والغلظة. ولم يرو عنه ﷺ أنه ضرب إحدى نسائه، بل قوله إن **النساء شقائق الرجال.**

وهكذا نرى أن الآية الكريمة ترصد قانوناً اجتماعياً ينطبق على الرجال والنساء على السواء، وتتطابق مع الحقيقة الموضوعية التي تعيشها المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان. فالأفضل عملا، الذي ينفق على أفراد أسرته، هو الذي يمتلك زمام أمرهم بغض النظر عن جنسه، وضمن أي علاقة يمكن أن تربطه بهم. فالمرأة التي تنفق على أخيها، أو حتى أبيها، تمتلك زمام أمره مع مرور الوقت، بشكل مباشر، أو غير مباشر. والزوج الذي يفضل زوجته عملا، وينفق عليها، يمتلك زمام أمرها بصورة أو بأخرى، وهكذا الحال بالنسبة للزوجة إن كانت أفضل عملا من زوجها، وتنفق عليه، فإنها تمتلك زمام أمره مع مرور الوقت. فإذا أردنا تجاوز العلاقات بين الأفراد إلى العلاقات بين المؤسسات، وبين الدول، رأينا أن القانون الموضوعي هذا ينطبق عليها كذلك.

**الآية الكريمة الثانية**، التي عانت بسبب سوء فهمها نساء الإسلام طويلا، هي:

**﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾** البقرة ٢٢٨.

يكفي أن نربط جملة ﴿..**وللرجال عليهن درجة..**﴾ بسياق الآية الكريمة، حتى نتبين متى يكون للرجال درجة على النساء، حيث أن الحكم فيها خاص بحالة معينة(١٧)، وليس مطلقا في الرجال والنساء على وجه العموم.

فالخطاب في الآية الكريمة يعني الرجال والنساء الذين تربطهم علاقة الزوجية، وليس أي علاقة أخرى، وهذا واضح من خلال ذكره تعالى للمطلقات وبعولتهن بالتحديد. أما موضوع الآية الكريمة فهو كيفية معالجة الموقف حين تكتشف المرأة المطلقة جنينا في بطنها قبل انتهاء أشهر العدة، حيث يتوجب عليها التصريح به، إن كانت تؤمن فعلا بالله وباليوم الآخر. فإن أراد الرجل ردّ طليقته إليه، بعد علمه بوجود الجنين وقبل انتهاء أشهر العدة، رغبة صادقة منه في إصلاح ما بينهما – وليس بهدف إلحاق الضرر أو الأذى بها على سبيل المثال – كان له ما أراد، حتى وإن تمسكت المطلقة برغبتها في الانفصال لسبب أو لآخر، ولهن في هذه الحالة مثل الذي عليهن بالمعروف من حيث الحقوق والواجبات. فالرجل أحقّ بمطلقته الحامل من غيره من الرجال، التي ربما ترغب المطلّقة الزواج منه. ويؤكد على هذا **فعل التفضيل (أحقّ)** الوارد في الآية الكريمة، حيث يعني ضمنا وجود شخص آخر تريد المطلقة الزواج منه، وإلاّ فإن بعلها أحقّ بذلك مِمَّن؟..

يقول تعالى:

﴿**ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**﴾ التوبة ١٣.

﴿**يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين**﴾ التوبة ٦٢.

﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وماعتدينا إنا إذا لمن الظالمين﴾ المائدة ١٠٧.

﴿وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ الأنعام ٨١. * .

أما ذكر كلمة الرجال – التي تعني البعول وغير البعول – في قوله تعالى ﴿..وللرجال عليهن درجة..﴾ فيدلّ على أن للرجال عامة من أهل المطلقة في هذه الحالة درجة عليها، كالآباء، والأخوة مثلا. وهذا يعني إمكانية فرض الأب، أو الأخ، إرادته على المطلقة الحامل، كي ترجع إلى بعلها، على الرغم من تمسكها بالانفصال، لسبب أو لآخر.

أما بعد انتهاء أشهر العدة، فإن الرجال يفقدون مباشرة الدرجة التي تقدم بموجبها رغبتهم على رغبة المرأة المطلقة، ووجب في هذه الحالة التراضي بين المطلّقة وطليقها، لذلك يقول تعالى:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولاتتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم ومـاأنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ○ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ البقرة ٢٣١-٢٣٢.

---

* أنظر أيضا الآيات رقم ٢٤٧ من سورة البقرة، و ١٠٨ من سورة التوبة، و ٣٥ من سورة يونس، و٣٧ من سورة الأحزاب، و ٢٦ من سورة الفتح.

وعليه فإنه في حالة واحدة فقط، يكون لرغبة الرجل درجة على رغبة المرأة، وذلك حين اكتشاف جنين في بطن المطلّقة، التي ربما ترغب في الزواج من رجل آخر، ورغبة بعلها الصادقة بردّها إليه من أجل إصلاح مابينهما. وما الهدف من ذلك سوى الحفاظ على صدق النسب من جهة، وعلى الرابط الأسري - الذي يعتبره الإسلام مقدسا - من جهة أخرى.

إن من يستند على الجملة من الآية ﴿..**وللرجال عليهن درجة..**﴾ في تسويغ تفضيل الله للرجال على النساء، باعتباره حكماً مطلقاً، يقول مع القائلين ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة..**﴾ ويسكت عن ﴿..**وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا**﴾ النساء ٤٣.

## - العمل الصالح والجنة:

إذا كان الله سبحانه خلق الإنسان بهدف امتحانه في عمله الواعي - الذي يتجلى فيه إيمانه بالله وباليوم الآخر - فإنه لا بد أن يكون عمله هذا هو القاعدة التي سيحاسبه على أساسها يوم الحساب.

يقول تعالى:

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ○ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون ○ ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ الزمر ٦٨ - ٧٠.

﴿يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ○ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ○ ولكل درجات مما عملوا وماربك بغافل عما يعملون﴾ الأنعام ١٣٠ - ١٣٢.

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون﴾ النحل ١١١.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون﴾ يس ٥٤.

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ التغابن ٧.

﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون﴾ الجاثية ٢٨.

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ النور ٢٤.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون﴾ سبأ ٣٣.

﴿ألا إن لله مافي السموات والأرض قد يعلم ماأنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ النور ٦٤.

﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾ لقمان ٢٣.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون﴾ النحل ٩٣.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ الأنعام ٦٠.

﴿يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ○ ألم تر أن الله يعلم مافي السماوات ومافي الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ماكانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ المجادلة ٦-٧.

﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ هود ١١١.

﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ○ وانتظروا إنا منتظرون ○ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون﴾ هود ١٢١-١٢٣.

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ غافر ١٧.

﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ التوبة ١٦.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ التوبة ١٠٥.

﴿قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ الأنعام ١٦٤.

وإذا كان العمل الصالح هو الميدان الذي يعبد المؤمن ربه في رحابه، ومن خلاله يتوب إليه، وبناء عليه يغفر الله للمؤمن ذنوبه وسيئاته، وعلى أساسه يفضّل الناس بعضهم على بعض، فإنه لا بد أن يكون **العمل الصالح هو سبب دخول الإنسان جنات الخلد.**

يقول تعالى:

﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ غافر ٤٠.

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ النساء ١٢٤.

﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾ مريم ٦٠.

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ○ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ○ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ○ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ آل عمران ١٣٣-١٣٦.

﴿رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا﴾ الطلاق ١١.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ البقرة ٢٥.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ البقرة ٨٢.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا﴾ النساء ٥٧.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا﴾ النساء ١٢٢.

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ المائدة ٩.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ هود ٢٣.

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ الرعد ٢٩.

﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾ ابراهيم ٢٣.

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ○ قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا﴾ الكهف ١-٢.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ الكهف ٣٠.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾ الكهف ١٠٧.

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ النحل ٩٧.

﴿ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ طه ٧٥.

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ طه ١١٢.

﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ الأنبياء ٩٤.

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ الإسراء ١٩.

﴿إن اللـه يدخـل الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهار إن الله يفعل مايريد﴾ الحج ١٤.

﴿إن اللـه يدخـل الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيهـا حرير﴾ الحـج ٢٣.

﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنـوا وعملـوا الصالحـات فـي جنـات النعيم﴾ الحج ٥٦.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ العنكبوت ٩.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾ العنكبوت ٥٨.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾ الروم ١٥.

﴿ليجزي الذي آمنوا وعملوا الصالحـات من فضلـه إنـه لا يحـب الكـافرين﴾ الروم ٤٥.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم﴾ لقمان ٨.

﴿أمـا الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات فلهـم جنـات المـأوى نـزلا بمـا كـانوا يعملون﴾ السجدة ١٩.

﴿ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقـع بهـم والذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحات في روضات الجنات لهـم مايشـاؤون عنـد ربهـم ذلـك هـو الفضـل الكبير﴾ الشورى ٢٢.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين﴾ الجاثية ٣٠.

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ محمد ١٢.

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ○ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ فاطر ٣٢-٣٣.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ البروج ١١.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ○ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ الأعراف ٤٢-٤٣.

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ○ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ فاطر ٣٦-٣٧.

## ٧- متى يبطل العمل الصالح؟..

وبناء على ما تقدم، فإن الله يتقبّل الأعمال الصالحة من الناس جميعا، الذين يؤمنون بالله الواحد وباليوم الآخر، على ملة إبراهيم عليه السلام. أما أولئك الذين لا يتقبل الله أعمالهم الصالحة، أي يحبطها، فهم:

- المشركون بالله، أو الكافرون به وباليوم الآخر.
- المنافقون.
- الذين يقتلون النبيين، أو يقتلون من يأمر بالقسط من الناس .

وهذا يعني أن كل إنسان يعمل عملا صالحا وهو صادق الإيمان بالله الواحد لا شريك له وباليوم الآخر، ولا يقتل النبيين، ولا يقتل من يأمر بالقسط من الناس، **يتقبّل الله منه عمله الصالح كاملا، ويدخله بالتالي جنات الخلد**، سواء أكان على شرعة التوراة، أم على شرعة الانجيل، أم على شرعة القرآن الكريم، أم على أي من شرائع الصابئة، أم كان من الأميين.

يقول تعالى:

**﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ○ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾** الزمر ٦٤-٦٥.

**﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾** إبراهيم ١٨.

**﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** المائدة ٥.

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ○ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ○ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ الكهف ١٠٣-١٠٥.

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ○ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ماكانوا يعملون ○ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ○ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ الأعراف ١٤٦-١٤٩.

﴿ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ التوبة ١٧.

﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا في أنفسهم نادمين ○ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ المائدة ٥٢-٥٣.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ○ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ التوبة ٦٨-٦٩.

﴿ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ○ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ○ ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ محمد ٧-٩.

﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون﴾ الأنعام ٨٨.

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ البقرة ٢١٧.

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ○ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾ آل عمران ٢١-٢٢.

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ النور ٣٩.

﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ○ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾ الأحزاب ١٨-١٩.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ○ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ○ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ○ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ○ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ محمد ٢٤-٢٨.

## مصادر ومراجع الفصل الثالث


(١) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٢) المصدر السابق.

(٣) مصدر سابق، **جامع البيان في تفسير القرآن.**

(٤) الأندلسي، أبو محمد عبد الحق ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، الطبعة الأولى، الدوحة، قطر، تموز (يوليو) ١٩٨٢م.

(٥) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.

(٩) محمد أركون، **أين هو الفكر الإسلامي المعاصر**، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، بيروت - لبنان، ١٩٩٣م، ص: ٦٣ و ٩٢. الجدير بالذكر أن الدكتور أركون يركز على هذه النقطة في مؤلفاته الأخيرة.

(١٠) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(١١) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(١٢) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(١٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محرم بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ إصدار.

(١٤) النحوي، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، **شرح المفصل**، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، شارع الكحكيين نمرة ١، بدون تاريخ إصدار، الجزء الثامن، ص: ٩١.

(١٥) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) محمد شحرور، **الكتاب والقرآن**، دار الأهالي، دمشق، سورية، ١٩٩٠م، ص: ٦٢٦.

# الفصل الرابع

## أهداف الإسلام *

من أهم خصائص العقل المسلم - الذي صاغه الإسلام - أنه **عقل تعليلي، مقاصدي، غائي**، يدرك أنه ما من شيء في الوجود إلاّ له علة وسبب من جهة، **وحكمة، ومقصد، وغاية** من جهة أخرى. فلا مكان للمصادفة فيه، ولا مجال لانتفاء الأسباب، أو النتائج. وكما يدرك العقل المسلم ذلك على مستوى الوجود، فإنه يؤمن به على مستوى الحياة الإنسانية بكل قوانينها وأحكامها، لأن الله الحكيم، لا يشرع إلاّ لحكمة، ومقصد، وغاية.

وبما أن **شرعة القرآن الكريم** من عند الله، فإنها **لا تأمر بأحكام إلاّ من أجل تحصيل مصلحة مترتبة عليها، ولا تنهى عن أفعال إلا لدفع مفسدة مترتبة عليها.**

إن لكل حكم شرعي حكمة، ومقصدا، وغاية، أي هدفا على وجه العموم **. وما لم تنص الإرادة الإلهية على حكمته، ومقصده، وغايته بوضوح في الآيات القرآنية، أي على الهدف من وراء فرض الحكم، فإن

---

* تستوحي الإنسانية باستمرار أهدافها الكبرى من خلال علاقتها مع الخالق، حتى لو لم تكن تعي ذلك، أو كانت تنكره علناً. وهذا ما حصل منذ عهد ليس بالبعيد مع الثورة الفرنسية، التي أسست قطيعة مع الدين والكنيسة، في الوقت الذي استوحت أهدافها الكبرى - وهي الحرية والإخاء والمساواة - من القيم المسيحية بالذات. تلك الأهداف التي أصبحت فيما بعد أهدافاً للحضارة المعاصرة. لقد دلل على صحة هذه الفكرة الفيلسوف **برتراند** رسل من خلال مؤلفاته.

** " الهدف: كل شيء عظيم مرتفع.. والهدف: الغرض " **معجم مقاييس اللغة.**

حكمة، أو مقصداء أو غاية لا بد وأن تظهر بشيء من التأمل، والاجتهاد، والنظرة الكلية الشاملة لشرعة القرآن الكريم *.

لقد بيّن الكثير من آيات الذكر الحكيم العلل والأسباب الظاهرة، التي تشير إلى قصد الشارع مما شرّع، أي إلى الهدف من فرض الأحكام الشرعية. والآيات الكريمة في ذلك أكثر من أن تحصى في هذا المقام، نذكر منها قوله تعالى:

**﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾** الحديد ٢٥.

**﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وماأريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ماستطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾** هود ٨٨.

**﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾** النساء ١٦٥.

**﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ○ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾** الملك ١-٢.

**﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾** هود ٧.

---

* انظر تصدير طه جابر العلواني، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لكتاب المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ليوسف حامد العالم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٥)، الطبعة الثانية، الرياض، المملكة العربية السعودية، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

أما حينما يتسرب إلى العقل المسلم أن الأحكام الشرعية قد تخلو من الحكمة، والمقصد، والغاية، إما لأنها تعبدية مثلا، أو لأنه لا يوجد بالضرورة تلازم بين أسباب التكليف من جهة، والمقاصد والغايات من جهة أخرى، فإن ضررا بالغا يصيب العقل المسلم، تضطرب معه رؤيته إلى الدين عامة، وتقويمه للأحكام الشرعية خاصة.

ولم نأت بجديد فيما قلناه، فقد تعرض علماء الإسلام وفقهاؤه إلى **ضرورة ربط الأحكام الشرعية بالمقاصد الكلية للشريعة عند النظر الفقهي،** كما بيّنوا الكثير من **المقاصد، والغايات، التي تهدف الأحكام الشرعية** إلى تحقيقها *.

وما دام الأمر كذلك، فهل هناك أهداف للدين الإسلامي عامة، يسعى الدين – بكليّاته – إلى ترسيخها في النفس المؤمنة؟.. وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما هي تلك الأهداف؟..

لمّا كان الإسلام دين الإنسانية، لزم أن تكون أهدافه **أهدافا للإنسانية نفسها**، باعتبارها قضايا لازمة لتحقيق **سعادتها، وتقدمها، وصلاحها، وصلاح الكون في كل زمان ومكان**، أي بمعزلٍ عن الظروف التاريخية المتغيرة للمجتمعات الإنسانية. إن أهداف الإسلام تعنى بالإنسان **روحا وجسدا** معا، باعتباره كائنا ثنائي القطب، يتعذر عليه أن يحيا من أجل تلبية احتياجاته الجسدية فقط، كما يتعذرِ عليه أن يحيا من أجل تلبية احتياجاته الروحية وحدها. أي أنها أهداف تُعنى بتكريس المبادىء الأخلاقية والقيم العليا للإنسانية، التي تمثل امتدادها الثقافي الروحي، كما تُعنى بتحقيق صالح الفرد والجماعة، الذي يمثل امتدادها المادي الحضاري. وعلى الرغم من كون هذين الاتجاهين يبدوان وكأنهما متعارضين – حيث تتعارض في كثير من الأحيان

---

* أنظر كتاب **الموافقات في أصول الشريعة**، لأبي اسحق الشاطبي، وكتابي **شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل**، و**إحياء علوم الدين**، للإمام الغزالي.

القيم والمبادىء العليا للإنسانية مع تحقيق المصالح الشخصية للأفراد والجماعات - إلا أنه ليس سوى تعارض ظاهري مرحلي، حيث يتكامل الاتجاهان تكاملا تاما على المدى البعيد، ويعملان جنبا إلى جنب، في سبيل بناء مستقبل خير مشرق سعيد للإنسانية.

إن **حرص الإنسانية** على أن تكون المبادىء الأخلاقية والقيم العليا موجهة لسلوكها، وعملها، وأهدافها الكبرى، **أي حرصها على تحقيق بعدها الروحي الإنساني** - كما هي حريصة في الحضارة المعاصرة على تحقيق بعدها المادي، العلمي، والتكنولوجي - إنما **يحميها من الانحلال الثقافي والاجتماعي، ومن الفراغ الروحي**. فإذا كان الفكر مناط الإبداع بأنواعه وصانع الحضارات، فإن **المبادىء الأخلاقية والقيم العليا للإنسانية هي التي توجهه وترشده لفعل ما فيه خيرها، وصلاحها، وسعادتها، وحفظها من الفناء**. حيث يمكن للفكر أن يبدع الخبيث كما يبدع الخير، وأن يبدع ما يسيء للإنسان كما يبدع ما يفيده. لذلك فعندما يتجاهل الفكر تلك المبادىء الأخلاقية والقيم العليا، فإنه يصنع بذلك حضارة تتسبب في الغالب في شقاء الإنسانية أكثر مما تتسبب في سعادتها. ويؤكد هذا حال الحضارة المعاصرة، حيث أفلتت نسبيا من هيمنة الضمير الأخلاقي (الفؤاد) *، فأصبحت توجه جانبا كبيرا من إبداعاتها إلى اختراع أسلحة الدمار الشامل، التي لا تشجع الأقوياء على خوض الحروب وقتل الناس فقط، وإنما تتسبب كذلك في تشويه الشعوب والكائنات الحية حتى أجيال لاحقة. ناهيك عن إصرار تلك الحضارة على استغلال المجتمعات الضعيفة سياسيا واقتصاديا، وإذلالها، وتدمير المصادر الطبيعية للكرة الأرضية، وإفسادها، وعدم اكتراثها بما يكفي بحماية الإنسان في أنحاء الأرض من الفقر، والجوع، والتلوث البيئي. هذا بالإضافة إلى شيوع الظلم، والاستبداد، والعبودية المقنعة **، التي تمارسها الدول ضد بعضها البعض. ولا أدلّ على ذلك من حقّ (الفيتو)، الذي يضفي المشروعية

---

* ورد شرح معنى الفؤاد في الفصل الثاني، بحث أمة الفطرة.

** في تأكيد على ظاهرة العبودية المقنعة في العصر الحالي، ركز التقرير السنوي لليونيسيف لعام ٩٦ على ظاهرة استخدام الأيدي العاملة من الأطفال في أنحاء العالم - خصوصا في بلدان العالم الثالث- باعتبارها انتهاكا صارخا لحقوق الإنسان، توجب على العالم النظر إليها كالعبودية.

على قانون الغاب، السائد على مستوى العلاقات الدولية جميعاً، تحت مظلة منظمة الأمم المتحدة.

إن سعادة الإنسانية وصلاحها لا يمكن أن يتحققا إلا بعد أن يعيد الإنسان لفؤاده دوره الفاعل في التقويم المستمر لفكره على المستوى المعرفي، ولعمله على المستوى الواقعي *.

وبما أن الشرائع – بكلياتها وجزئياتها – إنما وضعت لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، التي تتركز في تحصيل الخير والسعادة للإنسانية، ودفع الشر والمفاسد عنها، وبما أن **الفرائض الأربع من الشرائع**، لذلك لزم أن تحقق الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج – في ظل الشرائع السماوية جميعا – **مصالح بعينها**، أي **أهدافا بذاتها**. أما تلك المصالح، فنراها – استنباطا من الذكر الحكيم – في تنشئة المسلمين، وتربيتهم، وتدريبهم على تحقيق **أهداف الإسلام الكلية**.

يقول الشاطبي في موافقاته " إن وضع الشرائع إنما هو **لمصالح العباد في العاجل والآجل معا**.. والتعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء ﴿**مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم..**﴾ .. وقال في الصيام ﴿**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ وفي الصلاة ﴿..**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر..**﴾.. فقد أخذ المعنى على أنه **علة** للأمر **بإقامة الصلاة** ". " إن مقاصد الشارع في بث المصالح في التشريع أن تكون **مطلقة عامة**، لا تختص بباب دون باب، ولا بمحل دون محل، ولا بمحل وفاق دون محل خلاف، وبالجملة **الأمر في المصالح مطرد مطلقا في كليات الشريعة وجزئياتها** " (1) .

---

* اذكر هنا على سبيل المثال ضرورة وضع الأسس الأخلاقية لشبكة المعلومات العالمية المدعوة (INTERNET)، التي بدأت تحتل مركز مرموقاً على مستوى وسائل الاتصال والمعلوماتية العالمية، المتاحة للأطفال والمراهقين أيضاً، داخل البيوت وخارجها.

إن ثمرات التكليف يجب أن تعود جميعها بالخير والمصلحة على المكلَّف، إذ ليس لله سبحانه منها شيء، طالما أنه الغني عن عباده، وعن أعمالهم كلها، القائل:

﴿**ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**﴾ فاطر ١٥.

أما أهداف الإسلام الكلية، فنراها – كما استنبطناها من الذكر الحكيم نفسه – في **التوحيد، والعدل، والإحسان**. وهي أهداف العمل الصالح بالضرورة.

وإذ أتعرض في هذا الفصل من الكتاب إلى شرح أهداف الإسلام الكلية وعلاقتها بالفرائض الأربع، لا أدّعي تقديم بحث متكامل عن الأهداف، أو عن الفرائض، وإنما التركيز على المعاني والمضامين الفكرية التي تربط بينها.

## **لاً- التوحيد:**

على الرغم من كون **التوحيد** قاعدة الإسلام الأولى، وعقيدته الأساسية، التي تشعر المسلم بالرقابة الذاتية على أقواله، وأفعاله، وسلوكه عامة، إلا أنه في الوقت نفسه **هدف الإسلام الأول**، الذي يسعى الدين إلى ترسيخه في النفس الإنسانية، تأكيدا على **حريتها التي وهبها الله إياها، وعلى كرامتها التي حفظها لها**، منذ بدء الخليقة.

- كنا قد رأينا في بحث عبادة الله والعمل الصالح أن **التوحيد هو سر حرية الإنسان داخل النظام المادي للكون**، وأنه بقدر ما يعبد الإنسان الله الواحد قولا وعملا، بقدر ماتتحرر روحه ونفسه من كل عبودية محتملة لغير الله. **فالتوحيد في الإسلام يعني حرية الروح الإنسانية من قوى الشر التي يمكن أن تسيطر عليها، ومن الشهوات والغرائز التي يمكن أن تتحكم فيها، ومن النظم المادية الكونية التي يمكن أن تحد من سموها، ومن انطلاقتها نحو تحقيق أهدافها الإنسانية الكبرى.**

والحرية هي القدرة على عمل كل شيء لا يضر بالغير *، وهي حق طبيعي لكل إنسان، سواء في ذلك الحرية المدنية والحرية السياسية. وهي في الذكر الحكيم **قدرة الإنسان على الاختيار بين الخير والشر، وبين الحق والباطل**. وهي المعنى الذي استحق به الإنسان تكريم الله له، وتفضيله على أكثر الكائنات الحية الأخرى. فهي الأمانة التي حملها الإنسان، وأصبح بحملها خليفة لله على وجه الأرض.

يقول تعالى:

---

* كما جاء في إعلان حقوق الإنسان، الصادر في فرنسا سنة ١٧٨٩م.

**﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون﴾** البقرة ٣٠.

**﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** الأنعام ١٦٥.

**﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ○ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما﴾** الأحزاب ٧٢-٧٣.

**﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** الإسراء ٧٠.

وكما أن الحرية حق طبيعي للأفراد، فإنها **حق طبيعي للأمم**، بها تنفض غبار الذل عن نفسها، وتنهض فكريا وثقافيا، وتتقدم، وتبني الحضارات.

إن أمة الإسلام هي – في غاية الأمر – **أمة تحمل رسالة التوحيد إلى بني البشر، وتدعوهم إلى رعايتها وحفظها في نفوسهم، حفظهم لروحهم الحرة** التي هي بعض من روح الله، **وللأمانة** التي حملهم الله إياها، التي كانوا بها **خلفاء** له على وجه الأرض.

ب- ولكن هذا لا يعني أن الحرية الإنسانية مطلقة في الإسلام، حيث لا تكون كذلك إلا لله وحده، وإنما هي **مقيدة بوجوب مراعاة حقوق الغير التي كفلها الله للناس جميعا**، وأساسها مراعاة قواعد الصراط المستقيم، الدين القيم على الدين كله. أي أن الحرية الإنسانية مقيدة بوجوب التزام المسلم بعقيدة التوحيد أساسا ومنطلقا، وبالإحسان للوالدين، وباجتناب القتل، والفاحشة، وأكل مال اليتيم، وبالوفاء بالعهود، وبالكيل والميزان بالقسط، وبالقول العدل..إلخ.

وربما لهذا السبب، لم يرد **مفهوم الحرية في الذكر الحكيم مستقلا عن مفهوم التوحيد**، مع أنه كان معروفا زمن التنزيل الحكيم. ألم يرد على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قولته المشهورة " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم **أحرارا** "؟.. ونرى أن في ذلك **حكمة إلهية بعيدة الغور.** حيث ربما يكون القصد من ذلك ألاّ يصل الإنسان إلى معنى الحرية إلاّ من خلال مفهوم التوحيد، على معنى أنه **لا حرية صالحة خيرة للإنسان، يمكن أن توصله للسعادة المنشودة، إلاّ من خلال علاقته بالخالق.**

ت- وبما أن الحرية الإنسانية موضوع له أهميته الاستثنائية في الذكر الحكيم، لذلك حضت آياته الكريمة على تحرير النفس الإنسانية من العبودية بأنواعها، الظاهرة منها، كما كانت في العصور القديمة، والمقنعة الخفية، كما هي في عصرنا الحالي. ومن هنا كان تحرير النفس الإنسانية كفارة للعديد من الذنوب والسيئات، وأولها قتل المؤمن خطأ.

يقول تعالى:

**﴿وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن <u>قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة</u> ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن <u>فتحرير رقبة مؤمنة</u> وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله <u>وتحرير رقبة مؤمنة</u> فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما﴾** النساء ٩٢.

نلاحظ اشتراط الآية الكريمة تحرير رقبة **مؤمنة**. وهذا يعني أنه كما قتل المؤمن خطأ **نفسا مؤمنة حرة بإيمانها**، عليه أن **يعيد الحرية لنفس مؤمنة حرة أخرى**، سلبها المجتمع حريتها تلك. ولذلك لم تشترط الآيتان الكريمتان التاليتان تحرير رقبة **مؤمنة** كفارة للحنث باليمين، أو لمظاهرة النساء، وإنما تحرير رقبة، مؤمنة أو غير مؤمنة.

يقول تعالى:

**﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾** المائدة ٨٩.

**﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير﴾** المجادلة ٣.

ث- نلاحظ أن أهداف الإسلام في الذكر الحكيم - **وأولها التوحيد** - تقترن على وجه العموم **بالفعل (أمر)**، الصادر عن الإرادة الإلهية، مقترنا بضده الفعل **(نهى)**، في كثير من الأحيان.

وللفعل أمر " أصول خمسة: الأمر من الأمور، **والأمر ضد النهي..** والأمر الذي هو نقيض النهي قولك افعل كذا. قال الأصمعي: يقال: لي عليك أمرة مطاعة، أي لي عليك أن آمرك **مرة واحدة فتطيعني..** "[٢]. أي أن الفعل (أمر) يؤكد على أهمية العمل بالمأمور به، مقدما في ذلك على الأعمال الأخرى.

يقول تعالى آمرا الناس **باعتناق عقيدة التوحيد** فكرا وعملا، ناهيا إياهم عن الكفر، أو الشرك به:

**﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ○ وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾** الزمر ١١-١٢.

**﴿ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** يوسف ٤٠.

**﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾** الأنعام ١٤.

﴿لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ الأنعام ١٦٣.

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ يونس ٧٢.

﴿قل يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يونس ١٠٤.

﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب﴾ الرعد ٣٦

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ النمل ٩١.

﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ غافر ٦٦.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ هود ١١٢.

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ النساء ٦٠.

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وماأمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ التوبة ٣١.

﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ الحجر ٩٤.

﴿فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ الأعراف ٢٢.

﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ٥ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ الأنعام ٢٧-٢٨.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ٥ فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ الأعراف ١٦٥-١٦٦.

﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين﴾ الأنعام ٥٦.

﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ غافر ٦٦.

وكما يأمر الله الناس باعتناق عقيدة التوحيد، **يأمرهم كذلك بإقام الصلاة، تكريسا لمفهوم التوحيد في النفس المسلمة.**

يقول تعالى:

﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ٥ وأن أقيموا الصلوة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون﴾ الأنعام ٧١-٧٢.

﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ○ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوٰة ويؤتوا الزكوٰة * وذلك دين القيمة ○ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾ البينة ٤-٦.

وعلى الرغم من أن الفرائض الأربع تعمل جميعا على وجه العموم على تكريس مفهوم التوحيد في النفس المسلمة **، إلا أننا نرى أن للصلاة الدور

---

* يأتي شرح دور الزكاة في تحقيق أهداف الإسلام في الفقرات القادمة.

** لغويا: اشتقت الفرائض من الفعل (فرض) وهو " أصل صحيح يدل على تأثير في شيء من حزّ أو غيره.. ومن الباب ما يفرضه الحاكم من نفقة لزوجة أو غيرها، وسمي بذلك لأنه شيء معلوم يبين كالأثر في الشيء. ويقولون: الفرض ما جدت به على غير ثواب " مصدر سابق، معجم مقاييس اللغة. فالفرض إذن هو تأثير في شيء ما يظهر لاحقا، ويكون ماديا، أو معنويا. ولهذا وصفت الآية الكريمة البقرة التي دعى موسى عليه السلام أصحابه إلى ذبحها بكونها لا فارضا، أي لم يظهر عليها أثر مجامعة الذكر من حمل، أو إدرار للحليب ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون﴾ البقرة ٦٨. ولهذا أيضا سميت الهبة المالية التي يكتبها الزوج للزوجة عند عقد النكاح فريضة، كونها تستحق ويظهر أثرها لاحقا، بشرط وقوع الطلاق ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ البقرة ٢٣٧، أي أن ظهورها أمر نسبي. أما عندما يفرض تعالى فريضة بقوله ﴿..فريضة من الله..﴾ فإنما يعني أن آثارها لا بد وأن تظهر في المجتمعات الإنسانية لا محالة، أي أنها غير مشروطة بحدث بعينه. ولهذا ُوصفت الوصية بكونها فريضة من الله، لأن آثارها لا بد وأن تظهر بعد وفاة الموصي ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.. فريضة من الله..﴾ النساء ١١ (ذكرت الآية كاملة في بحث الحدود) . ولهذا أيضا وصفت سورة النور بكونها مفروضة من قبله تعالى على المؤمنين في قوله ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ النور ١، لأن الأحكام التي نزلت فيها، كأحكام الزنى، وقذف المحصنات ،وآداب دخول المنازل والطعام فيها..إلخ، قد تبدو للوهلة الأولى قاسية على المؤمنين والمؤمنات، إلا أنه يؤكد تعالى أن آثارها الإيجابية لا بد وأن تظهر لاحقا في المجتمعات الإنسانية. وقد وصف الذكر الحكيم كذلك الصدقات – وتشمل الزكاة – بكونها فريضة من الله، باعتبار أن الآثار الإيجابية لتوزيعها لا بد وأن تظهر على المذكورين من الناس ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ التوبة ٦٠. أي أن ظهور آثار الصدقات في الوجود الموضوعي أمر حتمي. أما بالنسبة للصلاة، والصوم، والحج، فإن ظهور آثارها الإيجابية في عمل المؤمن وسلوكه وفي المجتمعات الإنسانية عامة أمر نسبي، أي أنه يخضع لإمكانية الظهور وعدم الظهور. ولهذا السبب لم يصف الذكر الحكيم الصلاة،

الأساسي في تكريس المفهوم على المستوى الخاص، أي على مستوى المسلم الفرد *، ويقوم الحج بالدور نفسه على المستوى العام، أي على مستوى الأمة الإسلامية كلها.

## التوحيد وعلاقته بالصلاة : **

اشتقت كلمة الصلاة من الفعل (صلَى)، ويعني " النار وماشابه من الحمى " [٣] و " صلَيت القناة: أي قوّمتها بالنار " [٤] والصلاة " قال كثير من أهل اللغة: هي الدعاء، والتبريك، والتمجيد.. وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه " [٥]. وهي في اصطلاح الفقهاء " أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم ، بشرائط مخصوصة.. " [٦].

جاء في مطلع الفصل الثاني أن الإنسان يمتلك المعرفة المسبقة بالله وبدينه القيم على الدين كله، وهي مصدر حاسته المعرفية الخلقية (فؤاده)، **التي تضعف بالإهمال وتقوى بالمران، أي بالتدريب، والتنشئة.** كما جاء في

---

والصوم، والحج بكونها فرائض من الله – بالرغم من أمره تعالى الناس بإقامتها – ووصف الحج بالذات بكونه مما يفرضه الإنسان على نفسه، حيث يمكن أن يظهر أثر الحج في حياة صاحبه وفي المجتمعات الإنسانية، ويمكن ألا يظهر، وهكذا الأمر بالنسبة للصلاة والصوم . يقول تعالى **﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وماتفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الألباب﴾** البقرة ١٩٧. أي يمكن للحاج أن يجتنب الرفث والفسوق والجدال في الحج وما بعده، ويمكن ألا يفعل.

وربما يكون هذا هو السبب الذي دعا بعض علماء الإسلام إلى الاصطلاح على تسمية الصلاة، والصوم، والحج كذلك بالفرائض، أسوة بوصف الذكر الحكيم للصدقات بالفريضة، وتيمنا **بظهور آثارها الإيجابية** المثمرة في عمل الإنسان وسلوكه الصالح. ونضيف على التسمية عدد الفرائض المعنية وهي أربع، لأن الفرائض بمفهومها الواسع في الذكر الحكيم أكثر من ذلك.

أما اصطلاح الشعائر، فهو غير صحيح، لأن الآيات الكريمة عرّفت السعي بين الصفا والمروة والبدن بكونها من شعائر الله (البقرة ١٥٨ والحج ٣٦)، ونعلم أنهما ليستا من أركان الحج الأساسية، ولكن فقط من شعائره. أنظر كتاب **الفقه على المذاهب الأربعة**، عبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، الجزء الأول، ص: ٥٧٧.

* تساهم الصلاة في تكريس مفهوم التوحيد على مستوى الجماعة، من خلال صلاة الجماعة.

** كتب هذا البحث عام ١٩٩٥م.

مطلع هذا الفصل أن الحاسة المعرفية الخلقية تلعب الدور الأساسي في تحقيق سعادة الإنسانية، وصلاحها، وصلاح الكون، في كل زمان، وفي كل مكان.

وطالما أن حاسة الإنسان المعرفية الخلقية تلك - القادرة فطريا على التمييز بين الخير والشر وبين الحق والباطل - تضعف بالإهمال، وتقوى بالمران، أي بالتدريب، وبالتنشئة، لذلك نرى أن الله فرض الصلاة على المؤمنين في ظل الشرائع السماوية جميعا من أجل تعزيز تلك الحاسة الفطرية لديهم، أي من أجل **تعزيز معرفتهم المسبقة بالله، وبدينه القيم على الدين كله.** إن هذا يعني **تكريس مفهوم التوحيد في النفس الإنسانية، كما يعني تكريس أسس المعرفة اليقينية الأخلاقية الفطرية لديها**، التي تشكل قواعد السلوك الإنساني السليم.

**إن الهدف الأساسي للصلاة في الذكر الحكيم هو ذكر الله، أي التوحيد.** لذلك يقول تعالى:

**﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوٰة لذكري ○ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾** طه ١٤-١٥.

**﴿ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلوٰة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** الجمعة ٩.

**﴿وأقم الصلوٰة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾** هود ١١٤.

**﴿فذكر إن نفعت الذكرى ○ سيذكر من يخشى ○ ويتجنبها الأشقى ○ الذي يصلى النار الكبرى ○ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ○ قد أفلح من تزكى ○ وذكر اسم ربه فصلى﴾** الأعلى ٩-١٥.

وبما أن الصلاة ذكر لله، فإن كل ذكر لله صلاة **﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾**. أي أن الصلاة نوعان: **صلاة تتحقق عندما يذكر المؤمن ربه،**

فيتقصد الحق والخير، ويبتعد عن الشر والباطل، في سلوكه وأفعاله كلها، وهي ذات المفهوم الشامل. **وصلاة ذات هيئة بعينها، يقيمها المؤمن تدريباً له على ذلك.**

أ- **صلاة الذكر**: وهي الصلاة **ذات المفهوم الشامل**، التي تتحقق عندما يذكر المؤمن ربه، فيتقصد الحق والخير، ويبتعد عن الشر والباطل، في سلوكه وأفعاله كلها. فعندما يُطلب من المؤمن أداء الشهادة فيذكر ربه ويقول العدل، وعندما يأتمنه أحدهم فيذكر ربه ويؤدي الأمانة، وعندما يقطع عهدا على نفسه فيذكر ربه ويفي به، وعندما تعرض عليه رشوة فيذكر ربه ويرفضها، وعندما يكون صاحب سلطة فيذكر ربه ويعطي المواطنين حق المشاركة فيها وحق التعبير عن النفس، وعندما يُكلّف بعمل ما فيذكر ربه ويقوم به على الوجه الأكمل، وعندما يرى موج البحر، أو يسمع تغريدة عصفور أو ضحكة طفل، فيذكر ربه الذي أحسن خلقه ويتعهد أمام نفسه بالتزام تعاليمه، إنما يكون المؤمن **بذكره هذا يصلي لله، ويحقق صلة لا تنفك عراها بينه وبين الخالق** *.

- وترسم كلمة الصلاة بهذا المعنى في الذكر الحكيم بحرف **الألف الممدودة، وجمعها صلوات** (بالتاء المفتوحة) كما هو جمع قنوات لمفردها قناة. **ولاتقترن صلاة الذكر بفعل الإقامة**، لأنها لا تحتاجه، حيث تحقق نتائجها مباشرة من خلال ممارسة المؤمن **للعمل الصالح**. يقول تعالى:

**﴿كلا إن الإنسان ليطغى ○ أن رآه استغنى ○ إن إلى ربك الرجعى ○ أرأيت الذي ينهى ○ عبدا إذا صلى﴾** العلق ٦-١٠. يتحقق هذا النوع من الصلاة عندما يصل العبد ربه، ويذكره، وهي ضد الاستغناء عن صلته تعالى، وعن ذكره. نلاحظ قوله تعالى **﴿..إذا صلى﴾** وليس (إذا أقام الصلوة)، وينطبق هذا على الآيات التالية الذكر أيضا.

---

* اي أن ذكر الله يعني ذكره من خلال التزام المؤمن العملي ما أمكن بتعاليم الله، وبمنهاجه، أثناء قيامه بنشاطاته الحياتية كلها، ومن خلال سلوكه عامة.

﴿**كلا إذا بلغت التراقي ○ وقيل من راق ○ وظن أنه الفراق ○ والتفت الساق بالساق ○ إلى ربك يومئذ المساق ○ فلا صدق ولا صلى ○ ولكن كذب وتولى**﴾ القيامة ٢٦-٣٢. ألعبد الذي لا يصلي هو الذي لا يذكر اللـه، بل يتولى عن ذكره، ولا يصدق بوجوده. نلاحظ أن الفعل (صدّق) ضد الفعل (كذّب)، وأن الفعلى (صلّى) ضد الفعل (تولّى).

﴿**ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون**﴾ النور ٤١. كل من في الأرض ومن في السماء يسبح لله، ويصلي له، ولا يمكن للطير أن يقيم هيئة الصلاة أو أن يدعو لله (حيث أن كلاهما لا يصدران إلا عن مخلوقات واعية)، وإنما هو ذكر لله، وصلة به، على طريقته.

﴿**إن الإنسان خلق هلوعا ○ إذا مسه الشر جزوعا ○ وإذا مسه الخير منوعا ○ إلا المصلين ○ الذين هم على صلاتهم دائمون ○ والذين في أموالهم حق معلوم ○ للسائل والمحروم**﴾ المعارج ١٩-٢٥. ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ○ والذين هم بشهاداتهم قائمون ○ والذين هم على صلاتهم يحافظون**﴾ المعارج ٣٢-٣٤. خلق الإنسان هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا،.إلا الذين يحافظون على ذكر اللـه، وعلى صلة دائمة به، من خلال سلوكهم ونشاطاتهم الحياتية كلها، وهي في الآيات الكريمة حفظهم لحق معلوم للسائل والمحروم في أموالهم، وأدائهم للشهادات، وللأمانات، ووفائهم بالعهود.

﴿**فويل للمصلين ○ الذين هم عن صلاتهم ساهون ○ الذين هم يراؤون ○ ويمنعون الماعون**﴾ الماعون ٤-٧. يحذر تعالى المنافقين الذين يدّعون أنهم يذكرون الله، وعلى صلة به، وهم في حقيقة الأمر قد سهووا عن صلته تعالى، وعن ذكره، وما يفعلوه سوى رياء ومنع للماعون.

﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم**﴾ التوبة ١٠٣. يأمر تعالى رسوله الكريم ﷺ أن

يأخذ الصدقات من أموال المسلمين، وأن يذكرهم، ويصلهم، ففي ذكره لهم وصلتهم سكون أنفسهم. ولا يمكن أن يقيم الرسول الصلاة بهيئتها من أجل الناس، حيث لا تقام وإلا وعين الرسول والمؤمنين جميعا على الله.

**﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** الأنفال ٣٥. لم يكن الكفار ليقيموا الصلاة بهيئتها كما يفعل النبي، ولا أن يتوجهوا بالدعاء إلى الله، لأنهم لا يعترفون بوجوده أصلا، وإنما هم يدّعون ذكر الله وصلته عند البيت الحرام.

**﴿ماسلككم في سقر ○ قالوا لم نك من المصلين ○ ولم نك نطعم المسكين ○ وكنا نخوض مع الخائضين ○ وكنا نكذب بيوم الدين﴾** المدثر ٤٢-٤٦. إن الذي لا يذكر الله، ولا يصله، ويكذب بيوم الدين - الأمر الذي تظهر آثاره في عمل الإنسان السيء، كعدم إطعام المسكين، والخوض مع الخائضين - يكون ذلك طريقه إلى سقر ( نؤكّد على عدم ورود فعل الإقامة).

**﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾** الأنعام ٩٢. إن الذين يؤمنون بالآخرة وبالذكر الحكيم، يحافظون بإيمانهم هذا على صلتهم بالله، وعلى ذكره.

**﴿قد أفلح المؤمنون ○ الذين هم في صلاتهم خاشعون ○ والذين هم عن اللغو معرضون ○ والذين هم للزكو'ة فاعلون ○ والذين هم لفروجهم حافظون ○ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ○ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون○ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ○ والذين هم على صلواتهم يحافظون ○ أولئك هم الوارثون ○ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾** المؤمنون ١-١١. عندما يذكر المؤمن ربه فيعرض عن اللغو، ويؤدي الزكاة، ويرعى والأمانة العهد، ويحفظ فرجه إلا على زوجه أو ما ملكت يمينه، يكون بعمله هذا يصلي لله، خاشعا له، أي محافظا على ذكره له، وعلى صلته به، من خلال قيامه بالأعمال المذكورة.

**﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ولاتجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾** الإسراء ١١٠. عندما يدعو المؤمن ربه، يكون بدعائه هذا يصلّي له. ولكن دعاء المؤمن ربه ليس كل الذكر، وإنما الذكر (الصلاة) هو ذكر تعاليم الله، والعمل بمنهاجه في كل وقت. لذلك على المؤمن عندما يصلّي لله، من خلال دعائه إياه، ألاّ يجهر بذلك، ولا يخافت.

**﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾** التوبة ٩٩. إن في ذكر الرسول الكريم ﷺ، وصلته للمؤمنين من الأعراب، سكون أنفسهم، وقربة لهم.

**﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين○ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** الأنعام ١٦١-١٦٣. يطلب تعالى من نبيه الكريم ﷺ التصريح بأنه قد اهتدى إلى الصراط المستقيم، الذي أوحي إلى إبراهيم عليه السلام من قبل. ويؤكد عليه القول بأنه اهتدى إلى ذلك من أجل ذكر الله وإعلاء كلمته **﴿..صلاتي..﴾**، وأن هذا ماسيكرس له الرسول الكريم أيضا حياته، ومماته، ونسكه **﴿..ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾**.

**﴿حافظوا على الصلوات والصلو'ة الوسطى وقوموا لله قانتين ○ فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون﴾** البقرة ٢٣٨-٢٣٩. تتحقق صلة المؤمن بالله من خلال ذكره له، أثناء عمله وسلوكه في كل وقت. لذلك يأمره تعالى أن يحافظ على ذكره له، وعلى صلته به، وعلى إقام الصلاة الوسطى كذلك *.

---

* يأتي شرح معنى الصلاة، التي تكتب بحرف الواو (الصلو'ة)، وتقترن بالفعل (أقام)، في الفقرات اللاحقة، بحث صلو'ة الإقامة.

**﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ○ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾** الحج ٣٩-٤٠. لولا أن سمح تعالى للذين ظُلموا بالدفاع عن أنفسهم، لهُدّمت كل الصلات والعهود التي تربط بين الناس والخالق، كما هُدّمت كل الأماكن التي يذكر فيها اسم الله كثيرا، كالصوامع، والمساجد.

**﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ○ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾** الأحزاب ٥٦-٥٧. يصِلُ الله وملائكته الرسول الكريم ﷺ، وهم دائمون على ذكره. وهذا مايتوجب على المؤمنين من أمة محمد ﷺ فعله تجاه نبيهم، أي أن يذكروه، وأن يسلم من أذاهم **﴿..صلوا عليه وسلموا تسليما ○ إن الذين يؤذون الله ورسوله..﴾.**

**﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ○ وسبحوه بكرة وأصيلا ○ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾** الأحزاب ٤١-٤٣. ذكر الناس لله صلاة، وذكره تعالى لهم رحمة بهم، أي من أجل إخراجهم من الظلمات إلى النور.

**﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ○ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾** البقرة ١٥٦-١٥٧. الذين يذكرون الله إذا أصابتهم مصيبة، يذكرهم ربهم بدوره، ويرحمهم، ويهديهم.

ونؤكد أن **الصلاة تعني الذكر على وجه العموم**، وليس الدعاء على وجه الخصوص، مما يفسر صلاة الله وملائكته على النبي الكريم ﷺ والمؤمنين من جهة، وصلاة النبي الكريم ﷺ على المؤمنين من جهة أخرى.

- وصلاة الذكر (ذكر الله) أكبر من الصلاة ذات الهيئة، أي أنها ذات مفهوم أعم، وأشمل.

لذلك يقول تعالى:

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلوٰة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ○ فإذا قضيت الصلوٰة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ الجمعة ٩-١٠. فرضت الصلاة ذات الهيئة على المؤمنين من أجل ذكر الله، ولكن المطلب الأعم، الأشمل، هو **ذكر الله الكثير**، أي تحرّي تعاليمه من خلال عمل المؤمنين وسلوكهم كله، حتى يتم لهم الفلاح.

﴿اتل مأوحي إليك من الكتاب وأقم الصلوٰة إن الصلوٰة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون﴾ العنكبوت ٤٥. إقام الصلاة هو ذكر الله، الذي يجب أن يثمر عن اجتناب المؤمن للفحشاء والمنكر من الفعل. أما **ذكر الله الأكبر**، فهو تحري تعاليمه، والعمل بمنهاجه في كل الأوقات، أي من خلال ممارسة الإنسان للعمل الصالح على وجه العموم.

**وذكر الله (الصلاة) أكبر من الصلاة ذات الهيئة**، لأنه رديف الإيمان بالغيب (التوحيد)، وعبادة الله، بمفهومهما الواسع. فهو يحض المؤمن ليس فقط على اجتناب الفحشاء والمنكر من الفعل، بل على ممارسة العمل الصالح، بمفهومه الشامل، وقاعدته العريضة. فإذا كان اجتناب الفحشاء والمنكر من الفعل، كاجتناب القتل، والزنى، وعقوق الوالدين من أساسيات العمل الصالح، إلاّ أنه ليس العمل الصالح كله، الذي يحض عليه ذكر المؤمن لله في كل وقت، كالإحسان للوالدين - وليس فقط اجتناب عقوقهما - والوفاء بالعهود، وبالكيل والميزان بالقسط، وبالقول العدل.. إلخ، أي بالعدل والإحسان قولا وعملا على وجه العموم.

ب- **صلوٰة الإقامة:** وهي الصلوٰة التي **يؤديها المؤمن من خلال هيئة بعينها، ويقيمها من خلال عمله، وسلوكه كله.**

- وترسم في الذكر الحكيم **بحرف الواو**. ونفهم من ذلك أنه بقصد تمييزها عن صلاة الذكر، التي تعني ذكر الله على المستوى العملي في كل الأوقات *.

يقول تعالى:

**﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلو'ة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** المائدة ٦.

**﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلو'ة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا﴾** النساء ١٠١.

**﴿فإذا قضيتم الصلو'ة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلو'ة إن الصلو'ة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾** النساء ١٠٣.

- وبما أن **الهدف الأكبر هو ذكر الله**، أي الالتزام العملي بمنهاجه في كل الأوقات، وهي الصلاة ذات المفهوم الشامل، وبما أن **ذكر الله هو الهدف من إقام الصلو'ة ذات الهيئة**، لذلك نفهم أنه تعالى فرض الصلو'ة ذات الهيئة على المؤمنين **بقصد تدريبهم على ذكر الله، أي على الالتزام العملي بمنهاجه في كل الأوقات** (صلاة الذكر). وسيستفيد من القيام بالصلو'ة الخاشعون من المؤمنين فقط، أي الذين يحققون صلة حقيقية بها مع الخالق.

---

* سأكتبها من الآن فصاعدا بحرف الواو في كل مرة أعني بها هذا النوع من الصلو'ة. ومن هنا نعلم مدى خطورة تغيير رسم الأحرف في القرآن الكريم، أي تغيير طريقة كتابتها. ذلك أن الذي لا نقدر على تمييزه الآن، أي معرفة معنى رسمه بالحرف المرسوم به، وليس بغيره، ربما تقدر عليه الأجيال اللاحقة.

يقول تعالى:

**﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ○ وأقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة واركعوا مع الراكعين ○ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ○ واستعينوا بالصبر والصلوٰة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾** البقرة ٤٢ – ٤٥.

**﴿يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوٰة إن الله مع الصابرين﴾** البقرة ١٥٣.

- **وتقترن الصلوٰة ذات الهيئة بفعل الإقامة**، ولذلك فهي لا جمع لها. وإقام **الصلوٰة يعني " توفية حقوقها، وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط "** [(٧)]، وأهم شروطها اجتناب المؤمن للفحشاء والمنكر من الفعل، حيث تؤول إليه أهمية الصلوٰة *.

وكون الصلوٰة تحتاج إلى الإقامة يعني أن **الهدف النهائي** من أداء المؤمن للركوع والسجود لا يتحقق أثناء أدائه لهما، وإنما يتحقق من خلال استشعاره عمليا لمضمونهما، ومعناهما، أي من خلال النتائج الإيجابية التي يجب أن تثمر عنها صلوته، التي تتجلى في صلاح عمله، وسلوكه. ولذلك فإنه في أغلب آيات الذكر الحكيم – التي ستذكر لاحقا – يتبع التوجيه بإقام الصلوٰة، أو يسبقه، وصف للعمل الإنساني الصالح، بما في ذلك اجتنابه للعمل الفاسد.

- وعليه، فإن أدت الصلوٰة الهدف منها، واستوفت شروطها، ووُفيت حقوقها، **أي إن استطاع المؤمن أن يستشعر عمليا معنى الصلوٰة، باجتنابه للفحشاء**

---

* من شرائط الصلوٰة كذلك نظافة الجسد بالوضوء والطهارة، وتعني ضرورة عناية المؤمن بطهارة جسده، كما يعنى بطهارة روحه، أي بتساميها فوق المادة.

والمنكر من الفعل بشكل خاص، وقيامه بالعمل الصالح بشكل عام، كانت صلوٰته بذلك عملا يستحق من الله الأجر والثواب، وإلاّ فلا أجر له عليها، ولا ثواب له عند الله.. والله أعلم. ولذلك يقترن ثواب الجنة في أغلب آيات الذكر الحكيم – جزاءً للمسلم على إقامه الصلوٰة – **بالعمل الصالح**.

يقول تعالى:

**﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** البقرة ٢٧٧.

**﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلوٰة وآتيتم الزكوٰة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾** المائدة ١٢.

**﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوٰة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ○ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾** مريم ٥٩–٦٠.

**﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلوٰة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾** فاطر ٢٩.

**﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلوٰة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾** الأعراف ١٧٠: الإمساك بالكتاب يعني الالتزام العملي بما ورد في كتاب الله من تعاليم وأحكام.

**﴿وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوٰة ويؤتوا الزكوٰة وذلك دين القيمة﴾** البينة ٥. عبادة الله هي في التزام المؤمن بالعمل الصالح، انطلاقا من قواعد الصراط المستقيم، باعتبارها دين الله القيم على الدين كله.

﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلوٰة والمؤتون الزكوٰة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ النساء ١٦٢.

﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ماتيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ماتيسر منه وأقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة وأقرضوا الله قرضا حسنا وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ المزمل ٢٠.

﴿ألم ○ تلك آيات الكتاب الحكيم ○ هدى ورحمة للمحسنين ○ الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة وهم بالآخرة هم يوقنون ○ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ لقمان ١-٥.

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ○ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلوٰة وإيتاء الزكوٰة وكانوا لنا عابدين﴾ الأنبياء ٧٢-٧٣.

﴿وأقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ البقرة ١١٠.

﴿وأقم الصلوٰة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ○ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ○ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين ○ وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ هود ١١٤- ١١٧.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلو'ة ويؤتون الزكو'ة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ التوبة ٧١.

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلو'ة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ الرعد ٢٢.

ت – **من خلال ماتقدم نصل إلى النتائج التالية:**

- بما أن الصلو'ة تدريب عملي يومي يحمل بين طياته مدلولات فكرية عميقة، فإن **أهميتها تكمن في مضمونها، ومعناها، وتأثيرها العملي في سلوك المسلم وأفعاله (إقامتها)**، أكثر مما تكمن في ظاهرها (الهيئة). وهذا ما حدا بابن فارس إلى تعريف الفرض في معجمه بكونه **ما يجود به المؤمن على غير ثواب**. أي أن المؤمن لا يؤجر على أدائه لهيئة الصلو'ة، إلاّ بمقدار ما يستشعر معانيها، ومضامينها الفكرية، من خلال عمله وسلوكه كله (يقيمها). أي بمقدار ما ينتهي عن الفحشاء والمنكر من الفعل بشكل خاص، ويقوم بالعمل الصالح بشكل عام.

وبهذا نعلم لماذا يؤكد تعالى على **ذكر الله** على وجه العموم، **وليس على الصلو'ة** في ذاتها، في قوله:

**﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾** الأحزاب ٣٥. نلاحظ ذكر المتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، إلى جانب الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

ذلك أن الذي يغفر للمؤمن على أساسه ويؤجر عليه بالجنة هو ذكره العملي لله، أي التزامه بتعاليمه من خلال نشاطاته الحياتية كلها. حيث يمكن للإنسان أن يصلي ولا ينتهي عن الفحشاء والمنكر من الفعل، وذلك عندما تصبح **صلوٰته عملاً روتينياً، وهدفاً في حد ذاته، لا وسيلة لتحقيق أهداف أخرى**، لم تفرض الصلوٰة على المؤمنين بالله ابتداءً، إلاّ من أجل تحقيقها *. فإن لم يكن للإيمان بالله نفسه قيمة عند الله، إن لم يثمر عن ممارسة المسلم للعمل الصالح الخير ﴿..**لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيرا..**﴾، فكيف يكون للصلوٰة في ذاتها قيمة عنده تعالى، إن لم تثمر عن اجتناب المسلم للفحشاء والمنكر من الفعل، وممارسة العمل الصالح؟..

ويتفق مع هذا ما روي من الأثر " **إن المصلين كثير والمقيمين لها قليل** " [٨].

كما يتفق معه ما روي عن الرسول الكريم ﷺ قوله " **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعدا** " [٩] **.

ومن هنا نعلم أن مايدعو به بعض المسلمين من أمة محمد ﷺ بعد الصلوٰة بالقول ( تقبّل الله) هي عبارة صحيحة تماما، وذلك لحتمية ارتباط قبول الله لها بانتهاء المسلم عن الفحشاء والمنكر من الفعل بشكل خاص، وممارسته للعمل الصالح بشكل عام.

---

* ليس أخطر على مستقبل الإنسانية من تحويل وسائلها إلى غايات في ذاتها، ومثال ذلك تحويل المال، أو السلطة، أو الجاه إلى غايات يسعى إليها الإنسان بذاتها، وليس باعتبارها وسائل تساعده على تحقيق الأهداف الإنسانية الكبرى.

** جاء في شرح ابن تيمية للحديث المذكور، في كتابه الإيمان، مايلي: " وقوله { لم يزدد من الله إلا بعدا } إذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله، أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل " المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، دمشق، ١٤٠١ هـ ، ص: ٢٨.

- **لم تجعل الصلوٰة في القرآن الكريم كفارة لسيئات المؤمن** كما هو حال الصدقات (ومنها الزكاة) والصوم. ولربما كان ذلك لأن زيادة عدد الركعات ليس له مردود إيجابي على النفس الإنسانية، أو على المجتمع. أما إنفاق الصدقات الأكثر، فهو خطوة إضافية على طريق تحقيق العدل الإنساني، كما يدرّب الصوم الأكثر الإنسان على الحكمة، والحلم، والصبر، وصولا به إلى الإحسان قولا وعملا *.

- تشترك الشرائع السماوية في فرض الصلاة بنوعيها على المؤمنين بالله. لذلك فمهما اختلفت هيئة الصلوٰة من شرعة لأخرى، **يظل مضمونها واحداً فيها جميعاً**، وهو تكريس عقيدة التوحيد في النفس المؤمنة، بحيث توجهها باستمرار على المستويين المعرفي، والعملي. ولذلك يقول الأصفهاني " والصلاة من العبادات التي **لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها حسب شرع فشرع**، ولذلك قال ﴿..**إن الصلوٰة كانت <u>على المؤمنين كتابا موقوتا</u>**﴾ "[١٠].

- تمنح ممارسةُ الصلاة المؤمنَ قوة غير عادية، تساعده على تحقيق ما يعزم على القيام به من أفعال، وعلى ما يصبو إليه من آمال، كما تمنحه راحة نفسية عميقة، وتوافقا داخليا مع نفسه.

يقول تعالى:

﴿**قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى <u>فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى</u>O ومن <u>أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا</u> ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ طه ١٢٣-١٢٤.

---

* يأتي تفصيل ذلك في الفقرات اللاحقة.

ويؤكد على هذا بعض علماء الحضارة المعاصرة *.

**التوحيد وعلاقته بالحج:**

إذا كان للصلاة – كما قلنا – الدور الأساسي في تعزيز **مفهوم التوحيد** على المستوى الخاص، أي على مستوى المسلم الفرد، فإن **للحج الدور الأساسي في تعزيز المفهوم على المستوى العام للأمة**، أي على مستوى الأمة الإسلامية كلها.

يقول تعالى في دعوة الناس للحج:

**﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ○ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ○ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** آل عمران ٩٥-٩٧.

**﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب**

---

* جاء في نشرة إعلامية يصدرها المركز الثقافي الأمريكي في دولة قطر مايلي: " ونظرا للأهمية المتزايدة لهذا الجانب الروحي الآن فقد عقد مؤخرا مؤتمر طبي في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية برئاسة الدكتور روبرت بينسون، الأستاذ في كلية الطب في الجامعة ورئيس معهد ديكونيس لأبحاث العقل والجسم في بوسطن، الذي لخص ماطرح في المؤتمر في أحد البرامج الصباحية لشبكة تلفزيون إن بي سي قائلا: {الجديد الذي خرجنا به من هذا المؤتمر هو أنه حينما يفكر الإنسان بطريقة معينة، مع تكرار صلاة أو دعاء أو صوت ما، تحدث تغيرات فسيولوجية داخل الجسم، وهي تغيرات صحية تماما تكافح التوتر والضغط النفسي.. إنه حينما يكون لدى الإنسان إيمان راسخ، تحدث لديه قوة غير عادية}. ويشير أستاذ جامعة هارفارد، التي تعتبر من أشهر الجامعات الأمريكية، إلى أنه كلما ازداد إيمان الإنسان زادت قدرته على مقاومة الأمراض، أي أن الإيمان هو في منتهى الأهمية من هذه الناحية. وتجدر الإشارة إلى أن الطب الحديث، كما حدده الدكتور بينسون، يسير في ثلاثة اتجاهات: الأدوية والجراحة والرعاية الذاتية. وفي هذا الاتجاه الثالث، هناك الناحية الروحية والصلة بين العقل والقلب.. وحينما يساعد الإنسان نفسه فإن هذا الاتجاه الثالث يفيد بالفعل، وهناك إقبال متزايد حاليا من جانب الخبراء على هذه الناحية "، العدد الخامس عشر، مايو (أيار) ١٩٩٦م.

أليم ○ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ○ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ○ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ○ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ○ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ○ حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ○ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ○ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ○ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ○ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ماأصابهم والمقيمي الصلوٰة ومما رزقناهم ينفقون ○ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ○ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين ○ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ الحج ٢٥-٣٨.

﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ○ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وماتفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الألباب ○ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ○

ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ○ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ○ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ○ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ○ واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ○ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام ○ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ○ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ البقرة ١٩٦-٢٠٦.

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ البقرة ١٨٩.

﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ التوبة ٣.

ولغويا " الحاء والجيم أصول أربعة. الأول: القصد.. ثم اختص بهذا الاسم القصد إلى البيت الحرام للنسك. "(١١).

ومن الآيات الكريمة ومجمل القرآن الكريم نستنتج مايلي:

أ- يدعو الله **الناس جميعا للحج** إلى بيته العتيق، الذي أقام إبراهيم القواعد منه، بمعونة ولده اسماعيل عليهما السلام. **وتجسد قواعد البيت العتيق قواعد الصراط المستقيم**، الدين القيم على الدين كله، التي أوحيت إلى إبراهيم عليه السلام منذ العهد القديم، وإلى الأنبياء والرسل وجميعا من بعده. وعليه، فكل مؤمن بالله وباليوم الآخر، على ملة إبراهيم عليه السلام، مدعو للحج إلى

بيت الله العتيق في مكة المكرمة، وليس لأحد أن يمنعه ﴿وأذن في الناس بالحج..﴾ ﴿..ولله على الناس حج البيت ..﴾ ﴿..والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء..﴾.

ب- الهدف الأول للحج هو ذكر الله من قبل جموع المسلمين ﴿..ويذكروا اسم الله في أيام معلومات..﴾ ﴿..فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه..﴾ ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم..﴾﴿..واذكروا الله في أيام معدودات..﴾، أي التوحيد على مستوى الأمة. إن توجه الروح الجماعية للأمة المسلمة في الحج إلى الله الواحد الذي ليس كمثله شيء، أي الذي جلّ سبحانه أن ينتمي إلى النظام المادي للكون أو إلى غيره، يعبر عن موقفها الجماعي الحر من النظام المادي الفاني للكون، أي عن انتمائها الجماعي الحر إلى الخلود، فيما وراء المادة. وهذا هو معنى الوقوف في عرفة، حيث إنه تعريف وإقرار بذلك *.

إن اجتماع عدد كبير من المسلمين - على اختلاف بيئاتهم الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في مشارق الأرض ومغاربها - في مكان واحد، على أساس من المساواة، والأخوة، ووحدة العمل، يخلق فرصة للتمازج الفكري، والثقافي، والاجتماعي فيما بينهم، ويساعدهم على إيجاد قاعدة متجانسة للأمة، أساسها وحدة الهوية. كما يعزز هذا الوجود روح المحبة، والتسامح، وَالعفو، والألفة بين أبناء الأمة، ويحضهم على العمل والتضحية من أجل تكريس القيم والمبادىء العليا للإسلام، وتحقيق أهدافه ومصالحه الكبرى **.

---

* يقول معجم مقاييس اللغة " الوقوف بعرفة: تعريف.. ويقال اعترف بالشيء: إذا أقرّ، كأنه عرّفه فأقرّ به ".

** لا نتحدث هنا عما هو كائن، بل عما يجب أن يكون، انطلاقا من التأكيد على معاني الحج، ومضامينه الفكرية.

ت- الهدف الثاني للحج هو تكريسه لمبدأ التقوى، الفردية، والجماعية للأمة. أي تدريب المسلمين على وقاية أنفسهم مما يضر بصالحهم، باعتبارهم أفرادا، وجماعات ﴿..لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج..﴾ و ﴿..فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ و ﴿..واتقوا الله واعلموا أن الله..﴾ و ﴿..وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون..﴾ *، وصولا بهم إلى ممارسة العمل الصالح ﴿..وبشر المخبتين﴾ و ﴿..وبشر المحسنين﴾.

ث- وعليه نرى أنه تعالى فرض الحج على المؤمنين من أجل تكريس الهدفين المذكورين، وأنه ليس لله سبحانه منه شيء. ويؤكد على ذلك قوله تعالى ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله .. ○ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين﴾. فالله لن ينال من الأضحية التي تنحر في الحج شيئا - شأنها شأن سائر مناسك الحج - وإنما تُنحر الأضحية تأكيدا على استعداد المؤمنين الدائم للتضحية من أجل الآخرين، الفقراء، والمحتاجين، ومشاركة فعلية منهم في تحقيق ذلك ﴿..فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر..﴾ ﴿..فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾، كان قدمها إبراهيم عليه السلام بالصورة المثلى من قبـــل.

ج- تصف الآية الكريمة الحج الذي يقام في ميقاته المعروف بالحج الأكبر ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر..﴾ **، حيث يقام في أيام معدودات معلومات من أيام الأشهر الأربعة الحرم *** ﴿..واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين..﴾ ﴿..ويذكروا اسم الله في أيام

---

* ربما يعني رمي الشيطان بالجمار أثناء الحج إصرار المسلم على مقاومة الشر في نفسه، وفي نفوس الآخرين. بيد أن رمي الجمار غير مذكور في القرآن الكريم، بالرغم من ذكره تعالى فيه أغلب تفاصيل الحج.

** (الأكبر) هي صفة (الحج)، ولذلك فعلامتها الجر مثله. ولو كانت صفة اليوم (أي يوم النحر كما جاء في بعض التفاسير)، لكانت علامتها النصب.

*** لقوله تعالى ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ التوبة ٣٦.

**معلومات..﴾**. وتعريف الآية الكريمة للحج الذي يقام في ميقاته المعروف بالحج الأكبر، يعني أن هناك حجا أصغر بالضرورة. و**الحج الأصغر** هو **العمرة** التي تقام في **أيام معدودات أخرى** من أيام الأشهر الأربعة الحرم. يقول ابن عطية الأندلسي في تفسيره للآية الكريمة " قال عطاء بن أبي رباح وغيره: الحج الأكبر بالإضافة إلى **الحج الأصغر وهي العمرة**. وقال الشعبي: بالإضافة إلى **العمرة في رمضان فإنها الحج الأصغر**".

ويفسر لنا هذا قوله تعالى **﴿الحج أشهر معلومات ..﴾**، حيث تحدد الآية الكريمة الميقات الذي يقام فيه الحج بالأشهر الأربعة الحرم، وعدد أيامها مائة وثمانية عشر يوما تقريبا. أي أن الآية الكريمة لا تحدد للحج أياما بعينها من أيام الأشهر الحرم.

إن هذا يعني أن من يؤدي من المسلمين **العمرة** خلال الأشهر الأربعة الحرم – بشروط الحج – يكون قد أدى **فريضة الحج** فعلا، أي لسقطت عنه **الفريضة**. فحين فرض الله الحج على المسلمين، لم يشترط كونه حجا أكبر بالذات، وإنما الحج فحسب **﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك ..﴾** و **﴿..ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾، ويشمل ذلك الحج الأكبر، والحج الأصغر، في آن معا.**

ربما يساهم هذا في حل مشكلة الازدحام الخطير الذي يعاني منه الحجاج في أيامنا المعاصرة، رغم الجهود المضنية والأموال الوفيرة التي تبذل في سبيل توسيع رقعة بيت الله الحرام، وتنظيم الحج بشكل عام. وهو موضوع في حاجة إلى الدراسة على ضوء الظروف المستجدة للمجتمعات المسلمة *.

---

* لقد اختلفت الظروف الموضوعية للمجتمعات المسلمة اليوم اختلافا كبيرا عما كانت عليه زمن النبوة وما بعده. فإذا كان عدد الحجاج في عهد رسول الله ﷺ لم يكن يتجاوز المئات، ولم يكن يتسبب بازدحام أو مشاكل تذكر، فإن عدد الحجاج في أيامنا المعاصرة بات يحسب بالملايين، بالرغم من كل الجهود التي تبذل من أجل حصره في الحدود المعقولة. وما يزال عدد الحجاج في ازدياد مستمر مع ازدياد عدد المسلمين في العالم، الأمر الذي سيؤدي إلى تفاقم معاناتهم مستقبلا. توفي في الحج عام

ح- تشترك الشرائع السماوية في فرض الحج على المؤمنين جميعا على ملة إبراهيم عليه السلام، كل منها حسب مناسكها الخاصة ﴿**ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين**﴾. لذلك فمهما اختلفت مناسك الحج من شرعة لأخرى، **يظل مضمون الحج واحدا في الشرائع كلها**، وهو تكريس مفهوم التوحيد على المستوى الجماعي للأمة الإسلامية، بالإضافة إلى تكريس مفهوم التقوى على المستويين الفردي والجماعي.

وعليه، فإذا أفرغت مناسك الحج من معانيها، ومضامينها الفكرية، أصبحت أشبه بالطقوس الوثنية، التي تعيد المؤمنين إلى روح الجاهلية الأولى.

خ- لا يؤجر المسلم على أدائه الحج إن لم ينهه حجّه عن ارتكاب العمل الفاسد، الذي يضر بالصالح العام بشكل خاص ﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ○ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾. أي أن من يؤدي من المسلمين فريضة الحج، ثم يسعى في الأرض فسادا، ويهلك الحرث والنسل، فسيعاقبه الله – إن لم يغفر له – ليس فقط بحرمانه من الأجر والثواب، وإنما بدخوله جهنم وبئس المهاد.. والله أعلم.

ويتفق مع هذا ما روي عن عمر رضي الله عنه قوله " **الموسم كثير والحج قليل** " (١٢).

---

١٩٩٤م (٨٩٢) حاج، منهم (٢٧٠) أثناء رمي الجمار، وهي الأرقام التي اعلنتها صحف دولة قطر في حينه.

## ثانيا- العدل والإحسان:

عندما يدعو القرآن الكريم الإنسانية إلى تحقيق الخير والصلاح في كل زمان وفي كل مكان – وهو هدف الشرائع السماوية جميعا – فإنه يفعل ذلك من خلال دعوته لها إلى **العدل والإحسان**، باعتبارهما **هدفين إنسانيين مطلقين، يختصران خير الإنسانية كله، وصلاحها، وسعادتها**، في كل زمان وفي كل مكان، أي دون اعتبار لتغير الأزمان والأمكنة.

يقول تعالى:

**﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾** النحل ٩٠.

تختصر الآية الكريمة بإيجاز بليغ قانونا إنسانيا عاما، لا يتغير على مر العصور، مفاده أن **خير الإنسانية كله، وصلاحها، وسعادتها في الدنيا والآخرة، تجتمع في العدل والإحسان**، بينما يجتمع **شر الإنسانية كله، وشقائها في الدنيا والآخرة في الفحشاء والمنكر من الفعل**. ولا توجد آية في القرآن الكريم أجمع للخير والشر من الآية الكريمة المذكورة. فهي، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال عنها " **هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. ولو لم يكن فيه غير هذه الآية لكفت في كونها تبيانا لكل شيء وهدى** " (١٣) *.

ومن خلال دراسة العدل والإحسان الإنسانيين في الذكر الحكيم، على مستوى القول والعمل من جهة، وعلى المستويين المادي والمعنوي من جهة أخرى، يتبين لنا أنهما العاملان الأساسيان، اللذان يلعبان الدور الأهم في استقرار المجتمعات الإنسانية، وتطورها في الاتجاه الصحيح، في سبيل

---

* ذكره أيضا الطبري، وابن كثير، وابن عطية في تفسيرهم للآية الكريمة، كما ذكره السيوطي في الدرر المنثور، المجلد الرابع، ص: ١٢٨. روي حديث مشابه أيضا على لسان **ابن عباس**، ذكر ذلك الصديق حسن خان، في **فتح البيان في مقاصد القرآن**، الجزء السابع، ص: ٣٠٤.

تحقيق سعادتها المنشودة، وبناء الحضارات الإنسانية النافعة. ولهذا **تأمر** الآية الكريمة الإنسانية بالعمل بهما، والتطلع إلى تحقيقهما في كل زمان وفي كل مكان، أي بغض النظر عن اختلاف الظروف الزمانية والمكانية للمجتمعات الإنسانية.

أما الفحشاء والمنكر من القول والعمل، فهما العاملان اللذان يتسببان في تشتت المجتمعات الإنسانية، وانحلالها، وشقائها في الدنيا والآخرة، وهما المفهومان المخالفان للعدل والإحسان. ولهذا **تنهى** الآية الكريمة الإنسانية عن إتيانهما في كل زمان وفي كل مكان، أي بغض النظر عن اختلاف الظروف الزمانية والمكانية للمجتمعات الإنسانية.

نلاحظ ورود الفعل (**أمر**) في الآية الكريمة، وضده الفعل (**نهى**)، اللذين يقترنان بأهداف الإسلام عموما في الذكر الحكيم * .

وخُص بالذكر من العدل والإحسان في الآية الكريمة **إيتاء ذي القربى**، أي صلة الرحم وكل ذي قرابة، وهو المبدأ الأساسي الذي يرسي قواعد التضامن الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية على المستويين المادي والمعنوي، انطلاقا من مبدأ التضامن الأسري. كما خُص بالذكر في الآية الكريمة التي تليها وجوب **الوفاء بالعهود**، وبخاصة المؤكدة منها ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون**﴾ النحل ٩١، وأداء **الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل** ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا**﴾ النساء ٥٨، كونها جميعا من العوامل الهامة التي تساعد على استقرار المجتمعات الإنسانية، وصلاحها، في كل زمان، وفي كل مكان.

يقول تعالى في الموضوع نفسه في آيات كريمة أخرى:

---

* مر ذكر ذلك في بحث التوحيد.

﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**﴾ البقرة ٢٧.

﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ الرعد ٢٥.

﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾ الرعد ٢١.

﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾ الشورى ١٥.

نلاحظ أيضا ورود الفعل (أمر) في الآيات الكريمة المذكورة.

أما ما خُص بالذكر من الفحشاء والمنكر من الفعل في الآية الكريمة موضوع الدراسة، فهو **البغي** ﴿**.. وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..**﴾، أي العدوان على الناس، والتسبب بالظلم والأذى لهم على أي مستوى من مستويات الحياة. وخُص البغي بالذكر، لعظم الضرر الذي يلحقه بالإنسانية وبمصالحها، الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية وغيرها، وربما يكون العامل الرئيسي وراء عدم استقرار المجتمعات الإنسانية، وشقائها في الدنيا والآخرة.

و**العدل** هو " الحكم بالاستواء.. ونقيض الجور "[١٤]، وقد سمي العدل باسمه لأنه يعني **مقابلة الفعل بمثله " إن خيرا فخير، وإن شرا فشر** "[١٥]، ولهذا سمي اعتداء، وسيئة، في قوله تعالى " ﴿**..فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم..**﴾ البقرة ١٩٤ ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها..**﴾ الشورى ٤٠.. وهذا النحو هو المعني بقوله ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى..**﴾ النحل ٩٠." [١٦].

أما **الإحسان** " فيدل على خلاف القبح.." [١٧]. وقد سمي الإحسان باسمه لأنه يعني **مقابلة الفعل بأحسن منه**، أي أن " **يقابل الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه** " [١٨].

وعليه، فإذا كان من **العدل** أن يقابل الإنسان العدوان بعدوان مثله، والسيئة بسيئة مثلها، تماما كما يقابل الخير بخير مثله، فإنه من **الإحسان** أن يحسن الإنسان القول والعمل في المقام نفسه، أي أن **يقابل الشر بشر أقل منه، وأن يقابل الخير بخير أكثر منه.**

يقول تعالى:

**﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾** فصلت ٣٤.

**﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** النحل ١٢٦.

**﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾** الشورى ٤٠.

**﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾** المائدة ٤٥.

**﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾** غافر ٤٠.

من هنا تتضح الحكمة من ذكر الآية الكريمة **للإحسان بعد العدل**، كونه يحتل **المرتبة الأسمى في نظر الدين.**

## ١- العـــدل:

عندما أكد علماء الإسلام في مؤلفاتهم على أهمية اعتبار **ضرورات الإسلام الخمس** أصولا ثابتة للشريعة، فإنما كانوا يؤكدون في الوقت نفسه أنه لا يمكن **تحقيق العدل في المجتمعات المسلمة إلا بحفظ تلك الضرورات**، على المستويين **الفردي والاجتماعي** من جهة، **والمادي والمعنوي** من جهة أخرى، باعتبارها تشكل أساس الوجود الإنساني، وشروط قوامه، واستقراره، وسعادته في الدنيا والآخرة.

وضرورات الإسلام الخمس هي: **حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال**، ويطلق عليها بعض العلماء اسم كليات الشريعة، تأكيدا على أهميتها. ولسنا في حاجة هنا إلى شرحها، طالما شرحها علماء الإسلام *، وإنما سنركز على علاقتها بتحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية.

أ- **فالعدل على المستوى الفردي**، هو احترام المسلم لكل الحقوق وأداؤه لكل الواجبات على المستويين المادي والمعنوي، تجاه دينه، ونفسه، وعقله، ونسله، وماله، بما يكفل خيرها، وصلاحها، وحفظها جميعا من أي مكروه، أو أذى.

ويبدأ الإنسان في تحقيق **العدل** على المستوى الفردي من خلال اجتنابه **ظلم نفسه** (ضد العدل معها)، أي من خلال اجتنابه للكفر، أو للشرك بالله، الأمر الذي يحفظ له قاعدة الدين الأساسية، وهي التوحيد.

يقول تعالى:

---

* أنظر كتاب **الموافقات في أصول الشريعة**، لأبي اسحق ابراهيم بن موسى الشاطبي.

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب﴾ هود ١٠١.

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ الروم ٩.

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وماكانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ يونس ١٣.

﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ إبراهيم ٤٤.

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾ البقرة ١٦٥.

﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ماأظن أن تبيد هذه أبدا ٥ وماأظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ الكهف ٣٥-٣٦.

لقد عرّف بعض مفكري الإسلام، ومنهم ابن مسكويه، وأبو حامد الغزالي، **العدل على المستوى الفردي** بكونه " **التوازن بين قوى النفس الثلاث، العقلية، والغضبية، والشهوانية**.. ويظهر أن هذه النظرة النفسية.. **حالة توجب أن يكون الإنسان عدلا**، لأن العقل متى سيطر على قوتي الغضب والشهوة، كانت أحكامه صادرة عن حكمة، وروية، غير واقعة تحت أي مؤثر يمكن أن يخرج الأحكام عن غايتها.. أي أنها **مظهر لتوازن نفسية الإنسان العادل** " [١٩].

وعلى هذا المستوى من العدل، يأمر الله الناس أن يقوموا بالقسط في كل زمان وفي كل مكان، ويعتبر **القيام بالقسط هدفا أساسيا من أهداف بعثة الرسالات السماوية.**

يقول تعالى:

**﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾** الحديد ٢٥.

والقسط من العدل وهو " أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد. فالقسط: العدل.. والقسط بفتح القاف: الجور"، [٢٠]. " والإقساط: أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف.. " [٢١].

يقول تعالى آمرا الناس بالقسط، أي أن تكون أحكامهم صادرة عن حكمة وروية، غير واقعة تحت أي مؤثر يمكن أن يخرج الأحكام عن غايتها، فلا يتبعوا الهوى (كمحبة الوالدين والأقربين) أن يعدلوا، ولا يجرمنهم شنآن قوم (أي كراهيتهم) على ألا يعدلوا:

**﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون﴾** الأعراف ٢٩.

**﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾** النساء ١٣٥.

**﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** المائدة ٨.

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ○ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ الممتحنة ٨-٩.

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ الحجرات ٩.

ب- أما العدل على المستوى الاجتماعي، فعلى نوعين: النوع الأول وهو تنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع، بحيث ينظر إلى الجميع نظرة واحدة، لا تفاوت فيها بين الأفراد، أي أن الناس جميعا ينبغي أن يكونوا أمام القانون سواء.

يقول تعالى:

﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ الحجرات ١٣.

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ الإسراء ٧٠.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ الأنعام ١٦٥.

لقد كرّم الله الإنسان باعتباره إنسانا، نافخا فيه من روحه، وجاعله خليفة له في الأرض. لذلك فإن الناس في الذكر الحكيم جميعا أحرار، سواسية، لا فرق بينهم على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الشرعة.

وأما **النوع الثاني** من العدل الاجتماعي: فهو احترام المسلم لكل الحقوق، وأداؤه لكل الواجبات تجاه الآخرين، بما في ذلك إعطاء كل ذي حق حقه، على المستويين المادي والمعنوي. ويكون ذلك انطلاقا من **قواعد الصراط المستقيم**.

يقول تعالى:

**﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾** النحل ٧٦.

ويُخترق هذا النوع من العدل بالتعدي على حقوق الآخرين، في الدين، أو في النفس، أو في العقل، أو في النسل، أو في المال، بما في ذلك عدم توفيتهم حقوقهم فيها. ويدخل فيه كل ما يجب نحو الآخرين من احترام وتقدير في الأمور المادية والمعنوية، كاحترام الأشخاص، والمعاهدات، والمواثيق، والأموال، والممتلكات، بحيث يكون التعدي عليها مؤاخذا وملزما بالتعويض، أو موجبا للعقوبة في الحياة الدنيا، أو للعذاب في الحياة الآخرة.

وتكفل أحكام الشريعة هذا النوع من العدل، بل هو موضوعها الرئيس. حيث تدور عموما **على ضرورة حفظ الدين**، كالتشريعات التي تحض على نشر الدعوة، والجهاد في سبيل الله، ومحاسبة المسيئين للدين، و**على ضرورة حفظ النفس الإنسانية**، كالتوجيهات الخاصة بالمأكل، والمشرب، والملبس، والتشريعات الخاصة بالقصاص، والديات، و**على ضرورة حفظ العقل**، كوجوب التعليم، وإعمال العقل في كل أمور الحياة وقوانين الكون، واجتناب السُكْر وكل ما يذهب العقل، و**على ضرورة حفظ النسل**، كتشريعات الزواج، والطلاق، وحفظ الأنساب، وتحريم الزنا والفواحش، و**على ضرورة حفظ المال**، كشروط تملكه، وحفظه، وإنفاقه، وتنميته، والتشريعات الخاصة بالسرقة، وكنز المال، والربى، والميسر، والاحتكار، وأكل مال اليتيم، والغش بالكيل والميزان، وأكل أموال الناس بالباطل.

وعلينا ألا ننسى أن العدل يقتضي مراعاة **المرونة** في تطبيقه، أي مراعاة كل الظروف والملابسات الإنسانية التي رافقت الفعل، وذلك ابتغاء تحصيل الحقيقة الأعم، الأكثر إنسانية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى مراعاة النّية والقصد من الفعل، وإلا شاب العدل الكثير من الظلم.

وعلى وجه العموم، **تحرم أحكام القرآن الكريم الظلم الإنساني** (ضد العدل) **على جميع المستويات**، وتتوعد من يقوم به بالعذاب الأليم في الحياة الآخرة، إن لم ينل عقابه في الحياة الدنيا، وإن لم يغفر الله له. والآيات الكريمة في ذلك أكثر من أن تحصى، نذكر منها قوله تعالى:

**﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾** الفرقان ١٩.

**﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ○ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ○ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾** الشورى ٤٠-٤٢.

ت- ونؤكد على ميدان هام جدا من ميادين العدل، خصه الله بكونه **القاعدة الثامنة** من قواعد الصراط المستقيم. وهو **القول العدل ولو كان ذا قربى**، أي الشهادة بالحق والصدق في كل شؤون الحياة، حتى لو كان ذلك فيما يخص ذوي القربى، أي ذوي الأرحام، وكل من له صلة قربى بالمسلم.

يقول تعالى:

**﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾** الأنعام ١٥٢.

ث- وبما أن الله هو العدل، الحق، المقسط، الذي يأمر الناس بالعدل، والحق، والقسط، **فإن المشيئة الإلهية لا يمكن أن تتسبب بأي ظلم يمكن أن يلحق بالناس، مؤمنين كانوا، أو كافرين،** وإنما تقسط فيهم، وتعدل بينهم عدلاً تاماً في الحياتين الدنيا والآخرة. وهذا يعنى أن ما يلحق بالإنسان من ظلم أو أذى في الحياة الدنيا، يكون من **صنع الإنسان** نفسه، أو الآخرين من حوله، أو من صنع المجتمع بشكل عام، أما المشيئة الإلهية فلها العدل المطلق.

يقول تعالى:

**﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾** النساء ٤٠.

**﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾** يونس ٤٤.

**﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾** المؤمنون ٦٢.

**﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾** الزمر ٦٩.

**﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون﴾** البقرة ٢٨١.

**﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾** الأنعام ١٦٠.

**﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾** الجاثية ٢٢.

﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا﴾ الإسراء ٧١.

﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ يونس ٤٧.

﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ الأنفال ٥١.

ومن خلال دراسة **فريضة الصدقات** في الذكر الحكيم – بما فيها الزكاة – يتبين لنا أنها الخطوة الأولى على طريق إرساء **قواعد التضامن الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية**، وهو المدخل الأساسي لتحقيق العدل فيها.

### العدل وعلاقته بالصدقات وبالزكاة:

أ- اشتق المصدر **الزكاة** من الفعل زكى، وهو " أصل يدل على **نماء وزيادة**، ويقال **الطهارة** زكاة المال "[٢٢] و" **تزكية النفس**: أي تنميتها بالخيرات والبركات "[٢٣].

والزكاة " **شرعاً تمليك مال مخصوص لمستحقه بشرائط مخصوصة**.. وكما يعرفها الحنابلة، هي **حق واجب، في مال خاص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص**..

ويشترط لوجوب الزكاة **شروط**: منها **البلوغ.. والإسلام.. والنية.. وأن يبلغ المال المملوك نصابا** (أي مانصبه الشارع علامة على وجوب الزكاة.. ويختلف مقدار النصاب باختلاف المال المزكى).. **والحرية.. وفراغ المال من الدَّين..**

والأنواع التي تجب فيها الزكاة خمسة: **النّعم**، وهي الإبل ونصابها خمس.. والبقر ويشمل الجاموس ونصابه ثلاثون.. والغنم ويشمل المعز ونصابه أربعون، **والذهب والفضة**، ونصاب الذهب عشرون مثقالا أي دينارا، **والفضة** مائتا درهم.. ويدخل فيهما الأوراق المالية لأنها حلت محل الذهب والفضة في التعامل.. **وعروض التجارة**، وهو ما ليس بذهب أو فضة، مضروبا كان كالجنيه والريال، أو غير مضروب، كالقماش والحديد ونحو ذلك.. وتجب الزكاة في عروض التجارة وفي عينها، ونصابها ربع العشر بشروط، **والمعادن والركاز**، وهما شرعا مال وجد تحت الأرض.. ونصابها إن نوي بها التجارة كان كعروض التجارة كما هي عند الحنفية، **والزروع والثمار**، ما سقت السماء وفيه العشر.. وما سقى دلو أو دولاب وفيه نصف العشر..

ولا **تجب الزكاة في دور السكنى**، وثياب البدن، وأثاث المنزل، ودواب الركوب، وسلاح الاستعمال، وما يتجمل به من الأواني إذا لم يكن من الذهب والفضة، ولا تجب في الجواهر.. ولا في كتب العلم.. إذا لم تكن للتجارة.. ولا تجب في آلات الصناعة مطلقا..

وتصرف الزكاة للأصناف الثمانية المذكورة في قوله تعالى **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾** التوبة ٦٠. " [٢٤]،

فالزكاة تعني – كما هو واضح من الملخص الذي ذكرناه – حق المسلم المحتاج في مال المسلم المستطيع مما يبلغ نصابا في الممتلكات بأنواعها، مما لا يدخل في تصنيف الاحتياجات الحياتية الأساسية للإنسان، كالمسكن، والملبس، ووسائل المواصلات، والسلاح، وآلات الصناعة..إلخ. ونفهم من هذا أن الله فرض على المسلمين إخراجها من أجل تقريب الفروق المادية بين افراد المجتمع، ومساعدة فقرائه ومساكينه ونحوهم على النهوض باحتياجاتهم الحياتية الأساسية.

وبما أن المسلم يخرج الزكاة **طوعا** ابتغاء وجه الله، أي انطلاقا من قانون أخلاقي ديني، ينبع من أعماق نفسه الخيرة، بهدف تحقيق الصالح العام للمجتمع، **وليس قسرا**، أي بناء على قانون وضعي تحميه سلطة الدولة، لذلك تعتبر الزكاة النظام الأمثل، الذي يرسي **قواعد التضامن الاجتماعي** في المجتمعات الإنسانية، على طريق تحقيق العدل فيها بشكل عام.

هذا، وكنا قد ذكرنا في بحث الصلاة جلّ الآيات الكريمة التي تدعو المؤمنين **لإيتاء الزكاة**، بعد إقام الصلوٰة فى الترتيب على وجه العموم.

وعليه، فإن عطاء المسلم المستطيع للآخرين الأقل منه استطاعة، **في أوقات مخصوصة، وبنسب مخصوصة، ولشرائح من المجتمع مخصوصة**، هو **تدريب عملي** له على تحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية **على المستوى المادي**.

ومن مقاصد ذلك التدريب وغاياته، الارتقاء بالمؤمن إلى مستوى فكري، يستشعر من خلاله مضمون **فريضة الصدقات** ومعناها.

ب- فإذا كان الالتزام بفريضة الزكاة يرسي قواعد التضامن الاجتماعي على المستوى المادي كما رأينا، فإن الالتزام **بفريضة الصدقات يرسي قواعد التضامن الاجتماعي على المستويين المادي، والمعنوي**. وبالتالي يحقق خطوة متقدمة على طريق تحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية، بمفهومه الواسع. ولذلك يتضمن مفهوم الصدقات مفهوم الزكاة بالضرورة، أي أنه ذو المفهوم الأشمل *.

والصدقة كلمة مشتقة من الفعل **صدق**، وهو " أصل يدل على **قوة في الشيء قولا وغيره**، من ذلك الصدق: خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه.. وأصل هذا من قولهم شيء صدْق: أي صلب.. ومن الباب الصدقة:

---

* كما هي صلاة الذكر بالنسبة لصلوٰة الإقامة.

مايتصدق به المرء عن نفسه وماله " [٢٥]، و " ويقال لما **تجافى عنه الإنسان من حقه:** تصدّق به، نحو قوله ﴿..**والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له..**﴾ أي من تجافى عنه " [٢٦].

فالصدقات إذن تحمل **معنى القوة**، لأنها الوحيدة من الفرائض الأربع التي وُصفت في الذكر الحكيم بكونها **فريضة من الله**.

يقول تعالى:

﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ التوبة٦٠.

إن هذا يعني أن ظهور الآثار الإيجابية للصدقات في المجتمعات الإنسانية **أمر حتمي**، لا نسبي كما هو حال الآثار الإيجابية للفرائض الثلاث الأخرى. بمعنى أن الآثار الإيجابية لفريضة الصدقات لا بد أن تظهر في المجتمعات الإنسانية **لا محالة**، حتى لو كان المسلم غير واع لمعناها، أو مستشعرا لمضمونها، كما هو حال الصلوة، والصوم، والحج، وبغض النظر كذلك عن الأهداف النهائية التي يسعى مؤدوها إلى تحقيقها، كأن يكون ذلك رياء ونفاقا *.

هذا بالإضافة إلى أن الصدقات هي الفريضة التي **تكرّس أسمى معاني التضامن الاجتماعي على المستويين المادي، والمعنوي**، التي يتنازل المؤمن بموجبها، **ليس فقط** عن نسبة مما هو خارج دائرة احتياجاته الحياتية الأساسية – كما هو حال الزكاة – وإنما عن **بعض حقوقه المكتسبة كذلك**، المادية منها والمعنوية. أي أن **الصدقة تكون بالمال اللازم للإنسان وكل ما يقوّم بالمال، كما تكون بالكلمة، وبالجهد، وبالحقوق المكتسبة.**

---

* راجع الهامش الأول من الفصل، وفيه شرح لمعنى الفرائض.

يقول تعالى:

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ المائدة ٤٥.

﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ التوبة ٧٩.

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ○ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلوٰة وأتوا الزكوٰة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾ المجادلة ١٢-١٣.

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلوٰتك سكن لهم والله سميع عليم ○ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾ التوبة ١٠٣-١٠٤.

﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ النساء ١١٤.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ○ ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ البقرة ٢٦٣-٢٦٤.

﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ البقرة ٢٧١ *.

وقد جُعلت الصدقات في الذكر الحكيم كفارة لاجتراح السيئات، وفدية لها، وقُدِّمت في ذلك على الصوم. فالصدقات هي كفارة القتل الخطأ، وكفارة مظاهرة النساء، وكفارة الحنث باليمين، وكفارة الأخطاء التي ترتكب أثناء الحج..إلخ.

يقول تعالى:

﴿وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله..﴾ النساء ٩٢.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ○ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا..﴾ المجادلة ٣-٤.

﴿..ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة..﴾ المائدة ٨٩.

﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه

---

* مما يتفق مع كون الصدقات حق للفقير عند الغني على المستوى المعنوي كذلك، ما روي في صحيح البخاري عن الرسول الكريم قوله " { كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة } "، كتاب الجهاد والسير، الحديث رقم (٢٨٢٧)، وقوله كذلك " { على كل مسلم صدقة }، فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد ؟ قال: { ليعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق }. قالوا: فإن لم يجد ؟ قال: { يعين ذا الحاجة الملهوف }. قالوا: فإن لم يجد ؟ قال: { فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة } "، كتاب الزكاة، الحديث رقم (١٣٧٦).

**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾** البقرة ١٩٦.

ب- أما **الربا** فهو النظام المعاكس تماما لفريضة الصدقات، بما فيها الزكاة. فعلى الرغم من أن الربا يعني " الزيادة والنماء " أيضا (٢٧)، إلاّ أنه يحمل معنى **الظلم والاستغلال**، اللذين يمارسهما الطرف القوي المستطيع على الطرف الضعيف المحتاج. بينما رأينا كيف تحمل الصدقات والزكاة معاني الصدق، والطهارة، والتزكية، والعدل، وهي جميعا تخالف مفهومي الظلم والاستغلال. ولهذا **حُرِّم الربا** في القرآن الكريم تحريما تاما، كتحريم نكاح المحرمات من النساء.

يقول تعالى:

**﴿الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا وأحل الله البيع وحرم الربوا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ○ يمحق الله الربوا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾** البقرة ٢٧٥-٢٧٦.

**﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربوا إن كنتم مؤمنين ○ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾** البقرة ٢٧٨-٢٧٩.

**﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** آل عمران ١٣٠.

﴿وماآتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وماآتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ الروم ٣٩. الربا عكس الزكاة، والذين يؤتون الزكاة هم المضعفون الحقيقيون لأموالهم.

﴿وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ النساء ١٦١.

﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ النساء ٢٩.

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ النساء١٠.

وعليه، فإن **الربا هو كل معاملة مالية، أو نحوها، تحمل معنى الظلم والاستغلال، اللذين يمارسهما الطرف القوي المستطيع على الطرف الضعيف المحتاج. أما ما عدا ذلك فهو ليس ربا.**

ت- **فرضت** الصدقات على المؤمنين في ظل الشرائع السماوية جميعاً، من أجل تحقيق الأهداف الإنسانية نفسها. لذلك فمهما اختلفت طرق أدائها، ومقاديرها من شرعة لأخرى، يظل مضمونها، ومعناها، واحدا فيها جميعا.

ث- يؤجر المؤمن على أدائه الصدقات والزكاة إذا كان ذلك ابتغاء وجه الله، أي إذا كان ذلك **في سبيل تحقيق الصالح العام**. أما إذا كانت المصالح أو الأهواء الشخصية هي التي تدفعه إلى فعل ذلك، كرغبة في مردود مادي أكبر، أو سعيا وراء شهرة، فإنه لا يؤجر عليها.. والله أعلم.

أما الوسائل التي تساعد المسلم على تحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية فكثيرة، أهمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**العدل وعلاقته بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر:**

**المعروف** مصدر مشتق من الفعل عرف وهو " أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض، والآخر على **السكون والطمأنينة**. فالأول العرف: عرف الفرس، وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه.. والأصل الآخر **المعرفة والعرفان**. نقول عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة. وهذا أمر **معروف**. وهذا يدل على ماقلناه من **سكونه إليه**، لأن من **أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه**.. ويقال **النفس عروف**: إذا حملت على أمر **فباءت به**، أي **اطمأنت**" (٢٨).

**فالمعروف إذن هو كل أمر يسكن له عقل الإنسان، وتطمئن لصحته نفسه وفطرته الخيرة** *.

يقول تعالى:

﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم**﴾ البقرة ٢٦٣. إن القول الذي يسكن له عقل الإنسان، وتطمئن له نفسه وفطرته الخيرة، خير من صدقة يتبعها الإنسان بالأذى، وأكثر عدلا منها في حق الآخرين.

﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم ο وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين**﴾ البقرة ٢٤٠- ٢٤١. يوصي تعالى للزوجات أن يُمكّن من السكنى في بيوتهن، والتمتع بأشيائهن حولا كاملا بعد وفاة أزواجهن، **إن** رغبن في ذلك. فإن خرجن، فلا جناح على المؤمنين فيما فعلن بأنفسهن، طالما **أنهن رضين** به،

---

* أما العرف، فيعني ما تعارف عليه الناس فأصبح بذلك قانونا اجتماعيا مضمرا. يقول تعالى ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ الأعراف ١٩٩.

واطمأنت **نفوسهن إلى فعله**، أي طالما أنهن اخترنه اختيارا، ولم يفرض عليهن قسرا *. أما بالنسبة للمطلقة، فعلى طليقها إعطاؤها من متاعها **ما تسكن له نفسه وفطرته الخيرة**، أي بالقدر الذي **يدرك أنه حق لها**، وأنه من العدل إعطاؤها إياه.

﴿**فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا**﴾ الطلاق ٢. من العدل أن يرد الزوج طليقته إليه عندما تبلغ غاية عدتها، إذا كان يطمئن إلى فعل ذلك نفسا وفؤادا، أي ليس بقصد إذلالها مثلا، أو الانتقام منها. وعليه أن يفارقها إذا كان يطمئن إلى ذلك كذلك.

﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا**﴾ النساء ٦. من العدل أن يأكل الفقير القائم على مال اليتيم من المال ما يسكن له فؤاده، وتطمئن له فطرته الخيّرة.

أما **(المنكر)** فمشتق من الفعل نكر وهو " أصل صحيح يدل على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب. ونكر وأنكره: **لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه**. " [٢٩] . و" المنكر كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو **تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول**، فتحكم بقبحه الشريعة، وإلى ذلك قصد بقوله ﴿**الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر**﴾ " [٣٠].

---

* يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة ٢٤٠ من سورة البقرة مايلي " قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله ﴿.. **يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا**..﴾ البقرة ٢٣٤ " . علما بأن الآية ٢٣٤ من سورة البقرة، تتحدث عن عدّة الزوجة المتوفى عنها زوجها، وليس عن سكناها، وتمتعها بأشيائها.

وعليه فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعنيان **حضّ الناس على فعل ما تسكن له العقول، وتطمئن له النفوس الخيّرة، ونهيهم عما تستنكره وتحكم بقبحه، بهدف تحقيق العدل في المجتمعات الإنسانية** *.

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية استثنائية في الذكر الحكيم، كونه **فرض كفاية، وفرض عين** في آن معا. فمن حيث كونه فرض كفاية، فلأنه فرض على أمة بعينها من المؤمنين – أي على مجموعة منهم فقط – تكون مسؤولة بموجبه عن عمل عموم الأمة به، وعن تحديد مفاهيمه، وشروطه، ومبادئه العامة، بما يحقق للأمة الخير والصلاح، ويدفع عنها الضرر والأذى، أي بما يتناسب وتحقيق صالحها العام.

يقول تعالى:

**﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾** آل عمران ١٠٤. أي أن أمة من المسلمين فقط مكلفة بدعوة الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس جميع المسلمين.

**﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** آل عمران ١١٠.

**﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ○ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن**

---

* ويتفق مع الآيات الكريمة ما روي عن وابصة بن معبد قال: " أتيت رسول الله ﷺ فقال: { جئت تسأل عن البرّ؟ قلت: نعم. قال: استفتِ قلبك، البرّ ماطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك } "، روي في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد صحيح.

**المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ○ ومايفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾** آل عمران ١١٣-١١٥.

أما من حيث كونه فرض عين، فلأنه فرض كذلك على كل مؤمن ومؤمنة دونما استثناء. بمعنى أنه على كل مؤمن ومؤمنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستوى الشخصي، أي فعل كل ما يسكن له العقل، وتطمئن له النفس والفطرة الإنسانية الخيرة، والانتهاء عما تستنكره، وتحكم بقبحه. وهو في ذلك في حكم إقام الصلوٰة، وإيتاء الزكاة.

يقول تعالى:

**﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾** التوبة ٧١ .

**﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾** الحج ٤١.

**﴿يابني أقم الصلوٰة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾** لقمان ١٧.

أما الهدف النهائي الأسمى للإسلام، فهو الإحسان الإنساني على مستوى القول والعمل.

## ٣- الإحسان:

إذا كان القرآن الكريم يعطي المؤمن حق الاعتداء على من يعتدي عليه، والإساءة إلى من يسيء إليه، ويسمي ذلك عدلا، فإنه يدعوه في الوقت نفسه **إلى تجاوز هذا الموقف السلوكي العادل، إلى موقف سلوكي أحسن منه، ومتقدم عليه.** فهو يدعو المؤمن إلى أن يكون محسنا في القول والعمل، أي أن يقابل الإساءة بالعفو، والاعتداء بالتسامح والمغفرة، كلما تطلب الموقف ذلك *، وبما يحقق الصالح العام للأمة، ويدفع عنها الضرر والأذى.

إن القرآن الكريم في مجمله يدعو الإنسان إلى **التحلي بفضائل الأخلاق،** كفضائل الكرم، والحكمة، والأدب، والشجاعة، والتواضع، والعفة، والمروءة، والعفو، والتسامح، والمغفرة. كما يدعوها إلى **تمثل المشاعر الإنسانية النبيلة،** كمشاعر الحب، والرحمة، والرأفة، والمودة. ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك، بل يدعو الناس جميعا إلى أن يكونوا **ربانيين،** بما يتحلون من صفات الله الموصوف بها في كتابه، وبما يدرسون، وينشرون من علم ومعرفة.

يقول تعالى:

**﴿ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾** آل عمران ٧٩.

فالقرآن الكريم يرفع إلى أعلى الدرجات من شأن المؤمن الذي يعطي الآخرين – ماديا ومعنويا – دون انتظار لمقابل، الذي يسمو فوق مشاعر الضعف، والحقد، والأنانية في نفسه، الحليم، الحكيم، القادر على كبح جماح غضبه، وغرائزه، وشهواته، وعلى التسامح، والعفو، والمغفرة. إنه يرفع إلى

---

* ينبغي أن تراعى في ذلك الظروف المحيطة، حتى لا تُستغل خصلة التسامح لدى المؤمن من قبل الآخرين. كما يجدر النظر إلى التسامح باعتباره موقفا ينم عن قدرة على الفعل انطلاقا من معان شريفة سامية، وليس استجابة لضغوط معينة، يكون نتيجتها الضعف، لا التسامح.

أعلى الدرجات من شأن المؤمن القادر على مقابلة الشر بالخير، أو بشر أقل منه، وعلى مقابلة الخير بخير أكثر منه، **ويسمي القرآن الكريم ذلك كله إحسانا.**

وبذلك يختصر **مفهوم الإحسان** في الإسلام تمثل الإنسان للمشاعر الإنسانية النبيلة كلها، كما يختصر السلوكيات الأخلاقية الرفيعة برمتها. **فالمحسن** هو المؤمن الذي يحسن القول والعمل على جميع المستويات، بما يتناسب والظروف المتغيرة للمجتمعات الإنسانية، وبما يحقق الصالح العام للأمة، في كل زمان، وفي كل مكان.

أ- **ويقترن الإحسان** في القرآن الكريم **بالتوحيد**، ونفهم أن ذلك للدلالة على كونه الهدف النهائي الأسمى للدين. **فالأحسن دينا** - مقارنة بالمؤمنين جميعا - هو المؤمن بالله واليوم الآخر، المحسن القول والعمل على ملة ابراهيم عليه السلام، أي مع التزامه **بقواعد الصراط المستقيم**، باعتبارها أساسا ومنطلقا.

يقول تعالى:

**﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ○ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** البقرة ١١١-١١٢.

**﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ○ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾** النساء ١٢٤-١٢٥.

إن شرعة القرآن الكريم تقرر القصاص باعتباره ضابطا لتحقيق العدالة، كما تقرر رد المظالم إلى أهلها، والدّيات. ولكنها تدعو في الوقت نفسه إلى تجاوز هذا السلوك الاجتماعي - على الرغم من كونه سلوكا عدلا بكل المقاييس- إلى سلوك اجتماعي أكثر حبا، ورحمة، وتسامحا، وعفوا، ومغفرة للآخرين. وهي الدعوة الأهم التي تساعد على استقرار العلاقات الاجتماعية،

كونها تعتمد على التصور الفردي الذاتي للمصلحة، وعلى التعارض بين مصالح الأفراد في كثير من الأحيان.

ب- يؤكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الإحسان الإنساني قولا وعملا هو **الهدف الذي خلق الله من أجله الموت والحياة، والسماوات والأرض بزينتها.**

يقول تعالى:

**﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾** الملك ٢.

**﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾** هود ٧.

**﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾** الكهف ٧.

ت- ولهذا فإن للمحسنين، **المتقين كبائر الإثم والفواحش من المؤمنين، ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة،** أي أحسنه.

يقول تعالى:

**﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ○ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾** آل عمران ١٤٧-١٤٨.

**﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ○ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا**

اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ النجم ٣١-٣٢.

﴿إن المتقين في ظلال وعيون ○ وفواكه مما يشتهون ○ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ○ إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ المرسلات ٤١-٤٤.

﴿إن المتقين في جنات وعيون ○ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ الذاريات ١٥-١٦.

﴿أن تقول نفس ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ○ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ○ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ الزمر ٥٦-٥٨.

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ الأعراف ٥٦.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ○ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ آل عمران ١٧١-١٧٢.

﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ النحل ٣٠.

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ○ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ يونس ٢٥-٢٦.

﴿ماعندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ○ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ النحل ٩٦-٩٧.

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ الرعد ٢٢.

﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ المائدة ٨٥.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ الكهف ٣٠.

﴿قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ الزمر ١٠.

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾ الشورى ٢٣.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ النمل ١١.

﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ○ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ○ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ الأحقاف ١٢-١٤.

﴿إن سعيكم لشتى ○ فأما من أعطى واتقى ○ وصدق بالحسنى ○ فسنيسره لليسرى ○ وأما من بخل واستغنى ○ وكذب بالحسنى ○ فسنيسره للعسرى﴾ الليل ٤-١٠.

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون﴾ البقرة ٢٤٥.

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ο فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ الرحمن ٦٠-٦١.

ث- ومن الملفت للنظر اقتران محبة الله للإنسان بالإحسان في آيات الذكر الحكيم. يقول تعالى:

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ البقرة ١٩٥.

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ماتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ المائدة ٩٣.

﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ο فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ آل عمران ١٤٧-١٤٨.

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ο الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ آل عمران ١٣٣-١٣٤.

وبما أن التوابين، والمتطهرين، والمطهرين، والمتوكلين، والمتقين، والمقسطين، والصابرين من المحسنين القول والعمل بالضرورة، لذلك فإن القرآن الكريم يؤكد أن الله **يحبهم جميعا** *.

---

* أما من لا يحبهم الله – كما جاء في آيات الذكر الحكيم – فهم المسرفون، والمستكبرون، والفرحون، والخائنون، والمفسدون، والمعتدون، والظالمون، والمختالون الفخورون، وكل كافر، كفار، أثيم. كما لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم.

والسؤال الآن: هل يمكن للإنسان تجاوز السلوكيات التي يقتضيها العدل إلى سلوكيات أحسن منها، ومتقدمة عليها، ما لم يتحلّ بصفات بعينها، تعينه على تحقيق ذلك؟..

## الإحسان وعلاقته بالصيام:

للإجابة على السؤال المتقدم نقول: بما أن الإحسان هو هدف الدين الأسمى، لذلك يقدم القرآن الكريم المفاهيم والوسائل المساعدة، التي تعين الإنسانية على فهمه، وتدرّبها على العمل به.

فلكي يكون المسلم محسنا، عليه أن يتحلى بفضائل **الكرم، والحكمة، والحلم، والعفو، والتسامح، والمغفرة.** أي أن يتعلم كيف يعطي الآخرين دون انتظار لمقابل، وأن يكون حليما، حكيما عند الغضب، قادرا على كبح جماح نفسه بشهواتها، وغرائزها، وعلى العفو، والتسامح، والمغفرة.

يقول تعالى:

**﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ○ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾** آل عمران ١٣٣-١٣٤.

وهل يستطيع المؤمن أن يكون حليما، حكيما، قادرا على العطاء، ينفق في السراء والضراء، قادرا على كظم غيظه، وعلى العفو عن الناس، **ما لم يكن قبل ذلك كله صبورا، قادرا على احتمال الإساءة والأذى؟..**

لهذا تحتل **فضيلة الصبر** مكانة متميزة في نظر الدين *، فهي صفة **أولي العزم** من الرسل، **وأئمة الإسلام**، و**المحسنين من المؤمنين والمؤمنات**. إنها الفضيلة التي تمنح رسل الله **العزيمة** لإبلاغ رسالات ربهم، كما تمنح أئمة الإسلام والمحسنين من المؤمنين والمؤمنات العزيمة لأداء رسالاتهم على الوجه الأكمل. أي أنها الفضيلة التي تمنح الرسل والأئمة والمحسنين العزيمة على الإحسان قولا وعملا. ولهذا وصفت الآيات الكريمة الصابرين والصابرات من المؤمنين والمؤمنات بأحسن الأوصاف، ووعدتهم جميعا بأحسن الدرجات في جنات الله، ورضوانه.

يقول تعالى:

**﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾** الأحقاف ٣٥.

**﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** السجدة ٢٤.

**﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾** آل عمران ١٨٦.

**﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** هود ١١٥.

**﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما﴾** الفرقان ٧٥.

---

* ذكرت فضيلة الصبر في أكثر من سبعين موضعا في الذكر الحكيم.

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ النحل ١٢٦.

﴿والعصر ○ إن الإنسان لفي خسر ○ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ العصر.

﴿..والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ البقرة ١٧٧.

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ الأحزاب ٣٥.

ويأتي **الصيام** ليكون الفريضة المثلى، التي تدرب المسلم على التحلي **بفضيلة الصبر**، فتجعله أكثر حكمة، وحلما، وهدوءا، وكرما، وتعاطفا مع آلام الآخرين، أي أكثر علما بمواطن الضعف في النفس الإنسانية، وأكثر علما بمواطن القوة فيها. وهي من تداعيات المعنى اللغوي للصوم.

فالفعل صوم " أصل يدل على **إمساك وركود في مكان**. من ذلك صوم الصائم، هو إمساكه عن مطعمه، ومشربه، وسائر مامنعه، ويكون الإمساك عن الكلام صوما، والصوم ركود الريح. والصوم استواء الشمس منتصف النهار " (٣١) .

والصيام شرعاً " الإمساك عن المفطرات يوما كاملا، من طلوع الفجر الصادق، إلى غروب الشمس.. وشروط الصيام هي: شروط وجوب، وشروط صحة، وشروط أداء.. " (٣٢) .

وإذا كان ابن مسكويه يعرّف **فضيلة الصبر** " بأنها **مقاومة النفس للهوى، لئلا تنقاد لقبائح الأشياء، أو هي احتمال الكد..**" (٣٣) *، فإن هذا التعريف يكاد ينطبق على تعريف مضمون الصيام. لقد كتب الله الصيام على المؤمنين في ظل الشرائع السماوية جميعا، **تدريبا لهم على تنظيم شهوات النفس وغرائزها، وعلى مقاومة الشر والهوى فيها**. أي تدريبا للنفس الإنسانية على مبدأ **التقوى** على وجه العموم **.

يقول تعالى:

**﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ○ أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ○ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون ○ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ○ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ○ ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾** البقرة ١٨٣-١٨٨ .

---

* يجب أن نفرق هنا بين الصبر من جهة، وبين الذل، والاستكانة، والرضا بالواقع غير الصحيح من جهة أخرى.

** راجع معنى التقوى في الفصل الثالث، بحث **العمل الصالح وتقوى الله**.

أ- والصيام **عمل شاق نسبيا**، لأنه جهاد ضد الاحتياجات الجسدية الفطرية للإنسان، كالإمساك عن الطعام، والشراب، والجماع، وضد ميله إلى فعل الشر أحيانا، كالغش بالكيل والميزان، وقول الزور، والحنث باليمين، وغيرها.

ويؤكد على ذلك فرض الصوم باعتباره كفارة للذنوب والسيئات، فهو كفارة القتل الخطأ (النساء ٩٢)، وكفارة مظاهرة النساء (المجادلة ٤)، وكفارة الحنث باليمين (المائدة ٨٩)، وكفارة الأخطاء التي ترتكب أثناء الحج (البقرة ١٩٦)..إلخ. وكأن الذكر الحكيم يقول: إن على الإنسان الذي يقترف الذنوب والسيئات تدريب نفسه على اجتنابها من خلال الصيام.

ويتفق مع هذا ما روى في **صحيح البخاري** عن النبي الكريم ﷺ قوله " من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه **بالصوم**، فإنه له **وجاء** "، كتاب الصوم، الحديث رقم (١٨٠٦).

كما يتفق معه ما روى عن الرسول الكريم قوله في **صحيح البخاري** "من لم **يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** "، كتاب الصوم، الحديث رقم (١٨٠٤).

إن مجاهدة المؤمن لهوى النفس، وشهواتها، وغرائزها لساعات قليلة أثناء النهار، يمنحه الصبر، والحلم، والحكمة، والعزيمة على مجاهدتها وتنظيمها في كل الأوقات، بما يحقق صالحه والصالح العام.

ب- وإذا كان الصيام عملا شاقا نسبيا، إلا أنه لم يفرض على المؤمنين عقابا لهم، أو تعسيرا لأمورهم ﴿.. **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر..**﴾ *، وإنما لأنه يعود عليهم بالخير، والمنفعة ﴿..**وأن تصوموا خير لكم..**﴾.

ت- تشترك **الشرائع السماوية في فرض الصيام** على المؤمنين وفق شروط محددة. ولذلك فمهما اختلفت شروط الصوم من شرعة لأخرى، أي طريقة إمساك المؤمنين عن الطعام، والشراب، وتوقيته، ومدته، **يظل مضمون الصيام واحدا فيها جميعا**، وهو تدريب المؤمن على التحلي بفضائل الأخلاق - وعلى رأسها فضيلة الصبر - وصولا به إلى الإحسان قولا، وعملا، وسلوكا، بهدف تحقيق صالح الإنسان نفسه، والصالح العام.

ث- يؤجر المسلم على صيامه إذا أثمر فعلا عن اجتنابه للذنوب، والسيئات، أثناء صومه، وبعده. أمّا إن لم يثمر الصيام عن ذلك، **فلا يؤجر المسلم عليه، ولا قيمة له عند الله**.. والله أعلم.

ويتفق مع هذا ما يروى عن الرسول الكريم قوله " **كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الظمأ**، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ السهر. " (٣٤) .

ولأن التضحية بالنفس وبالمال أعلى درجات الإحسان، فإن الجهاد في سبيل الله أهم وسائله.

---

* وعن النبي ﷺ قوله " أحب الدين لله الحنيفية السمحة "، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

## **الإحسان وعلاقته بالجهاد في سبيل الله:**

الجهاد مصدر مشتق من الفعل جهد، و" أصله **المشقة**، ثم يحمل عليه ما يقاربه. يقال جهدت نفسي، وأجهدت، والجهد، والطاقة " [٣٥]. " والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. **والمجاهدة تكون باليد واللسان** " [٣٦].

أ- والجهاد في سبيل الله **أعلى درجات الإحسان قولا وعملا**، ويتطلب أن يتحلي المؤمن **بفضيلة الصبر**. ويكون الجهاد **بالمال**، أو **بالجهد**، أو **بالنفس**، إلى درجة **تضحية المؤمنين بأنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك.**

يقول تعالى:

**﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾** العنكبوت ٦٩.

**﴿ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾** محمد ٣١.

**﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** النحل ١١٠.

**﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾** الحجرات ١٥.

**﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾** التوبة ٨٨.

**﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ○ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ○ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾** الصف ١٠-١٢.

و﴿..**في سبيل الله..**﴾ تعبير نفهم منه المجاز، **ويعني في سبيل تحقيق الصالح العام للإنسان، والإنسانية، والكون**، في كل الميادين، الثقافية، والعلمية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والبيئية، وغيرها. وهو كذلك للأسباب التالية:

بما أن الله هو **الرحمن الرحيم القادر المقتدر العلي القدوس** صاحب الأسماء الحسنى، وبما أنه تعالى **غني غنىّ مطلقا** عن أفعال الإنسان كلها، وبما أنه أوحى **بدينه الواحد وبالشرائع كلها من أجل تحقيق صالح الإنسان، والإنسانية، والكون**، وليس من أجل تحقيق مصلحة له سبحانه، لذلك فإن الجهاد في سبيل الله يعني بالضرورة **الجهاد في سبيل تحقيق الصالح العام للإنسان، والإنسانية، والكون**، وليس لله منه شيء.

ولهذا يقول تعالى:

﴿**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾ العنكبوت ٦ *.

إن كل **جهد صالح يشقّ** على المؤمن من العامة بذله، ويبذله المؤمن بهدف تحقيق صالحه، أو الصالح العام، يُعتبر جهادا في سبيل الله، وهو أعلى درجات الإحسان. فجهد المفكرين والعلماء على سبيل المثال، والمدافعين عن حقوق الإنسان والبيئة، والعاملين على تخفيف الآلام الإنسانية من الفقر

---

* ويتفق مع هذا ما روي في **صحيح مسلم** في حديث قدسي " **يا ابن آدم مرضت فلم تعدني**، فيقول ابن آدم: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده أما إنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم **استطعمتك فلم تطعمني**، فيقول: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلان استطعمك فلم تطعمه أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم **استسقيتك فلم تسقني**، فيقول: كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي "، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم (٢٥٦٩). كما روي في **صحيح البخاري** أنه " جاء رجل إلى نبي الله ﷺ، فاستأذنه في **الجهاد**، قال: أحيّ والداك ؟ قال: نعم. قال: **ففيهما فجاهد** "، كتاب الجهاد، الحديث رقم (٢٨٤٢).

والمرض، وأثناء الحروب والمجاعات والأوبئة، تُعتبر جميعها جهادا في سبيل الله.

أما التعبير المعاكس، فهو **الصدّ عن سبيل الله**، ويعني إلحاق الضرر والأذى بالإنسان، وبالصالح العام.

يقول تعالى:

**﴿يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾** التوبة ٣٤.

**﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين﴾** المجادلة ١٦.

**﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ○ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** الأعراف ٨٥-٨٦.

ب- ولذلك على المجاهدين أن يلتزموا **بقواعد الصراط المستقيم**، الدين القيم على الدين كله، ملة إبراهيم عليه السلام. وهذا يعني أن الجهاد الذي يبرر قتل الناس بغير الحق على سبيل المثال، ولا يلتزم بالوفاء بالعهود، وبالكيل والميزان بالقسط، وبالقول العدل، هو جهاد باطل، لا تقرّه آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ○ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلو'ة وآتوا الزكو'ة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ الحج ٧٧-٧٨.

أي أن الجهاد يكون بالجدال بالتي هي أحسن، وبالحكمة، وبالموعظة الحسنة، باعتبار ذلك أساسا ومنطلقا. يقول تعالى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ النحل ١٢٥.

ت- وبما أن الإحسان هو الهدف الأسمى للدين، وبما أن الجهاد في سبيل الله أعلى درجات الإحسان قولا وعملا، فإن للجهاد في سبيل الله أهمية استثنائية في الذكر الحكيم. حيث أنه بذاته **مقياس صريح لدخول المؤمنين جنات الله، وللتفضيل الإلهي** للناس بعضهم على بعض.

يقول تعالى:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾ النساء ٩٥.

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ التوبة ٢٠.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ آل عمران ١٤٢.

ونختتم الفصل بالقول: لقد عرّف القرآن الكريم الإحسان مع التوحيد بأنهما يجسدان **العروة الوثقى للدين**، من يستمسك بها، فقد استمسك بالدين كله.

يقول تعالى:

﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن <u>يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله</u> فقد <u>استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها</u> والله سميع عليم**﴾ البقرة ٢٥٦.

﴿**<u>ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى</u> وإلى الله عاقبة الأمور**﴾ لقمان ٢٢.

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار كون الإحسان يتضمن العدل بالضرورة، ويتجاوزه تقويما، فإن **العروة الوثقى للدين تعكس أهدافه**، التي لا انفصال لها، وهي **التوحيد، والعدل، والإحسان.**

# مصادر ومراجع الفصل الرابع


(١) الشاطبي، أبو اسحاق ابراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، المجلد الثاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص: ٦-٧ و ٥٤.

(٢) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٣) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٤) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، دار النفائس، بيروت ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م.

(٥) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(٦) الجزيري، عبد الرحمن، **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص: ١٦٠.

(٧) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(٨) المصدر السابق، في شرح الفعل (صلا).

(٩) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، **الجامع الصغير**، الجزء الثاني، ص: ٨٠.

(١٠) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، في شرح الفعل (صلا).

(١١) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١٢) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، في شرح الفعل (صلا).

(١٣) العالم، يوسف حامد، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٥)، الطبعة الثانية، الرياض، المملكة العربية السعودية، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ص: ٨٦.

(١٤) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١٥) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(١٨) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**.

(١٩) نصار، محمد عبد الستار، **دراسات في فلسفة الأخلاق**، جامعة الأزهر، جامعة قطر، مكتبه لطباعة الأوفست، ١٩٨١م، ص : ٢٥٢.

(٢٠) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة**.

(٢١) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(٢٢) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٢٣) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(٢٤) مصدر سابق، **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، الجزء الأول، ص: ٥٣٦-٥٦٢.

(٢٥) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٢٦) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(٢٧) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) المصدر السابق.

(٣٠) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

(٣١) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٣٢) مصدر سابق، **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، الجزء الأول، ص: ٤٩٢و٤٩٤.

(٣٣) مصدر سابق، **دراسات في فلسفة الأخلاق**، ص: ٢٤٥.

(٣٤) الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله، **مشكاة المصابيح**، كتاب الصوم، حققه ناصر الدين الألباني وقال إسناده جيد، المكتب الإسلامي، دمشق، سورية، ١٤٠٥هـ. رواه أيضا الدارمي في سننه، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.

(٣٥) مصدر سابق، **معجم مقاييس اللغة.**

(٣٦) مصدر سابق، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم.**

# الفصل الخامس

## رأي في الدين والدولة

إن الإشكالية التي مازالت تفرز الكثير من أعمال العنف في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، حول ما يدعى بفصل الدين عن الدولة، نشأت نتيجة لعدم التمييز بين **الدين القيم على الدين كله الواحد لدى الأمم جميعا من جهة**، وبين **الشرائع السماوية المتعددة من جهة أخرى**.

وبما أن دين الإسلام أُوحي للإنسانية من أجل تحقيق صالح الإنسان، والإنسانية، وسعادتهما، وصالح الكون..

وبما أن الكتاب الواحد الحق/أم الكتاب هو **الدين القيم على الدين كله**، الذي طلبت الرسالات السماوية جميعها من الإنسانية الالتزام به، وتطبيقه، واعتبرت الخروج عنه خروجا عن دين الله..

وبما أن الدولة معنية أكثر من غيرها بتحقيق صالح الإنسان بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام، باعتبارها السلطة التي تقبض على زمام الأمور..

**لذلك فإن الدولة – ممثلة بدستورها وبسلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية – مطالبة بالالتزام بالكتاب الحق/أم الكتاب، باعتباره دين الله القيم على الدين كله، وفطرة الله التي فطر الناس جميعا عليها، أي الذي لا تختلف فيه الأمم.**

إن دستور الدولة الإسلامية وأنظمتها مطالبة بتحرير نفسها من أي تبعية فكرية محتملة لدولة أخرى أو لايديولوجيا عالمية أخرى، وبحفظ كرامة الإنسان التي حفظها الله له، وحريته التي وهبه الله إياها. وهي مطالبة بتكريس نظام الأسرة، باعتباره القاعدة الأساسية للمجتمعات الإنسانية وخليتها الأولى، خصوصا فيما يتعلق بحفظ حقوق الوالدين، والأيتام *. وهي مطالبة أيضا بالالتزام بالعهود، وبالمواثيق المحلية، والدولية، وبالقول العدل، وبنشر العدل بأنواعه، وبالوفاء بالكيل والميزان بالقسط، وباجتناب الغش، والتزوير، والقتل بغير حق، والفواحش، الظاهرة منها والباطنة **.

وبما أن تفاصيل **الشرائع** جميعاً هي تطبيقات على الدين القيم، تنبثق عنه، وتدور حوله، وتصب فيه، وقد أكد القرآن الكريم مشروعية اختلافها بين الأمم من حيث الشكل، كونها تتحد في المضامين الفكرية والأهداف النهائية، كما وجه الأمم إلى تطبيق كل أمة لأحكامها، وعدم فرضها بحال من الأحوال على الأمم الأخرى.. ***

وبما أن الدولة في عصرنا الراهن تضم في الغالب أمما متعددة تعيش بين ظهرانيها، تربو على العشرات أحيانا..

**لذلك فإن تطبيق أحكام الشرائع لا علاقة له بالتنظيم السياسي للدولة، وإنما بالقوانين المدنية فيها.**

---

* عندما تعترف أنظمة الدولة **بمشروعية الزواج من الجنس نفسه** على سبيل المثال، كما هو حاصل في بعض الدول المتقدمة في عصرنا الحالي، وبالتالي تعطي أصحابه حقوق الزواج الطبيعي، كحقوق الميراث، وحقوق الطلاق، فإنها تخطو بذلك الخطوة الأولى نحو هدم النظام الطبيعي للأسرة في مجتمعاتها، وبالتالي نحو انحلالها، وفنائها.

** من الملفت للنظر أن أغلب دساتير العالم تتعهد بتنفيذ الكثير من المبادىء المذكورة، لذلك فهي تتفق إلى حد كبير مع دستور القرآن الكريم.

*** هذا إن رغبوا عن شرعة القرآن الكريم. مرّ تفصيل ذلك في بحث الأمم والشرائع والحساب.

لقد أعطى القرآن الكريم لكل أمة من الأمم الحق في تطبيق أحكام شرعتها، وليس لأحد أن يمنعها من ذلك. لذلك فإن **القوانين المدنية في الدولة هي المعنية بتطبيق أحكام الشرائع المتعددة**، بشكل مستقل تماما عن السلطات السياسية. *

بهذا فقط نستطيع حماية المجتمعات الإنسانية من خطر القلاقل الدينية، والاختلافات المذهبية، والحروب الطائفية.

**وبما أن فهم الإنسان للأحكام الشرعية يختلف باختلاف المجال التاريخي الذي يعيش فيه، كما يختلف بالضرورة منهاجه في تطبيق تلك الأحكام، أي في آلية نقلها إلى الوجود الموضوعي..**

**وبما أن المعطيات الزمانية والمكانية للمجتمعات الإسلامية اختلفت اختلافا جذريا عما كانت عليه زمن تأسيس الفقه الإسلامي بمذاهبه المعروفة..** **

لذلك فإن الأمة الإسلامية مدعوّة اليوم إلى تشكيل **هيئة إسلامية عليا لتفسير القرآن الكريم**، تُعنى بتأسيس فهم معاصر للذكر الحكيم، يستوعب حاجات العصر، ويستخدم لغته، وأدواته المعرفية.

إن العالم الإسلامي اليوم يعاني – أكثر من أي وقت مضى – من **غياب التفسير العلمي المنهجي المعاصر للقرآن الكريم**، الذي يعبّر عن الاتجاهات الفكرية الحقيقية للمسلمين في زماننا المعاصر، ويستجيب

---

* وهي ما تُعنى بتطبيقه دوائر الأحوال الشخصية في بعض الدول الإسلامية في عصرنا الحالي.

** أذكر هنا على سبيل المثال، أن نائبا مسلما في المجلس البلدي في باريس طالب مؤخرا بتأسيس **فقه إسلامي خاص بالأقليات المسلمة التي تعيش في أوروبا وأمريكا، يستجيب لاحتياجاتها، وتطلعاتها الخاصة بها.**

لمعطياتهم وتطلعاتهم التاريخية المستجدة، الاجتماعية منها، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والبيئية وغيرها. وهذا يعني غلبة الاجتهادات الفردية بالضرورة، وتوجيه السلطات السياسية في كثير من الأحيان، واستغلالها للألمعيّين من المفكرين. ولا يُقصد بهذا توجيه اللوم إلى أحد، لأن الدولة أصبحت أكثر هيمنة، وقوة، وجبروتاً من أن يتصدى لها فرد واحد، حتى لو قدّم في سبيل ذلك كل التضحيات.

لقد أسفر غياب التفسير العلمي المنهجي المعاصر للقرآن الكريم عن **غياب المرجعية الدينية العلمية المعاصرة للأمة**، ومن ثمّ عن **غياب الإجماع الديني العلمي لعلمائها**، الأمر الذي يشعر به الكثير من المسلمين اليوم في قرارة أنفسهم، بل ويعيشوه من خلال تفاصيل حياتهم اليومية أحيانا *.

إن الكثير من المسلمين اليوم مازالوا في حيرة مثلا بين أن يأخذوا بفتوى شيخ الأزهر، التي تنفي عن **الفوائد المصرفية** صفة الربا، أم لا يفعلوا **. كما أن الكثير منهم في حيرة بين أن يجيزوا **زواج المسيار*****، **وزواج المتعة** ****، أم لا يفعلوا. وسيكونوا في حيرة أيضاً بين أن يجيزوا **الوصية للورثة**، أم لا يجيزوها.

---

* يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا الصدد: " إن الناس **منقسمون اليوم**، مابين منغلق يريد أن يسد علينا أبواب الرحمة، ولا يريد لنا أن نعيش عصرنا، وأن نظل **أسرى الماضي وسجناء الموروث**، ومن يريدون أن نفتح الأبواب على مصاريعها، دون احترام لثوابت ديننا.. وكلتا الطائفتين على خطأ ". القرضاوي في لقاء مفتوح بمعرض الكتاب، جريدة الوطن القطرية، العدد (٤٧٦)، الدوحة، قطر، ٩٦/١٢/٢٢.

** شيخ الأزهر حاليا هو الشيخ/ محمد سيد طنطاوي. والأزهر من المؤسسات الدينية الأهم في العالم الإسلامي.

*** **زواج المسيار** هو زواج انتشر مؤخرا في بعض البلدان الإسلامية، تتنازل المرأة بموجبه عن بعض حقوقها المكتسبة، باعتبار ذلك حلاً للمشاكل الاجتماعية القائمة.

**** ورد في **صحيح البخاري، كتاب النكاح**، روايات **تنهى عن نكاح المتعة** (ذكرت في بحث النسخ)، وأخرى تبيحه للضرورة. **ومما جاء في إباحته للضرورة** " عن أبي حمزة قال: سمعت ابن عباس يسأل عن **متعة النساء** فرخص، فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد، وفي النساء قلة، أو نحوه، فقال ابن عباس: **نعم** " الحديث رقم (٤٨٢٦). و " عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالا: كنا في جيش، فأتانا رسول الله ﷺ فقال: **أذن لكم أن تستمتعوا، فاستمتعوا**. وقال ابن أبي ذئيب:

ولا يقتصر اختلاف المسلمين اليوم على القضايا الصغيرة المذكورة، بل يتعداها إلى المسلّمات والمفاهيم الأساسية للدين، **كمفهوم الردة عن الدين** *.

إن ما يحتاجه المسلم اليوم هو قيام هيئة تُعنى بشرح مسلمات الدين ومفاهيمه الأساسية كلما تطلب الأمر ذلك، وتستنبط أحكامه من القرآن الكريم نفسه باعتباره المرجع الأول للفكر الإسلامي، وتجدد مناهجه بما يستجيب لمتطلبات العصر المتغيرة، **مستخدمة في ذلك كله لغة العصر، وأدواته المعرفيـــة** **.

ويجدر بالهيئة المقترحة مراعاة ما يلي:

أولاً: أن تكون **مستقلة تماماً فكرياً واقتصادياً**: بحيث تتجاوز السلطات السياسية للدول، بما يضمن استقلالها الفكري، وتموّل من تبرعات المسلمين، بما يضمن استقلالها الاقتصادي.

---

حدثني إياس بن سلمة بن الأكوع، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: { أيما رجل وامرأة توافقا، فعشرة مابينهما ثلاث ليال، فإن أحبا أن يتزايدا، أو يتتاركا تتاركا.}، فما أدري أشيء كان لنا خاصة، أم للناس عامة."، الحديث رقم (٤٨٢٧). ويقول **ابن كثير** في تفسيره للآية الرابعة والعشرين من سورة النساء " **استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة**، ولا شك أنه كان مشروعا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه **أبيح ثم نسخ، ثم أبيح ثم نسخ مرتين**، وقال آخرون: أكثر من ذلك.. **وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة**، وهو رواية عن الإمام أحمد، وكان ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرؤون (فما استمتعتم به منهن **إلى أجل مسمى** فآتوهن أجورهن فريضة) ".

* أشير إلى اختلاف المسلمين اليوم حول قضية الكاتب الإسلامي نصر حامد أبو زيد، التي حكمت محكمتا الاستئناف والنقض المصريتان بالتفريق بينه وبين زوجته، بسبب ما نشره من أفكار بيّنة على كفره، كما جاء في حيثيات الحكم. وربما **كان هذا الاختلاف وراء إيقاف تنفيذ الحكم فيما بعد.**

** يمكن أن نستفيد من تجربة الولايات المتحدة الأمريكية في إنشائها **للمحكمة العليا** (Supreme Courte)، وهي **الجهة المسؤولة عن تفسير بنود الدستور في البلاد**، وعن دستورية ما يصدر من قوانين وأفعال من السلطتين التشريعية والتنفيذية. ومن أهم قوانين تلك المحكمة، أن أعضاء هيئتها يُعيّنون لمدى الحياة، وذلك حتى لا يتم توجيههم سياسيا، أو استغلالهم وظيفيا.

ثانياً: **القرآن الكريم هو المرجع الفكري الديني المنزّه للهيئة،** الأمر الذي يوحّد بين الاتجاهات الفكرية الدينية للعلماء، ويساعدهم على تجاوز اختلافاتهم المذهبية.

ثالثاً: تضم الهيئة ممثلين عن **المذاهب الفقهية المختلفة، والاتجاهات الفكرية السائدة للمسلمين جميعاً.** كما تضم في عضويتها كبار علماء الطب، والرياضيات، والفيزياء، والفلك، والاجتماع، والتاريخ، والفلسفة، والألسنيات..إلخ – وهم أصحاب المنطق العلمي الذي يخدم التفسير القرآني ويضيئه – إلى جانب علماء اللغة والفقه.

رابعاً: **تضطلع الهيئة بالمهام الرئيسية التالية:**

أ- **تفسير آيات الذكر الحكيم وفق منهاج علمي معاصر، بحيث يستوعب حاجات العصر، ويستخدم لغته، وأدواته المعرفية.**

ب- **استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم نفسه، باعتباره المرجع الأول للفقه الإسلامي.**

ت- **المراجعة المستمرة لمنهاج الأمة في تطبيق الأحكام الشرعية،** بما يستجيب لمعطياتها وتطلعاتها التاريخية المتغيرة، الاجتماعية منها، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والبيئية وغيرها.

خامساً: **يُلحق بالهيئة معهد للإحصاءات والدراسات العلمية،** وظيفته إجراء الإحصاءات، والدراسات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها، اللازمة لتحديد منهاج الأمة المعاصر في التطبيق الأمثل لأحكام القرآن الكريم.

سادساً: مقر الهيئة يكون في **أكثر الدول نهجا للديمقراطية في العالم الإسلامي.**

سابعاً: قيام تلك الهيئة **لا يعني إقفال الباب أمام الاجتهادات الفردية**، بل يساعد على تعميم الصالح منها، وعلى نقد وتقويم المحاولات التي لم تصل تماما إلى الصواب.

إننا نرى صعوبة قيام مثل هذه الهيئة، لأن احتمالات احتوائها، أو تدجينها، أو الشلل المؤسساتي الذي يمكن أن يخطط له من قبل الخصوم، كثيرة ومعروفة. لكننا نرى أيضا أن علماء الإسلام المخلصين – وهم موضع الخطاب في هذا المقام – أقوى من أن ييأسوا، وأكبر من أن يُحبطوا.

فعلى الرغم من طغيان السياسات على الأفكار، والإيديولوجيات على طلب الحقائق، فإننا جميعا نؤمن بقوله تعالى:

**﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** التوبة ١٠٥.

كما نؤمن بقوله تعالى:

**﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾** الرعد ١٧.

إن دعوتنا هذه تتجاوز السياسات، والإيديولوجيات، والمصالح الآنية.

إن وجداننا الثقافي وجذورنا الحضارية مرتبطة بالإسلام، فهو ديننا الحق، وثقافتنا المؤسسة، وفكرنا اللصيق. وفي أي فكرة، أو سلوك، نرى الإسلام في وجدان الجميع، ومادور العلماء إلا أن ينقلوا هذا المستوى غير الفاعل للدين إلى مستوى فاعل، وخيّر، ومؤثر في الحياة.

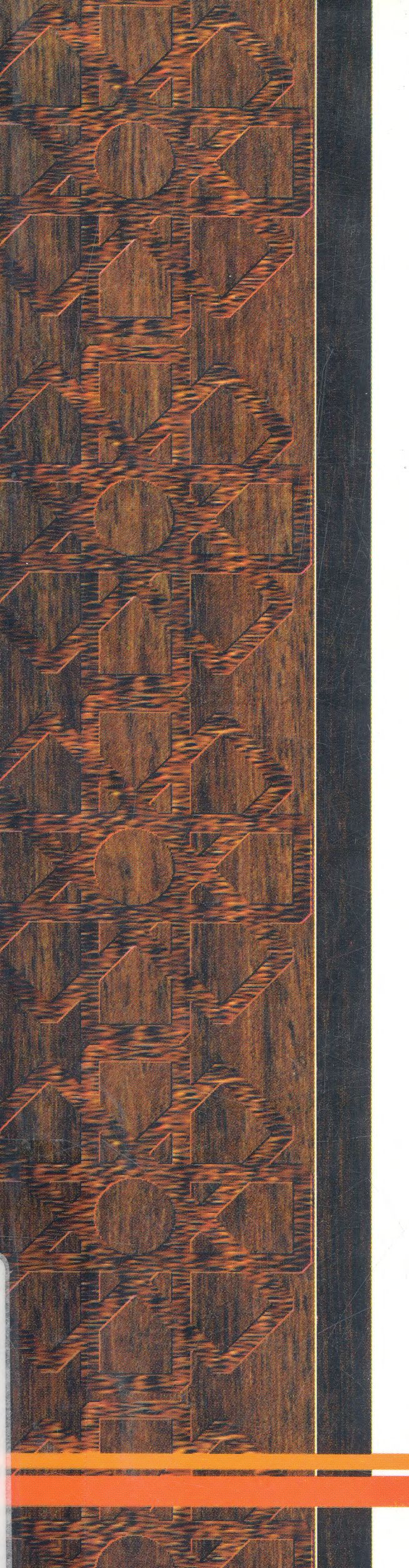
إن الهيئة المقترحة، يمكن أن تقوم بأكثر المهام إلحاحا في زماننا المعاصر، وبأكثر الواجبات خدمة للأمة، التي باتت بأمس الحاجة إلى مؤسسات دينية، علمية، حضارية، تقدم عبر دورها الثقافي والحضاري صورة المسلمين الحقيقية إلى العالم، متفائلين بأن يساهم قيام مثل هذه الهيئة في حفظ وحدة الأمة، وقوتها، واجتماع كلمتها.

نسأل الله سبيل الرشاد..

والله ولي التوفيق.

**تم الكتاب بعون الله.**

***



يدعو القرآن الكريم الإنسانية للعودة إلى **قواعد الصراط المستقيم**، التي أوحيت إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إلى موسى وعيسى عليهما السلام من بعده، وأخيرا إلى محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل. فهل يعني القرآن الكريم بذلك التأكيد على وحدة **القواعد الإسلامية المشتركة** للشرائع السماوية الثلاث؟..

وإذا كانت قواعد الإسلام واحدة، فلماذا تتعدد الشرائع السماوية إذاً؟.. وهل تعدد الشرائع يعني تعدداً في الأديان؟..

وما هو موقع **العمل الصالح** من ذلك كله؟.. وما هي **أهداف الإسلام**؟.. وهل **للفرائض دور** في تحقيق تلك الأهداف؟..

يطمح هذا الكتاب إلى سبر غوْر ذلك النبع الواحد، الذي استقت منه الشرائع السماوية مضامينها، ومعانيها، ومبادئها الفكرية، شارحا **الأبعاد العالمية للإسلام**، آخذاً بيد الإنسانية إلى أرضية صلبة، **تتجاوز عليها جلّ الاختلافات الدينية والمذهبية على مستوى العالم.**